الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي — كلية الآداب واللغات

جامعة الحاج لخضر . باتنة — قسم اللغة العربية وآدابها

مستويات الأداء البلاغي في القراءات القرآنية المختلفة في المعنى المعجمي

- دراسة دلالية بلاغية -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم، تخصص : علوم اللسان العربي

إعداد الطالب :

• نصر الدين وهابي

إشراف :

• د : لخضر بلخير

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
الشريف ميهوبي	أستاذ محاضر	باتنة	رئيسًا
لخضر بلخير	أستاذ محاضر	باتنة	مشرفًا ومقررًا
محمد بوعمامة	أستاذ التعليم العالي	باتنة	مناقشًا
صالح خديش	أستاذ التعليم العالي	خنشلة	مناقشًا
عمار شلواي	أستاذ التعليم العالي	بسكرة	مناقشًا
صلاح الدين ملاوي	أستاذ محاضر	بسكرة	مناقشًا

السنة الجامعية: 2012 - 2013 م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً

لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[يوسف : 02]

مقدمة

في ظني أنه لم تَرْعَ أمة من أمم الكتب المقدسة كتابها كهذه الأمة، ذلك أنه تكاد تتصرف غالب مجالات النشاط المعرفي فيها إلى غاية واحدة، هي فهم القرآن الكريم.

وليس غريبا كذلك أن يكون من الخير، كل الخير، أن يعلِّق المسلم همته بخدمة القرآن الكريم، تَعلُّما وتعليما، إذ ليس للمسلمين من سبيل إلى حياة طيبة، ذات شرع قائم، ونظام حاكم، إلا بما يأخذونه من كتابهم العربي المبين.

وليس للمسلمين من سبيل كذلك إلى بلوغ ما يؤمونه، من فهم القرآن الكريم، إلا بما يتاح لهم من معرفة بلغة القرآن، ومن إحاطة بنظامها، وقوانينها، وسننها الإبلاغية، وخصائصها البيانية، ومن هنا زخر ذلك التراث اللغوي العربي ببحث لغة القرآن من جميع ما يتصل بمستويات البحث فيها.

ثم إنه لما استقر في علم المسلمين أن ليس القرآن إلا كل ما قد قرئ به، أي كل ما صح نقل القراءة به عمن أوحي إليه به، ﷺ ، تأكد لديهم وجوب توسيع العناية بالقرآن الكريم على ما يحيط بكل حرف منه، مما جاء به النقل الصحيح، ومن هنا، يأتي تفسير أن يكتب علماء القرآن في القراءات كل ما كتبوا، وأن ينفقوا في سبيل حفظها وضبطها من الجهد ما قد أنفقوا.

وأما توجيهها من كلام العرب، وحملها على مقتضى قواعده وسننه، فباب واسع ومضمار شاسع، إنما يفي بتفسير عِظَمِ العناية به عند علماء المسلمين، صدورهم عن الإيمان بالحكمة في اختلاف وجوه القراءة، وهي زيادة على الغرض التيسيري، تُرى في تنويع المعاني، وإثراء الدلالة، وتوسيع الفهوم، وإنها عندهم لإحدى مظاهر الإعجاز في لسانه، والتفرد في أساليب إبلاغه وبيانه.

اختلفت القراءات القرآنية في وجوه أدائها، على ما يدخل في غالب أبواب اللغة من إعراب وبناء، وتركيب وصرف وصوت، وغيرها، طلبا لتحقيق ما تقدم الكلام فيه، لكن الذي عليه اعتقادي أن ما يدخل منها في باب المعجم، على المعنى الذي أقمت عليه هذا البحث، آكد اتصالا بغرض تنويع المعنى وتكثيره، ذلك أن الاختلاف المعجمي بين قراءتين ينتظم الاختلاف الصوتي والصرفي، وربما زاد على ذلك بأن إذا لم يحتمل لفظا القراءتين وظيفة نحوية واحدة، ضُمَّ إلى ذلك الاختلاف التركيبي أيضا.

ومن هنا جاء التفكير في البحث على القدر الدلالي الذي يمكن للاختلاف المعجمي بين القراءات أن يبلغه، واتخذت من هذا أساسا لأقول:

- هل المساحات الدلالية، والآماد الإبلاغية، المترتبة عن الاختلاف المعجمي في القراءات تقصر عن أن تختص بمجال بحثي، ضمن فن توجيه القراءات، يكشف عن خطره وأهميته ؟.

- إن يكن من هذا ما لا يتجاوز غاية التنويع التعبيري، والتلوين الإبلاغي، قصدا إلى التفنن، فهل يكون من غير الضروري السعي في حصر الوسائل الفنية، في لغة القرآن الكريم، تحقيقا للغاية الإعجازية في الخطاب ؟.

- أليس يتيح لنا إفراد هذا الوجه من وجوه القراءة بمجال بحثي خاص إقامة الوسيلة المنهجية لفرز ما يكون من صحيح الوحي، عما لا يظفر بهذه المرتبة، مما يصطلح عليه بالقراءة التفسيرية ؟.

- ما الإمكانات الأكاديمية، في جانبها التنظيمي، التي تتكفل بإتاحة أكثر التصورات دقة وضبط لبحث هذا الوجه من القراءات القرآنية ؟.

إن هذا ما عقدت النية في البحث فيه.

ثم إني لم أقف على دراسة سعت في الإجابة عن السؤال الأخير، ضمن مجمل ما طرحت آنفا، إلا ما عمد منها، في أحسن الأحوال، إلى تخصيص مبحث أو مبحثين، ضمن طرح عام، قد يفهم منه أن دراسة الاختلاف المعجمي بين القراءات ما هو إلا أمر جزئي، قد يُكتفى بالإلماع إليه فحسب، أو بالمرور به في سبيل الخلوص إلى غاية بحثية بعده، وكان، من ثم، أن فكرت في جعل هذا المبحث الجزئي طرحا قائما بذاته، يكون عنوانه:

"مستويات الأداء البلاغي في القراءات القرآنية المختلفة في المعنى المعجمي"

. دراسة دلالية بلاغية ..

وقد تصورت أن أبحث في الموضوع على النحو التالي:

- فصل تمهيدي: وجعلته أساسا نظريا، عرضت فيه إلى: القراءات المختلفة معجميا، وذلك من جهة:

1- ضبطها مفهوما وصورا.

2- تصنيفها لغويا.

3- المباحث اللغوية المتصلة بها.

ثم مضيت إلى التطبيق بأن آثرت أن أوزع مباحثي على بابين، جعلت أحدهما للأسماء، وقدمته، وجعلت الثاني للأفعال، وأخرته، وفاقا للغويين والنحاة في تقديم الأسماء على الأفعال في نظام بحوثهم فكان، من ثم، :

- **<u>الباب الأول</u>:** درست فيه: **الفروق الأدائية البيانية في القراءات المختلفة معجميا في الأسماء.**

وبنيته على فصلين:

- **<u>الفصل الأول</u>: الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما وافق المعنى.**

وانتظم بدوره مبحثين:

<u>الأول</u>: فروق المعاني: أو الترادف.

<u>الثاني</u>: فروق المباني: أو الصيغ والأبنية.

- **<u>الفصل الثاني</u>: الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما خالف المعنى.**

وانتظم مبحثين:

<u>الأول</u>: مخالفة المعنى مع التقارب الصوتي.

<u>الثاني</u>: مخالفة المعنى مع التباعد الصوتي.

- <u>الباب الثاني:</u> ودرست فيه: **الفروق الأدائية البيانية في القراءات المختلفة معجميا في الأفعال.**

وبنيته كذلك على فصلين:

• <u>الفصل الأول:</u> الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما وافق المعنى.

وانتظم بدوره مبحثين:

<u>الأول:</u> فروق المعاني: أو الترادف.

<u>الثاني:</u> فروق المباني: أو الصيغ والأبنية.

• <u>الفصل الثاني:</u> الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما خالف المعنى.

وضم مبحثين كذلك:

<u>الأول:</u> مخالفة المعنى مع التقارب الصّوتي.

<u>الثاني:</u> مخالفة المعنى مع التباعد الصّوتي.

ثم انتهيت إلى خاتمة حوت طائفة من النتائج والخلاصات.

وقدرت أن يكون المنهجُ التحليلي المقارن، في عمومه، وكذا السيميائي المعنمي، في خصوص مسألة الترادف منه وسيلتي الأوفى ببلوغ غايتي من بحثي، فاتخذته منهجاً، على أنه لا غنىً لمن يبحث في القراءات من الرجوع إلى مصادرها الأساسية، فاعتمدت على غالب المعروف فيها، ككتاب المصاحف، للسجستاني، والسبعة في القراءات، لابن مجاهد، والمحتسب، لابن جني، وحجة الفارسي، وحجة ابن خالويه، وإعراب الشواذ، للعكبري، ومعاني القراءات للأزهري، وغيرها كثير.

وككتب التفسير اللغوي التي تعرض لتوجيه القراءات، كمعاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن، للزجاج، ومعاني القرآن، للأخفش، وكجامع الطبري، وجامع القرطبي، ومفاتيح الرازي، وروح المعاني، للآلوسي، وإرشاد أبي السعود، وكشاف الزمخشري، والبحر المحيط، لأبي حيان، والمحرر الوجيز، لابن عطية، وغيرهم كثير.

ومن كتب متشابه القرآن اعتمدت على البرهان في توجيه متشابه القرآن، للكرماني، ودرة التنزيل وغرة التأويل، للإسكافي، وملاك التأويل، للغرناطي، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، للأنصاري، وغيرها.

وأما عن كتب اللغة، فاعتمدت على كتب غريب القرآن، كغريب السجستاني، وغريب ابن الهائم، وغريب اليزيدي، وغريب ابن الجوزي، وغريب الأصبهاني، وغريب الهروي، وغريب اليماني، وغيرهم كثير.

ومن المعاجم كان أن أخذت من لسان العرب، لابن منظور، وصحاح الجوهري، والعين للفراهيدي، وتهذيب اللغة للأزهري، وقاموس الفيروزآبادي، ومقاييس ابن فارس، وغيرهم.

ومن كتب الفروق اعتمدت فروق العسكري، وفروق الجزائري، وكليات العكبري.

وفي مسائل النحو والصرف رجعت إلى ما اشتهر منها في بابه، ككتاب سيبويه، ومقتضب المبرد، وخصائص ابن جني، وغيرها.

ومن دراسات المحدثين الأكاديمية، وغير الأكاديمية، استعنت بكتاب الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، للدكتور محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، وكتاب الفروق البيانية في التعبير القرآني، للدكتور محمد يس خضر الدوري، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني، للدكتور فاضل صالح السامرائي، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للسامرائي كذلك، وكتاب التحليل الدلالي في الفروق في اللغة، للدكتور محي الدين محسب، وغيرها.

وعلى كل، فإني لم ألق في هذا الجانب من البحث عناء بالغا، لوفرة كتب اللغة والقراءات، وعلوم القرآن الكريم، اللهم ما اتصل منها بما خصصت له بحثي، فإني لم أصل إلى أكثر من دراستي الدوري والشايع، السابق ذكرهما.

لذلك كله، فإني أشكر الله تعالى على ما أولاني من آلائه ونعمائه، وعلى أن وفقني إلى ما قدمت، فإن يكن صوابا، حمدت الله الموفق إليه، وما توفيقي إلا بالله، وإن يكن غير ذلك، فإنه، ولا ريب، من قلة العلم وقصور المعرفة، فأسأل ربي ألا أكون قد أقدمت على ما لست من أهله.

ثم إني أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من زاد في عزمي على إنجاز هذا العمل، بعون مادي أو معنوي، وعلى رأس هؤلاء أستاذي المشرف: **الأستاذ الدكتور رابح بومعزة** الذي رعى هذا البحث حق رعايته، وإن لم يتح لي أن أظفر بدوام إشرافه إلى نهايته.

كما لست أغفل شكر معلمي وموجهي، أمس واليوم وغدا، أستاذي المشرف: **الأستاذ الدكتور لخضر بلخير**، وفقه الله إلى كل خير، والحمد لله رب العالمين.

نصر الدين وهابي .

مدخل

نظري

أولا : القراءات القرآنية المختلفة معجمياً تصوراً وصوراً :

ا- تصوراً :

القراءات هي : (علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله)[1].

ولعلماء القرآن الكريم، متقدمين ومتأخرين، غير هذا من التعريفات المقترنة بالشروح والتعليقات ما بدا لي أن أوثر معه الإشارة إلى مظانه ومصادره دون أن أعرض إليه تجنبا للإكثار والتطويل بما قد ينأى بي عن مباشرة موضوع بحثي هذا[2].

ثم إن القراءات القرآنية تتوزع على وجوه من الاختلاف، هي عند بعضهم :

- إبدال لفظ بلفظ آخر بمنزلته.
- إبدال حرف بحرف.
- تقديم وتأخير إما في الكلمة وإما في الحروف.

---

[1] منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري، ص : 49.

[2] انظر مثلا :

- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 06/1.
- الرسم القرآني، ضابطا من ضوابط القراءة الصحيحة، د. توفيق بن أحمد العبقري، ص : 39.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 222/1.
- لطائف الإشارات، للقسطلاني، 171/1.
- المستصفى من علم الأصول، للغزالي، 163/1.
- إتحاف فضلاء البشر، ص : 05.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، 19/1.
- تاريخ القرآن، لإبراهيم الأبياري، ص : 147.
- إرشاد الفحول، للشوكاني، ص : 62.
- الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم، د. لبيب السعيد، ص : 128.
- التعريفات، للجرجاني، ص : 181.
- التعريف بالقرآن والحديث، لمحمد الزفزاف، ص : 47.
- القراءات القرآنية، لعبد الحليم قابة، ص : 24.
- وثاقة نقل النص القرآني الكريم، للدكتور محمد حسن حسن جبل، ص : 269.
- لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، ص : 111.

- زيادة حرف أو نقصانه.
- اختلاف حركات البناء.
- اختلاف حركات الإعراب.
- إشباع الصوت بالتفخيم والإظهار، أو الاقتصاد به بالإضجاع والإدغام[1].

ولهم غير هذا من وجوه اختلاف القراءات التي تباينت فيها عباراتهم، وتقاربت معها تفسيراتهم[2].

على أن ما سميناه اختلافا معجميا بين القراءات ليس بالذي يدخل في واحد من هذه الوجوه منفرداً، بل هو مما يتوزع على أكثر من وجه مما أشير إليه في أقوالهم الموقوف عليها في كتبهم، ذلك أنه يُرى ضمن مستويين :

<u>الأول</u>: المادة المعجمية : أي الاختلاف الحاصل في مادتي لفظي القراءتين المعجميتين، ومظهر ذلك أن يكون اللفظان في مكانين منفصلين من المعجم، ويكون كليا وجزئيا، فمن الأول : قراءة (العهن) و (الصوف)، من سورة القارعة، ومن الثاني : قراءة (حطب) و (حصب) و (حضب)، من سورة الأنبياء.

<u>الثاني</u>: البنية الصرفية : وذلك بأن يحصل الاختلاف في التشكيل الصيغي، والبناء المورفولوجي في لفظي القراءتين، وإن يكونا بعد ذلك من مادة معجمية واحدة، وهو يتوزع على أبواب الصرف المعروفة كالمصادر والجموع والمشتقات العاملة، وذلك في الأسماء، وكوجوه اختلاف مباني الأفعال ودلالاتها.

وقد آثرت أن أجمع بين المستويين، أو المظهرين فيما صنفته ضمن الاختلاف المعجمي من القراءات، لما التزمت به منهجيا في هذا البحث، وهو أن لا أتجاوز في

---

[1] انظر : القراءات القرآنية، تاريخها ثبوتها، حجيتها وأحكامها، لعبد الحليم قابة، ص : 115.

[2] انظر مثلا : المرشد الوجيز، لأبي شامة، ص : 118، ومقدمتان في علوم القرآن، لأبي حاتم السجستاني، ص: 221، وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص : 36، وجامع القرطبي، 45/1، وبرهان الزركشي، 334/1، والنشر في القراءات العشر، 26/1.

اختلاف القراءتين اللفظ الواحد أو الكلمة الواحدة، اسما كانت أو فعلا، ضمن ما له صلة بالمعنى، لذا لم اشتغل بالاختلاف الصوتي اللهجي لخلوه من القيمة التعبيرية والإنتاج الدلالي، ولم أنظر، عطفا على ذلك، في الاختلاف ذي الصلة بالتركيب، كالحاصل في الحركات الإعرابية من حيث هي علامات على اختلاف الوظائف النحوية، فانحصر، من ثم، ما اعتمدت من وجوه الاختلاف ضمن مدلول المادة المعجمية ومدلول صورتها البنائية، فأقل المعنى المعجمي مادة وقالب، أو جذر وصورة[1].

وبعبارة أخرى، يمكن القول إن المساحة الدلالية المستهدفة بالبحث هنا محصورة بين النظام الفونيمي، غير اللهجي، والنظام المورفولوجي، أي المستوى اللغوي المصطلح عليه لدى بعضهم بالمستوى أو النظام التمهيدي، أي الممهد للانخراط في النظام التركيبي، وهو ما لاحظنا أن العمل المعجمي يقصر النظر عليه، إذ هو يعرض إلى الأصل اللغوي، أي جذوره ومادته الأولى، ثم إلى صورة ذلك، وتنويعاته الشكلية.

والذي اقتضى مني هذا الاجتزاء الدلالي بما دون المستوى التركيبي هو أن البحث في اختلاف القراءات بما لا يجاوز حد الكلمة الواحدة هو ما يقضي بالنظر في مادتها وصورتها، والكلمة الواحدة معزولة عن الوظيفة التركيبية هي كلمة معجمية فحسب، وهذا ما يدفعنا إلى الحديث في ما بين العمل المعجمي والصرف، ذلك أن علم الصرف يبحث في مستويين أحدهما : (بنية الوحدة المعجمية، من حيث هي بنية صرف، أي باعتبارها وحدة بسيطة قد تكونت من جذور فجذع قد تتفرع منه جذوع)[2].

---

[1] انظر مثلا : اللسانيات والدلالة، ص : 124، وعلم اللغة العام، لكمال بشر، ص: 184، والمنهج الصوتي للبنية العربية، ص : 24، والبنى النحوية، ص : 78، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 22.

[2] مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، ص : 40.

ويعبر الدكتور محمد حسن حسن جبل عن المعنى المعجمي ضمن المبتغى منه في هذا البحث، في قوله : (المعنى المعجمي هو المعنى الذي تسجله المعاجم للمفردة اللغوية مراعى فيه حروفها بترتيبها وصيغتها)[1].

ثم هو طفق، بعد ذلك، يعرض إلى مجموعات من المعاني المتفرعة عن المعنى المعجمي، فجعل منها ما يتفرع عن المعنى المعجمي الحرفي، أي المتعلق بحروف الكلمة، لا بصيغتها، ومجموعة خاصة بصيغ الكلم[2].

وبه نخلص إلى أن القراءة المختلفة في المعنى المعجمي هي كل قراءة تدخل فيما يحتمله تصور المعنى المعجمي من مادة معجمية وبنية صيغية.

II- صورها :

وعلى أساس من المفهوم التصوري الذي حملت عليه ما يصطلح عليه بالقراءات المختلفة في المعنى المعجمي أمضي إلى عرض ما تتوزع عليه من صور تصنيفية، وذلك على قاعدة الفصل بين المادة المعجمية وبين البنية الصرفية.

1- المادة المعجمية :

الصورة الأولى : وهي التي يكون الاختلاف المعجمي الحاصل بين القراءتين في المادة المعجمية اختلافاً كليا، أي في جميع حروف الكلمة أو غالبها، ومن أمثلته :

- العهن والصوف.
- الحدب والجدث.
- الصيحة والزقية.

---

[1] المعنى اللغوي، ص : 176.

[2] المعنى اللغوي، ص : 178.

- المنقلب والمنفلت.

- الناس والبشر.

وغيرها، مما هو من باب الأسماء.

ومثل :

- قال وتأذن.

- بعثنا وهبنا.

- ظن وحسب.

- قدر وقسم.

- وآلى وأقسم.

وغيره، مما يدخل في باب الأفعال.

ويفصل ذلك كله بين ما يوافق المعنى منه وما يخالف المعنى ضمن تصور خطة هذا البحث.

الصورة الثانية : وهي أن يُرى الاختلاف المعجمي بين القراءتين جزئيا، أي في ما لا يزيد على الحرف الواحد، نوعاً أو حركة، ومنه :

- الحطب والحضب والحصب.

- الضنين والظنين.

- الخليفة والخليقة.

- المساكين والمسّاكين.

وهذا من باب الأسماء، ومنه :

- يدع ويدعُّ.

- حرّض وحرّص.

- أمَرنا وأمِرنا.

- أغشيناهم وأعشيناهم.

وهذا من باب الأفعال.

وقد وافق ذلك أن كان جميعه ضمن ما يخالف المعنى من القراءات، هذا عن اختلاف المادة المعجمية.

2- البنية الصرفية :

الصورة الأولى : وهي تخص ما يكون من مباني الأسماء :

أ- المصادر : ومنه :

- الدفع والدفاع.

- الصلح والإصلاح.

ب- الجموع : ومنها :

- الأَسرى والأُسارى.

- رِجَالا ورُجّالا.

جـ- المشتقات : ومنها :

- حاذرون وحذرون.

- عَوْرة وعَوِرة.

- مشتبه ومتشابه.

الصورة الثانية : وهي تخص ما يكون من أبنية الأفعال، مما عبرت عنه بصور العدول، ومن هذا :

- تشابه وتشبّه.

- تناجوا وانتجوا.

- فارقوا وفرّقوا.

- وصّى وأوصى.

- جمع وأجْمع.

- خرقوا وخرّقوا.

- درس ودارس.

فهذه هي الصور التي يمكن، في إطار التنظيم المنهجي، دراسة القراءات القرآنية المختلفة في المعنى المعجمي ضمنها.

ثانيا : المباحث اللغوية المتصلة بالقراءات المختلفة في المعنى المعجمي :

يجد الباحث في القراءات المختلفة في المعنى المعجمي نفسه محمولا على دراسة ما يلي :

1- قضية الترادف :

هذه إحدى أهم قضايا البحث في اللغة ونظامها، ويضيق المقام هنا كل الضيق عن عرض تفاصيلها، وذلك لكثرة ما اشتغل بها العلماء والباحثون إلى الحد الذي كانت لهم فيها مذاهب ونظريات، فمن مقر بوقوع الترادف في اللغة، ومن منكر لذلك، ومن متوسط بين الأمرين.

وترجع عناية علماء العربية بجمع الكلمات المتفقة في المعنى، أو التي يظن بها ذلك، إلى أولى فترات دراسة اللغة والبحث فيها، يُرى ذلك في تلك الرسائل التي كان واضعوها يودعونها ما انتهى إليهم من أسماء للسيف وللأسد وللخمر وللحجر وللسماء وللسحاب وللأمطار، وغير ذلك[1].

ونبه غير واحد ممن نظر في الموضوع إلى أن سيبويه ربما كان أول من أقر بوقوعه في العربية، ذلك في قوله : (اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، نحو : ذهب وانطلق)[2].

بل قد يدل على قدم القول بالترادف في اللغة وتقدمه على الإنكار ما عرف عن لغويي الفترات للأولى للثقافة العربية من حرصهم على جمع الكلمات المترادفة، بل والافتخار بتحصيل أكبر قدر منها[3]، بل قد بلغ الموضوع إلى وضع كتاب في ما له اسمان إلى ألوف.

---

[1] انظر هذا مفصلا في : الترادف في القرآن الكريم، للمنجد، ص : 17.

[2] الكتاب، 07/1.

[3] انظر مثلا : الصاحبي، 21، والمزهر، 405/1.

ولا ينبغي إغفال الإلماع هنا إلى أن بحث الترادف يتوزع على شقين :

- الترادف في اللغة عامة.

- الترادف في القرآن الكريم خاصة.

فأما القول بوقوعه فيلاحظ على معتقديه عدم تبريره نظريا، وذلك لأنهم يرونه أمراً مسلما له لا يحتمل الإنكار، فكأن الأمر كان موكولا إلى فريق المنكرين ليجدوا ويجتهدوا في التماس ما يؤيد مذهبهم، وأخص ما يوكل إليهم هو السعي في التفريق بين ما مضى الاعتقاد على اشتراكه في المعنى واتحاده في الدلالة.

على أني أرى ابن جني خير من يمثل فريق المقرين، فالرجل يرى الترادف من مفاخر العربية ومن مواطن الشرف فيها[1]، وقد أحسن محمد نور الدين المنجد في عرض مذهب ابن جني في القضية بما يغني عن إيراده هنا[2].

كما كفتنا دراسات كثيرة تفصيل القول في دواعي وقوع الترادف في اللغة عن القائلين به وأسباب حصوله فيها، كنحو ما نقف عليه في هذه الطائفة مثلا :

- فقدان الوصفية.

- اختلاف اللهجات.

- اختلاط العرب بغيرهم.

- المجاز.

- التساهل في الاستعمال.

- اختلاف النطق[1].

---

[1] انظر : الخصائص، 115/2.

[2] انظر : الترادف في القرآن، ص : 58.

وقد ساق المقرون جملة من الأدلة على وقوع الترادف في العربية منها مثلا ملاحظة غياب المعنى الفارق في أذهان مستعملي اللغة، فالعربي إذ يطلق لفظ الإنسان لا يجد في نفسه معنى النسيان وإذ يطلق لفظ البشر لا يلحظ معنى البشرة كذلك، وغير ذلك مما يحلو للمنكرين الاستدلال به على قيام الفرق بين اللفظين[2].

ومن المرويات والآثار التي قد تكون في مصلحة المقرين، ما أخرجه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة ﷺ لقي النبي ﷺ وقد وقعت من يده السكين، فقال له : ناولني السكين فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ثم قال : آلمدية تريد ؟ فقيل له : نعم، فقال : أو تسمى عندكم سكينا؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ[3].

وقد بلغ حرص هؤلاء على تأييد مذهبهم إلى أن رصدوا للترادف فوائد وثماراً أهمها :

1- أنه يكثر من طرق الإخبار عما في النفس، فإنه ربما نُسي أحد اللفظين، أو عسر النطق به فيلجأ إلى اللفظ الآخر.

2- احتياج أهل اللغة إلى الشرح والتفسير والبيان.

3- التوسع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النظم والنثر، وربما أتى الشاعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيدا ومبالغة، كقول الحطيئة :

ألا حبذا هند أو أرض بها هند   **وهند أتى من دونها النأي والبعد**

---

[1] الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 60.

[2] الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 40.

[3] انظر : فتح الباري، 458/6، ومسند أحمد، 322/2.

قالوا : فالنأي هو البعد[1].

وبعرض هذه الأدلة والفوائد يبين أن المقرين بوقوعه على فريقين، فريق أغرق في تصيد المترادفات دون مراعاة قيود في ذلك، وذلك تباهيا بالعربية وبثروتها وغناها[2]، وفريق اقتصد في الموقف بأن سعى في إقامة الدليل لما يراه.

والذين أنكروا وقوع الترادف في العربية ألفوا أنفسهم، بموجب ذلك، محمولين على إثبات وجود الفروق بين ما يظن به الترادف، ذلك من بعد تقديم أدلة نظرية لدفع القول به، وإبطال الإيمان بوقوعه في اللغة.

منها مثلا : أن القول بالترادف مناف للعقل والحكمة، أي الحكمة من الوضع اللغوي، فكأن مقتضى النظر العقلي أن لا يكون من المفهوم اجتماع لفظين على معنى واحد، ولا من المستساغ أن يأتي الواضع بلفظ قد وضع قبله، لذا، فإن كل لفظين أوهما الترادف في الظاهر لابد من أنهما يفترقان دلاليا، إنما قد يتم درك هذا الفرق أو لا يتم، تبعا لظهوره علينا وخفائه، قال ابن الأعرابي : (لكل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب بجهله، والأسماء كلها لعلة نصت العرب ما نصت منها، من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله)[3].

فابن الأعرابي، في تمثيله هنا لفريق المنكرين، يقيم رأيه على أساس من فكرة أصل الوضع، فالإنسان سمي إنسانا لنسيانه، والبهيمة بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز، وغير ذلك، مما رآه ابن الأعرابي، ووافقه عليه ابن الأنباري[4].

---

[1] ظاهرة الترادف في العربية، للأستاذ ماجد نجاريان، ص : 287.

[2] الترادف، لعلي الجارم، ص : 314.

[3] الأضداد، لابن الأنباري، ص : 07، وانظر : المزهر، 399/1.

[4] الأضداد، ص : 07، وانظر : الترادف في اللغة، لحاكم مالك الزيادي، ص : 202.

وربما عد أبو هلال العسكري إماما للقائلين بالفروق، إذ له فيها الكتاب المعروف، وقد صرح فيه بما دعاه إلى الإنكار بما لا يزيد عما سبقه إليه متقدموه في المذهب[1]، وإن هو أقر بأن ثمة شيئا مما يصح عده من المترادف، وهو الذي يكون من اختلاف اللغات واللهجات، قال : (فإذا اعتبرت هذه المعاني، وما شاكلها، في الكلمتين، ولم يتبين لك الفرق في معنييهما، فاعلم أنهما من لغتين، مثل القدر بالبصرية، والبرمة بالمكية)[2]، وهو ما ناقشه فيه بعض الباحثين لما رآه من أن كلامه هنا ينقض مذهبه[3].

وزيادة على اعتماد القول بأصل الوضع، أو علة الوضع، سبيلا لإقامة الفروق، رأى المنكرون أن غالب ما يسميه المقرون مترادفات ما هو إلا صفات لمسمى واحد، وقصة السيف وصفاته معروفة، فقد نقلوا عن أبي علي الفارسي قوله : (كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما، فتبسم أبو علي، وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً، وهو السَّيف، قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم، وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة)[4].

ولقد ذهب بعضهم إلى أن ثمة فهما سيئا لبعض ما صنعه مؤلفو الرسائل قديما، فإن هؤلاء إنما كانوا يتحرّون الجمع بين الشيء وأوصافه ونعوته، مما يمكن تسميته بالحقل الدلالي، فاعتقد من لم يع عنهم مرادهم أنهم يدعون الترادف فيما يجمعون[5]، وما ذاك إلا لشق السبيل إلى وجوب التماس الفروق اللغوية، حتى إن بعضهم لم يستسغ أن تكون اللغة

---

[1] الفروق في اللغة، ص : 13.

[2] الفروق في اللغة، ص : 16.

[3] انظر مثلا : الترادف في اللغة، لحاكم مالك الزيادي، ص : 208، والترادف في القرآن، لمحمد نور الدين المنجد، ص : 51.

[4] المزهر في علوم اللغة، للسيوطي، 318/1.

[5] انظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، لمحمد يس خضر الدوري، ص : 60.

العربية لغة مجموعات، أي لغة تشتمل على طوائف من الألفاظ التي تشترك في المعنى، فطفق، من ثم، يعدد الأسباب التي أوهمت القول بالترادف[1].

ويلفت النظر عند فريق المنكرين اجتهادهم في رصد مقاييس يبتغون بها تحصيل الفروق بين ما يظن به الترادف عند مخالفيهم، والحقيقة أنها مقاييس توفق كثيرا في درك المبتغى لأنها تقوم على أساس من مراعاة التوظيف السياقي والبعد الاستعمالي، وهو ما وطأ لي الإيمان بأن البحث في الترادف والفروق هو شأن نصي قد يكون ربطه بالقرآن الكريم أمثل سبيل إليه، وقد فعلت.

أ- مقاييس معرفة الفروق :

يشير غير واحد ممن بحث مسألة الترادف إلى أن العسكري ربما كانت مقاييسه التي قدم بها لفروقه أهم وأدق ما قدم في الموضوع، حتى إنها المقاييس التي اعتمدها غالب القائلين بالفروق[2]، ألا وهي :

- الاستعمال اللغوي للكلمة.
- اعتبار صفات المعنيين.
- اعتبار ما يؤول إليه المعنيان.
- اعتبار الحروف التي تعدى بها الأفعال.
- اعتبار النقيض والضّد.
- اعتبار الاشتقاق.
- ما توجبه صيغة اللفظ.

---

[1] الترادف، لخليل السكاكيني، ص : 124.

[2] انظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسر القرآن الكريم، د.محمد الشايع، ص : 114.

- مراعاة الأحوال[1].

وقد كان لمحمد يس خضر الدوري تقديم لهذه المقاييس على نحو قدر هو أن فيه مزيداً من الدقة والوضوح، فهي، من ثم، عنده :

- الذات والصفة.

- أصل اللفظ وحقيقته في اللغة.

- الاشتقاق.

- مقياس الضد والنقيض.

- العام والخاص.

- المطلق والمقيّد.

- الاقتران اللفظي.

- المدلول الحسي والمدلول الذهني المجرّد.

- اقتضاء العطف المغايرة.

- القوة والضعف.

- الاستحسان والاستهجان بين الألفاظ.

وقد عمد إلى تفصيل القول فيها معللا مدللا ممثلا[2]، وقد جعلت من الجانب العملي من رسالتي هذه مجالا لتطبيقها وشرحها جامعا بينها وبين الفكرة السيميائية في تحليل المترادفات، فآثرت اطراح ذلك هاهنا.

---

[1] انظر : التحليل الدلالي في الفروق في اللغة، د. محي الدين محسب، ص : 23.

[2] انظر : دقائق الفروق اللغوية في التعبير القرآني، ص : 58.

ويتحدث الباحثون عن أن أهم مقياس يعرف به الفرق بين المترادفين هو ما يصطلح عليه بمبدأ (الاستعاضة)، ومعناه أن تستبدل الكلمة في النص بما يُرى مرادفا لها مع ملاحظة الأداء المعنوي[1]، وقد أسف الزيادي على أن لم يتفطن القدامى، من لغويينا وعلمائنا، إلى هذا المقياس رغم أهميته، وإن لم يسلم له غيره في ذلك، فهذا الدوري بدوره يأسف لما رآه الزيادي، منبها إلى بعض مواطن ورود الانتباه إلى مبدأ الاستعاضة في تراثنا اللغوي[2].

والاستعاضة فكرة نصية بحتة، وهي تقضي بأن يكون النص، أي الاستعمال الوظيفي هو المحتكم إليه في كشف ما بين كل لفظين يُريان مترادفين، وهنا تتجلى قيمة أن يطبق مبدأ الاستعاضة من خلال وجوه القراءات القرآنية، ذلك أن كثيرا مما يختلف منها معجميا إنما يصب في غرض التفسير ضمن ما يسمى بالقراءة التفسيرية، ومعلوم أن التفسير إنما يكون بوضع لفظ موضع ما يحتمل معناه ويوافق دلالته، ومن هنا، قدرت أن القراءات التفسيرية أصلح مجالات تطبيق مبدأ الاستعاضة، فكان، من ثم، ما جاء في بحثي هذا، مما هو من فروق المعاني، ضمن ما وافق المعنى.

ب- الترادف في القرآن الكريم :

أحب أن أشير هنا إلى ملاحظتين أساسيتين ينبغي لمن يربط بين موضوع الترادف ولغة القرآن الكريم أن يرعاهما بالبحث والنظر :

---

[1] الترادف في اللغة، لحاكم مالك الزيادي، ص : 270.

[2] دقائق الفروق اللغوية في التغير القرآني، ص : 59، وانظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن، للشايع، ص : 149.

أولاهما : قلة آراء العلماء في هذا الموضوع، ولعل خير ما يقال في تفسيره أن العلماء واللغويين كانوا يرون القول بترادف القرآن خاصة مشمولا بالقول بترادف اللغة عامة، ذلك لأنه نزل بلسان العرب وسننهم في كلامهم[1].

قال الدوري بعد عرضه رأيين في المسألة : (ولم نجد غير تلك الآراء في التصريح بوقوع الترادف أو نفيه من القرآن، ولعل ذلك يعود إلى أنهم كانوا يرون أن ما يقال في اللغة يعم لغة القرآن)[2].

ولم يفته بعد هذا أن يسجل ملاحظته على القدماء عدم تمييزهم بين مستويات اللغة، إذ لا يستقيم بحث المفردة المعجمية بمعزل عن النص أو في المخاطبات العامة، وعدم تمييز بحثها في ورودها ضمن الخطاب البليغ، خاصة إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم[3].

ومن القدماء الذين أبوا القول بالترادف في القرآن الزركشي، يقول : (على المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الأفراد)[4].

ومما استدل به فريق المنكرين تصريح القرآن نفسه بالفرق في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5]، أي أنه لما قصد إلى اجتناب اللفظ المثير للسخرية بالنبي دعا إلى تركه واستعاضته بمثله في معناه[6].

---

[1] الفروق اللغوية وأثرها في تفسر القرآن الكريم، ص : 164.

[2] دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 26.

[3] دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 27.

[4] البرهان في علوم القرآن، 78/4.

[5] البقرة : 104.

[6] انظر : أسباب النزول، للواحدي، ص : 33، ولباب النقول، للسيوطي، ص : 66، والعجاب في معرفة الأسباب، للعسقلاني، 160/1.

وقد أبى المنكرون للترادف في القرآن أن يكون لفظا الشرعة والمنهاج في معنى واحد من قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[1].

وأن يكون هذا من باب عطف الشيء على نفسه، لأن الأصل في التعاطف أن يدل على التغاير[2].

والحقيقة أن الدارسين الأكاديميين قد وفوا الموضوع حقه من التفصيل بما رأيت معه الاجتزاء بالعمل التطبيقي للتدليل على عدم وجاهة القول بالترادف في لغة القرآن الكريم، ذلك أن في القول بالفروق القرآنية تمكينا للبحث من التماس وجوه الإعجاز البياني في كلام الله تعالى، ومن البرهنة على ما يتوفر عليه النص القرآني من وسائل الإثراء التعبيري، والتنويع الدلالي.

وعلى هذا، فإن ما يسمى بالقراءة التفسيرية لا يعدو كونه تقريبا للمعنى، وتيسيرا للفهم وإدراك وجه المراد[3].

ولكن الزركشي الذي أنكر الترادف في القرآن الكريم بدا له أن يفسر رخصة القراءات بأنها وجوه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة، نحو : أقبل وهلم، وتعال وعجل، وأسرع

---

[1] المائدة : 48.

[2] انظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 182.

[3] انظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 185، والترادف في القرآن الكريم، للمنجد، ص : 109.

وأنظر وأخر، ونحوه[1]، وقد أشبه كلامه هنا أن يكون إقرارا بالترادف، ورأى بعض من مضى معه أنه من المحال أن يأذن الله تعالى، أو أن يجيز النبي اختلاف المعاني، ولكن قد يرد على هذا بإمكان أن يجيز النبي الاختلاف الذي لا يبلغ حد التدافع والتعارض، إنما الذي يتكامل على وجه من الوجوه التي يتولى العلماء الكشف عنها، ومعلوم أن ليس لغير عالم بالعربية أن يفسر القرآن الكريم.

هذا، وإن لوحظ أن غالب مفسري القرآن الكريم أميل إلى إنكار الترادف فيه[2]، ذلك لما في الإنكار من تمكين في الكشف عن بلاغة التعبير القرآني، والبرهنة على سموه البياني، وهو ما غدا أساساً لغير واحد من المحدثين للسعي في بحث أسرار توظيف الكلمة في القرآن الكريم[3].

وقد ختم الدكتور أحمد ياسوف بحثه مسألة الترادف، والفروق في القرآن الكريم بخلاصة مفادها قوله : (إن خصوصية الانتقاء القرآني تدعونا إلى الإقرار بتفرد كل كلمة بمعناها الخاص مستندين إلى السياق القرآني، فإذا كان الترادف موجودا في اللغة، فهو بعيد عن تهذيب القرآن اللغوي، وتمكن مفرداته من معانيها وظلاله الخاصة، وسوف يتضح هذا في تطبيق الدارسين : أسلافاً ومعاصرين)[4].

---

[1] انظر : البرهان، 220/1.

[2] انظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 181.

[3] من هؤلاء :

- الرافعي في : (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).
- د.عائشة عبد الرحمان في : (الإعجاز البياني للقرآن الكريم).
- د. فاضل صالح السامرائي في : (لمسات بيانية في نصوص من التنزيل).
  وفي : (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني).
- د. محمد بن عبد الرحمان بن صالح الشايع في : (الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم).
- محمد ياسين خضر الدوري في : (دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني).
- محمد نور الدين المنجد في : (الترادف في القرآن الكريم، بين النظرية والتطبيق).
- د. أحمد ياسوف في : (جماليات المفردة القرآنية).

[4] جماليات المفردة القرآنية، ص : 74.

وأحسب أن هذا البحث هو سعي في توضيح ارتفاع التطابق بعمل تطبيقي من خلال تفحص توظيف المفردة القرآنية من خلال اختلاف القراءات القرآنية، ولعلي بذلك أن أوفق إلى البرهنة على أن غالب من رأى الترادف في القرآن الكريم إنما يعود رأيه إلى عدم التوفيق عنده في الوقوف على الفروق البيانية، خاصة إذا تعلق الأمر ببحث الفروق من خلال ما يصطلح عليه بالمتشابه في القرآن الكريم، أي الآيات التي تتفق في مبانيها كليا أو جزئيا، وتختلف فيما بينها في لفظ يكون في الأولى مرادفاً لما في مشابهتها الثانية، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وكقوله : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فإن تفسيره لا يخرج عن وجهين :

- القول بالتنويع في العبارة، وهو راجع إلى القول بالترادف.

- القول باقتضاء السياق للرجع في الأولى، واقتضاءه للرد في الثانية، فتعين معه التماس الفرق بينهما، وما هو بالهيّن.

ولقد بلغت العناية بمثل هذا إلى أن أفردت له كتب كالذي نجده عند الخطيب الإسكافي في : (درة التنزيل وغرة التأويل)، وعند الكرماني في : (البرهان في متشابه القرآن)، وعند الغرناطي في : (ملاك التأويل)، وغيرهم، ولا يعني أن لم تفلح اجتهادات هؤلاء في بعض المواضع من القرآن الكريم أنه لا تحقق للمقاصد البيانية تحت المغايرة التعبيرية بين الآيات المتشابهات.

2- التحليل السيميائي المعنمي لظاهرة الترادف :

ناقشت السيمياء مسألة الترادف، وحللت التصورات المحيطة به الموزعة بين الإقرار والإنكار والتوسط بينهما، وانتهى تحليلها إلى ما قد يحسم في القضية من خلال تصور لها ربما يُرى مظهر الكمال فيه في إعادة صياغة المسألة بتطوير بعض من النظرية التراثية فيها، ذلك أنها تأسست في ذلك على القول بإنكار الترادف التام، أو الكلي، والقول بالترادف

الجزئي (synonymie partielle)، أو شبه الترادف (para synonymie)، وذلك أن الألفاظ التي يظن بها الترادف إنما يجمع بينها في أبعد مستوى تقارب دلالي، وهذا يوطئ للقول بأن بين كل لفظين مترادفين اتفاقا من وجه، وافتراقا من وجه، وتتكون منطقة الاتفاق الدلالي من سمة أو سمات (sèmes) دلالية مشتركة، وكذا منطقة الافتراق، وتسمي السيمياء كل سمة معنما، والمعنم هو وحدة دلالية صغرى تشكل بمعية معانم جزئية أخرى المعنى الإجمالي للفظ.

وتتوزع المعانم إلى نووية أو مكونية (semés nucléaires) ويراد بها القدر الدلالي الذي يقوم به معنى اللفظ، أو القدر الثابت في معنى اللفظ، ومعانم سياقية (classèmes) وتوصف بأنها متغيرة ومتحولة، لأنها تظهر وتختفي تبعا للمقتضيات السياقية المختلفة.

وعلى هذا الأساس يكون اختلاف اللغويين في قضية الترادف راجعا إلى منطقة التركيز في البنية المعنمية للفظين المترادفين، أو اللذين يظن ترادفهما، فالقائلون به يركزون النظر عند منطقة معانم الاتفاق، والنفاة يركزون على معانم الافتراق، وبهذا يخلص التحليل السيميائي إلى الاقتناع بأن مشكلة الترادف ما هي إلا مشكلة لفظية قد تغدو مع هذا التصور غير ذات محتوى حقيقي.

وإلى قريب من هذا ذهب غالب المحدثين في فهم المسألة، يقول الدوري : (الكلمة المرادفة هي التي تتقارب دلالتها مع غيرها في المعنى العام، لكن لها من خصوصيات الدلالة ما لا نكتشفه إلا في سياقها الذي ترد فيه، أما تمام الاتحاد والتطابق في المعنى فقد منعه كثير من اللغويين العارفين بدقة الاستعمال، وهذا القول هو الذي يترك فسحة للبحث عن المعاني الدقيقة بين المترادفات.

ولعل الترادف بمعنى التقارب له شاهد من القرآن الكريم، وإن كان أصحاب المعجمات قد أغفلوا هذا الأصل، وهو قوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ

الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[1]، أي : اقترب لكم بعض الذي تستعجلون.

إذن اصطلاحنا على الترادف معنى التقارب له ما يعضده من لغة التنزيل)[2].

- التمثيل البياني للتحليل المعنمي :

يبدو ذلك من خلال دائرتين متقاطعتين تمثل كل واحدة منهما أحد اللفظين الذين يظن ترادفهما، ويمثل تقاطعهما منطقة المعانم المشتركة، ويكون انفراد كل دائرة بحيز منها ممثلا للمعانم الذاتية التي يعول عليها في التفريق بين المترادفين، وذلك على هذا النحو :

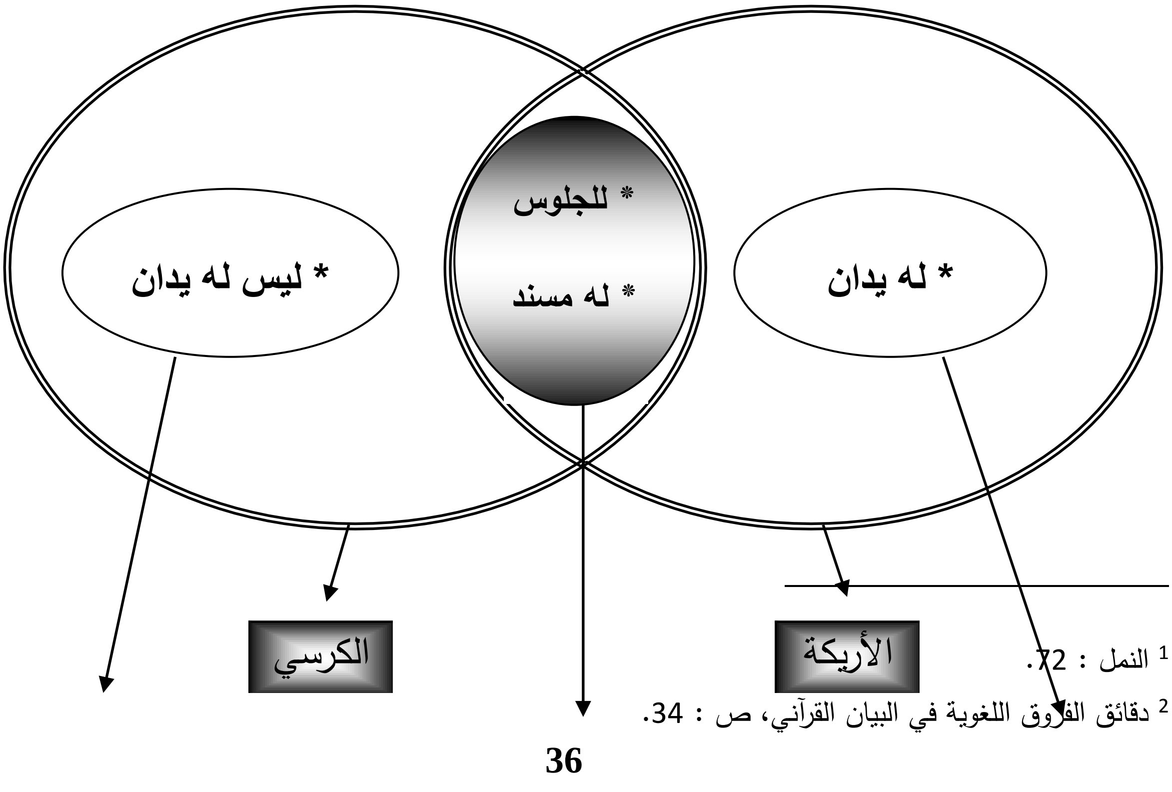

[1] النمل : 72.

[2] دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 34.

معنم ذاتي المعانم المشتركة معنم ذاتي

ويمكن مع شيء من التجوز النظر إلى مقاييس التفريق التي يتوفر عليها بحث نفاة الترادف في التراث على أنها مفاتيح للكشف عن المعانم الذاتية التي تعين على التفريق، فكل مقياس منها يؤدي وظيفة معنمية في هذا الباب، لذا آثرت في المجال التطبيقي لاحقا أن أجمع بين التصورين التراثي والسيميائي بأن سميت كل مقياس بوظيفته المعنمية وسيأتي[1].

II- معاني الأبنية :

وهذه هي المسألة اللغوية الثانية التي قد يكون من المتعين على من يدرس القراءات القرآنية المختلفة معجميا أن يعرض إليها وينظر فيها مراعاة لشمول الكلمة المعجمية مادتها وبناءها، أو أصلها وصورتها، ودلالة الكلمة بصورتها هو ما يسميه الباحثون : (الدلالة الصرفية)، وهي تلك الدلالة التي يعرب عنها مبنى الكلمة، وتسمى أيضا : الوظائف الصرفية للكلمة، وهي المعاني المستفادة من الأوزان والصيغ المجردة[2].

---

[1] انظر في تفصيل الفكرة السيميائية المعنمية في تحليل ظاهرة الترادف : السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، محمد إقبال عروي، مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد : 24، العدد : 03.

[2] انظر : علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، د. فريد عوض حيدر، ص : 35، والكلمة، دراسة لغوية ومعجمية، د. حلمي خليل، ص : 29.

ولم يفت الأولين من لغويينا أن يولوا هذا الجانب من اللغة حقه، فبحثوا صلة المباني بالمعاني على القدر الذي أفردوا للمسألة الواحدة منه كتباً، كنحو ما صنعوا في بحث (فعلت وأفعلتُ) مثلا، وغير ذلك من المباني مما هو للأسماء كالمصادر والجموع، وما هو للأفعال كالمجرد ومعاني حروف الزيادة.

ولكني وجدت الدكتور فاضل صالح السامرائي يأخذ آسفا على لغويينا قلة عنايتهم بالموضوع، فيقول : (إن اللغويين القدامى، ويا للأسف، لم يولوه ما يستحق من الأهمية فإنهم نظروا بصورة خاصة في شروط الصيغ، ومقيسها ومسموعها، وقعدوا لذلك القواعد، أما مسألة المعنى فإنهم كانوا يمرون بها عرضاً)[1].

لكن بدا لي أن السامرائي ربما قصد بما قال إلى قلة بحثهم في فروق المباني لا معانيها، وبين البحثين فرق، أي بحث ما يكون له جمع على صيغة، وما يكون له على أخرى، وكلا الجمعين لمادة لغوية واحدة، كنحو : الكبار والكبراء، والذكور والذكران، وغيره.

وآية ذلك أنه جاء بهذا الحكم ليوطئ به لبحثه في فروق المباني من خلال وجوه استخدام القرآن الكريم لها، وإلا فإن نظرة في كتاب : (البحث الدلالي في كتاب سيبويه)، مثلا، تفي بالكشف عن مبلغ عناية نحاتنا بالمعنى في كل مستويات اللغة، ومنها المستوى الصرفي[2].

إلا أن يكون مراد السامرائي أنهم لم يرعوا الموضوع الرعاية التي تبلغ بهم إلى إفراد كتب لما يكون من باب فروق المباني، فإن هو يقصد إلى عموم بحث معانيها فلا يسلم له فيه، وقد وضع كتابه (معاني الأبنية) وهو لا يكاد يقيم فيه دراسة ما إلا وهو معتمد فيها على ما في كتب القدامى.

---

[1] معاني الأبنية، ص : 05.

[2] البحث الدلالي في كتاب سيبويه، د. دلخوش جار الله حسين دزه يي، ص : 41.

ولعله مما يعتذر للسامرائي أن يحمل كلامه على أن القدامى ربما لم يتكلموا في معاني كل صيغ العربية، فقد أشار بعضهم إلى أنها مئات لكن ما طاله درسهم منها لا يبلغ التسعين صيغة[1].

ويصعب جدا أن يقال في حقهم إنهم أغفلوا ما للبنى الاشتقاقية من دور في الإنتاج الدلالي، أو أنهم لم يتفطنوا إلى أن أساس التحليل الدلالي هو البحث في العلاقات الفونومورفولوجية في الكلمات العربية[2]، لذا فالقول بإهمال الأولين لمعاني الأبنية غير سديد، بل قد جعل بعض الباحثين درسهم الأبنية من ضمن الأصول التي بني عليها البحث المعجمي في تراثنا اللغوي العربي[3].

أما عن المقاصد البيانية التي تتحكم في التوظيف الصيغي في لغة القرآن الكريم، فلا أعتقد أبداً أن الموضوع يشكو تقصيرا من أي نوع، إذ إن لغويي القرآن الكريم لم يكمل إيمانهم بالأداء الوظيفي للمفردة القرآنية إلا من خلال بحثهم فيها مادة وبناء، أو فونولوجيا ومورفولوجيا، فهذا الزمخشري، مثلا، يتحدث عما بين كلمتي الحياة والحيوان من فارق دلالي وتباين تعبيري، قال عن آية العنكبوت : ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4]، (وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب، والحياة حركة، كما أن السكون موت، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة)[5].

---

[1] انظر : المعنى اللغوي، دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا، د. محمد حسن حسن جبل، ص : 182.

[2] انظر : البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 41.

[3] انظر : المعجم العربي، بحوث في المادة والمنهج والتطبيق، د. رياض زكي قاسم، ص : 183.

[4] العنكبوت : 64.

[5] الكشاف، 183/2، وانظر : إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، 47/7.

وقد بحث د. أحمد ياسوف موضوع القيمة التعبيرية للصيغة في المفردة القرآنية بما قام معه الدليل على اعتناء المفسرين اللغويين بهذا الجانب من بحث لغة القرآن الكريم[1].

والحق أننا كثيرا ما نجد لعلمائنا نظرا في ما يتصل بفروق المباني في متشابهات التعبير القرآني كنحو التعبير بـ (نزّل) في مواضع، وبـ (أنزل) في أخرى، وبـ (أوصى) و بـ (وصّى)، و (الخطيئات) و (الخطايا)، و (مشتبها) و(متشابها)، و (النبئين) و (الأنبياء)، وغير ذلك، مما قد نسلكه في سياق البحث في الإعجاز الصرفي في لغة القرآن الكريم .

[1] انظر : جماليات المفردة القرآنية، ص : 241.

الباب الأول:

الفروق الأدائية البيانية

في القراءات المختلفة معجميا في الأسماء

توطئة :

لم أشأ وضع من ينظر في هذا البحث أمام الإجراءات التطبيقية التي تطال عناصره ومفرداته، قبل تقديم نظري وجيز يتوفر على تبرير علمي لبنائه المنهجي، ومن ثم، وجدتني ملزما بالكشف عن السبب فيما يلي :

1- تقديم البحث في الأسماء على البحث في الأفعال.

2- تقديم البحث في ما وافق المعنى على البحث في ما خالف المعنى.

وعلى هذا، فإن هذه التوطئة ستعم الباب الأول بجميع ما يدخل فيه من مباحث.

فأما جعل البحث في الأسماء مقدما على البحث في الأفعال فراعيت فيه ما جرت عليه عادة النحاة واللغويين، قدماء ومحدثين، فإنه لم يشذ، فيما علمت، عنهم واحد بأن بحث الأفعال قبل الأسماء، ولعل أحسن ما يفسر به هذا هو قضاء العقل بضرورة أن تُعلم الماهيات قبل العلم بما يكون منها من أفعال، وقد يُرى أن هذا التفسير هو أثر للنظر العقلي في تقسيم الكلم لكنه مع ذلك ضروري، لأنه أحد الفروض العلمية التي يقوم عليها هيكل العمل اللغوي عامة، والنحوي منه خاصة[57].

وقد يكون من المرضي، مع ذلك أن يُنظر إلى الموضوع من زاوية ثانية، هي زاوية الإسناد، إذ هي مناط العمل التركيبي، ومن ثم فقد يتعين تقديم الاسم من حيث صلاحه للإسناد بطرفيه، أي بأن يكون مسندا ومسندا إليه، أما الفعل فإنه يقبل الإسناد بطرف واحد فقط، وهو أن يكون مسندا، فوجب أن ينحط من الفعل رتبة[58].

هذا أولا.

---

[57] انظر مثلا : التفكير العلمي في النحو العربي، د.حسن خميس الملخ، ص : 159.

[58] انظر : استعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، د. أحمد محمد عبد الراضي، ص : 10.

وأما تقديم البحث في ما وافق المعنى من القراءات المختلفة معجميا، فإنه لا يرتد إلى قاعدة منهجية مقررة قبل هذا البحث سلفا، إنما هو محض اجتهاد سعيت في إقامته على اعتبار أن البحث في فروق المعاني، أو المترادف، وفروق المباني، أو الصّيغ، أعلى في الصناعة اللغوية من بحث ما ظهر افتراقه الدلالي، وذلك لأن خفاء الفارق الدلالي أدل على إحكام البحث ودقته في كشف المستوى البياني والمرتبة البلاغية، فتعين، من ثم، وجوب تقديم العناية بالأدل على إحكام الصناعة اللغوية، وهو ما يتلاءم مع مراد هذا البحث من حيث مراعاة مستويات الأداء البياني في القراءات المختلفة في المعنى المعجمي.

وهذا ثانيا.

وبعد، فإن هذا باب أول عرضت فيه إلى القراءات القرآنية المختلفة في المعنى المعجمي، في ما يكون من الأسماء، مقسما ذلك إلى ما يتفق فيه لفظا القراءتين على أحد وجهين، وجه الاتفاق المعنوي وهو المسمى المترادف ووجه الاتفاق البنائي أو الصيغي، وهو الذي يبحث ضمن معاني الأبنية، فكان هذا فصلا أولا لما قدمت من إحكام الصنعة البحثية في دراسة الأخفى.

ثم إلى ما يختلف فيه لفظا القراءتين على أحد وجهين كذلك، وجه التقارب الصوتي لإيهامه خفاء الفارق أكثر، ووجه التباعد الصوتي لجعله الفارق أظهر.

الفصل الأول:

الفروق الأدائية في وجوه ما وافق المعنى

أولا :

فروق المعاني : أو الترادف .

لعله مما يحسن في هذا المقام، الإشارة إلى أن فريقا من منكري وقوع الترادف في اللغة، قد بلغ ذلك بهم إلى السعي في حصر وجوه التفريق بين ما يظن به الترادف، طلبا لتأطير موضوعي للقضية، يرجون به إثبات صحة ما ذهبوا إليه من القول بالفروق، وانتفاء التطابق التام[1]، وقد انتهى بهم النظر إلى حصر طائفة من مقاييس التفريق، التقوا في بعضها، وافترقوا في بعض، رأيت من الخير لي أن أعتمد منها ما اقتضاه البحث، واستدعته الدراسة، في أثناء التحليل التطبيقي، أما التفصيل النظري فيها، فإنا نتركه هنا معتمدين على يسر فهم هذه المقاييس من خلال ما نستشهد لها به من هذه القراءات، على أني، كما أسلفت القول، سأعتمد على مبادئ التحليل السيميائي المعنمي لدقته وفلاحه في حسم مسألة الترادف :

1. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الإطلاق والتقييد :

مما نطلبه هنا قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[2].

قرئ : (كالصوف)[3] في موضع (كالعهن).

أما الصوف، فهو مادة معروفة، ولم ترد في القرآن الكريم غير مرة واحدة بصيغة الجمع، في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ

---

[1] نشير هنا إلى بعض ذلك :
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري.
- التحليل الدلالي للفروق اللغوية عند أبي هلال العسكري، لمحي الدين محسب.
- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع.
- دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، للأستاذ محمد ياسين خضر الدوري.

[2] القارعة : 1-5.

[3] معجم مكرم وعمر، 221/8، ومعجم الخطيب، 553/10.

﴿... بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾[1]

ومعلوم ما في الصوف من منافع تغني عن الذكر بظهورها، ثم إن الآية الكريمة إنما عرضت للصوف في مقام تعداد المنافع التي أودعها الله، تبارك وتعالى، الأنعام، وكذا عرض وجوه الانتفاع بها في الحياة الدنيا، ولعل مقام التعداد الذي يلائمه أسلوب التكثير، هو الذي استملح صيغة الجمع لإفادتها المعنى المبتغى دون صيغة الإفراد، فالناس لا يجدون في الأنعام صوفا، بل أصوافا، أي أنواعا، وألوانا، إنعاما منه، تبارك وتعالى، وإفضالا، كل ذلك لنتحرى الحكم على السياق الدلالي المرتبط بذكر النعم، وتعدادها، بأنه سياق غير مقتض لتصوير أو تخييل فني، يطلب معه توجيه النفس إلى رغبة أو رهبة، إنما هو تذكير وتنبيه، ودعوة إلى تأمل وتدبر، ونظر وتفكر.

ولعله مما يفسر إيثار استعمال لفظ (الصوف) الشائع استعماله، ذي الوجه المعروف والاستخدام المألوف، وقد يدل عليه اقتصار المعجم على إيراد ما يحيط بمعنى الصوف من خصائص وصفات، دون مباشرة الكشف من معناها المجرد لحصوله في الأذهان حصولا يغني عن ذلك، قال السمين الحلبي : (الأصواف: جمع صوف، واحدته صوفة، وهو معروف)[2].

وهذا الكلام نريده مهادا للتسليم لكلمة (العهن) باضطلاعها بدلالة إضافية تزيد على ما يراد دركه من كلمة (الصوف)، وهو ما سنشق السبيل إليه من موضوع السورة وغرضها.

---

[1] النحل: 80، وانظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص : 529.

[2] عمدة الحفاظ، 363/2، وانظر : لسان العرب، 307/8، والمصباح المنير، ص : 211، ومفردات الراغب، ص : 499.

وابتداء الكلام في قراءة الجمهور بأن المدار الدلالي لمادة (عهن)، هو الضعف والوهن، والفتور والانكسار، وفقد ضبط النفس، كما تصر الإمكانات البنائية من هذه المادة على أن كل عهن لا يخلو من ضعف ووهن :

– فالعاهن : أن يتقصف القضيب من الشجرة، ولا يبين، فيبقى متعلقا مسترخيا.

– وفلان عاهن : مسترخ كسلان.

– والعاهن : الفقير لانكساره وضعف حاله.

– والعهنة : انكسار في القضيب، من غير بينونة، إذا نظرت إليه حسبته صحيحا، فإذا هززته انثنى[1].

والحاصل أن المادة ترتبط بمعنى الضعف والوهن في العاقل، أم في غير العاقل، والضعف هنا مفهومه فقد التحكم في النفس وضبطها، فالمسترخي الكسلان من شأنه أن لا يُحكم ضبط أمره، والفقير المعدم المنكسر ليس له من أمر نفسه شيء لضعفه، فما هو إلا أن يستعين فيعان.

والغصن ينكسر من أصل الشجرة، ولا يهوي إلى الأرض، فيبقى معلقا بين مكانه من الشجرة، وبين الوقوع على الأرض، فهو بين حالين لا يستقر على أحدهما، وهو في هذا من الضعف بحيث إن أقل حركة تكفي لأن تهوي به.

---

[1] انظر : لسان العرب، 322/10.

على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أن ابن فارس انفرد بإيراد المحصول الدلالي من شروح هذه المادة في قوله : (العين والهاء والنون أصل صحيح يدل على لين وسهولة، وقلة غذاء في الشيء)[1].

فالجبال إذا كانت كالعهن استقام أن توصف بكل معاني الضعف والوهن والاضطراب، إذ كل عاهن ضعيف، كما مر بنا، وهو الحال الذي يراد للجبال أن تكون عليه يوم القيامة، ترهيبا للنفس، ودفعا لها للاستعداد له، وليس شيء من ذلك في كلمة (الصوف).

ويستدعي النظر، بعد هذا، مجيء العهن في متن اللغة بمعنى الصوف الملون، أو المصبوغ ألوانا، وهو المعنى الذي تستفتح به غالب المعاجم، وكتب الغريب، شرح هذه المادة[2].

وقد بدا لي إمكان الرجوع به إلى معنى الوهن والاسترخاء، ذلك إذا أمكن أن نفهم أن الوهن من أثر صبغ الصوف، ومعالجته وتوهينه، بتصرف من يلونه ويصبغه، فإنه يفتته ويفك بعضه من بعض، فيصير، من ثم، خفيفا يقدر الهواء على حمله فيطير به في كل وجه، ويؤيده نعت العهن في السورة بالنفش، وأشار إليه ابن فارس في قوله : (وأما العهن، وهو الصوف المصبوغ، فليس ببعيد أن يكون من القياس، لأن الصبغ يُلينه)[3].

---

[1] معجم مقاييس اللغة، 175/4.

[2] انظر : لسان العرب، 322/10، ومعجم مقاييس اللغة، 175/4، وغريب السجستاني، ص : 146، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 360/8، وجامع القرطبي، 165/20.

[3] معجم مقاييس اللغة، 175/4.

وقد قيل في تخصيص العهن بالصبغ والتلوين، إن الجبال كذلك تختلف ألوانها وتتعدد، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[1].

وعليه خرجوا تشبيه الجبال بالصوف المصبوغ ألوانا[2]، وعليه أيضا حمل السمين الحلبي تشبيه الجبال بالعهن، بجامع التلوين، على السماء في تشبيهها بالدهان في قوله : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[3]، وإن لم يوضحه[4]، ووضحه اليزيدي في قوله : (لونها كلون الورد كالدهان، جماعة دهن، في اختلاف ألوان الدهن بحمرة وصفرة وخضرة)[5].

كما خصّ بعضهم العهن بالحمرة دون غيرها من الألوان، فالعهن عندهم الصوف الأحمر دون سواه، وأيدوه بالحجة من كلام العرب، كقول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يحطم[6]

فقد شبه فتات العهن بحب الفنا، وهو حب أحمر[7].

---

1 فاطر : 27.

2 انظر : روح المعاني، 59/29، والكشاف، 307/3، والرازي، 125/30، والتحرير والتنوير، 159/29، وعمدة الحفاظ، 206/4، ومفردات الراغب، ص: 592، وغريب اليماني، ص : 437، وغريب ابن الهائم، ص : 350، وفتح القدير، 384/5، ومعاني الفراء، 287/3.

3 الرحمان : 37.

4 عمدة الحفاظ، 135/3.

5 غريب اليزيدي، ص: 361، وانظر : غريب السجستاني، ص : 206.

6 انظر : شرح المعلقات العشر المذهبات، للتبريزي، ص: 127.

7 لسان العرب، 233/11.

وإن يكن ذلك كذلك، فلعل تخريجه يكون على ما انفرد به الرازي، حيث احتمل أن تكون الجبال جبال نار جهنم يوم القيامة، وإنما شبهت بالصوف الأحمر لشدة حمرتها باللهب[1].

وفي نعت العهن بالنفش تأييد لأن يختص العهن، دون مطلق الصوف، بالمعالجة والتفكيك، ويرجع جميع ما في متن المعاجم، من شروح لمادة (النفش)، إلى معنى التفرق والتبدد والانتشار، ويوصف به التمر، إذا فرق ما اجتمع منه، والإبل والغنم، إذا تفرقت للرعي[2].

ولم ترد كلمة (النفش) في القرآن غير مرتين، إحداهما في الأنبياء، في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[3]، وهذه في القارعة.

وفي ذلك تصوير لما ترى عليه الجبال يوم القيامة، من التفتت والتبدد والاضطراب، ملأ للنفس بالرهبة والجزع من هول ذلك اليوم، وأولى بالنفس أن تجزع إذا هي علمت مآل الجبال ذات البأس الشديد، فكيف يكون مآلها وهي الضعيفة ؟، قال الرازي : (إنما ضم بين حال الناس، وبين حال الجبال، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ؟، فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تداركه رحمة ربه)[4].

---

[1] مفاتيح الغيب، 72/32.

[2] انظر : لسان العرب، 323/14، والمصباح المنير، ص : 366، وصحاح الجوهري، 2169/6 ، ومعجم مقاييس اللغة، 461/5، وعمدة الحفاظ، 206/4، ومفردات الراغب، ص : 819، والكشاف، 279/4.

[3] الأنبياء : 78.

[4] مفاتيح الغيب، 72/32، والبحر المحيط، 405/8، والمحرر الوجيز، م8–678/30، والتحرير والتنوير، 159/29.

على أنه يتعين عدم إغفال معنى آخر، تذكره كتب اللغة مرتبطا بهذه المادة، وهو الدوام والثبات والحضور، جاء في اللسان : (عهن الشيء: دام وثبت، وعهن أيضا: حضر، ومال عاهن : حاضر ثابت)[1].

ويبدو هذا المعنى على الضد مما عرضنا له آنفا، إذ الدوام والثبات من معنى القوة، لا من معنى الضعف والوهن، وهو ما يجعل العلاقة بين المعنيين علاقة تضاد.

ولنا هنا أن ننظر في ما يلي :

- هل جاء في كتب اللغة عامة، وكتب الأضداد خاصة، أن العهن من المتضاد ؟.

- كيف يمكن تصور العهن الذي في المال قوة، حتى يستقيم مقابلته بمعنى الضعف والوهن ؟، أو : ما معنى القوة والثبات فيه ؟.

أما عن أول الأمرين، فلم أقف، فيما بين يدي من مظان اللغة، على إشارة إلى كون العهن من المتضاد[2]، وهو ما يتعين معه طلب تخريج سائغ لما يراد بالدوام والثبات في المال، إخراجا للفظ من باب التضاد.

وأما عن الثاني، فأشير بدءا إلى أن الثبات والدوام معنى أو وصف لا يكون في عاهن غير المال، فإن كتب اللغة لم تصف به غيره، ومن ثم، فإن الثبات و الدوام لا يعني أكثر من استقراره في أيدي الناس للتداول، ويؤيده مقابلته بالدين، فقد ورد أنهم يقولون : بكم بعت؟ أبعاهن أم بدين ؟[3]، ولعلي أستدل لصحة هذا التفسير بقول الخليل :

---

[1] لسان العرب، 322/10، وعمدة الحفاظ، 135/3.

[2] انظر مثلا : الأضداد، للأصمعي، الأضداد، للأنباري، الأضداد، للسجستاني، الأضداد، للتوزي، الأضداد، للصغاني، الأضداد، لقطرب، الأضداد في كلام العرب، لأبي الطيب اللغوي، الأضداد، لابن السكيت.

[3] معجم مقاييس اللغة، 175/4.

العاهن المال الذي يتروح على أهله[1]، ومعنى يتروح يضطرب في أيديهم، جيئة ورواحا، وهنا يتصل المعنيان ببعض من جهة الدلالة على الاضطراب والذهاب في كل وجه.

وقد نخلص إلى أن كلمة (العهن) أولى بالدلالة على الضعف والوهن والتلاشي، وأن كلمة (الصوف) تقتصر على الدلالة على المادة المعنية فحسب، بل إن الأصل في الصوف أن يكون متماسكا، وإلا ما صح معه النفش الذي هو تفكيكه، وتفريق أجزائه.

ولنا، بعد هذا، أن ننظر في البنائين الصوتيين للكلمتين بحثا عن ارتباط المبنى فيهما بالمعنى :

فكلمة الصوف مبنية من هذه الصاد المتسمة بالتفخيم لإطباقها مع الصفيرية[2]، وذلك كله من سمات القوة والشدة، مضافا ذلك إلى المضاعفة التي تزيدها متانة وصلابة تنأى باللفظ عن سياق الضعف، والوهن والخواء، وهو المقصود إليه في السورة الكريمة، كما لا يرى في هذه الواو التالية للصاد انسجاما مع الغرض من جهة كونها صائتا طويلا يأخذ زمنا طويلا، وذلك فيه شدة وقوة، ومعلوم أن الصوائت الطويلة أعلى إسماعا من الصوائت القصيرة[3]، وهو ما لا يضمن لكلمة (الصوف)، في هذا السياق، أداء بيانيا وافيا بالغرض المقصود.

وقد أفاد بعض المشتغلين بدلالة الأصوات، وقوتها الإيحائية، بأن الصاد ترتبط بمعنى المعالجة الشديدة[4]، وأن الواو تدل على الانفعال المؤثر في الأشياء، وتلك قوة

---

[1] معجم مقاييس اللغة، 175/4.

[2] انظر : الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، د. عبد البديع النيرباني، ص : 70.

[3] انظر : علم اللغة، لمحمود السعران، ص : 184.

[4] انظر مثلا : تهذيب المقدمة اللغوية، لعبد الله العلايلي، ص : 63.

وصلابة[1]، وهذا ما يجعل بين المكون الصوتي لكلمة الصوف وتوظيفها السياقي بونا ينال من قدرتها الدلالية ضمنه، فإذا بها على قوتها في نفسها، ذات ضعف في موضع استعمالها، إلى الحد الذي يمكن معه ملاحظة تدافع بين صلابة الصاد ووهن النفش، فجمع القراءة بين الضدين ينأى بها عن النقاء البياني الذي يؤهلها لسمو بلاغة القرآن الكريم، فليس بعد هذا إلا ما اختار القرآن الكريم أي : (العهن).

وكلمة العهن يتحد مبناها بمعناه اتحادا يرى في هذه العين، وهي حرف قوي، يجمع بين الجهر، وعلو الإسماع الحاصل من التوسط بين الشدة والرخاوة[2]، والهاء دالة على التلاشي، كما أفاد الدرس الصوتي في بعض نتائجه، فما هي إلا زفير خالص، وصوت بلا شخصية، كما يعبر بعض علماء الأصوات، لدلالتها على الخواء والفراغ والعدم، كما أنها تجمع بين سمات الضعف كالهمس والاحتكاك والاستفال[3]، والنون صوت مزدوج المنشأ، فهو فموي وأنفي، وذلك فيه قوة وصلابة، مع اتسامه بالجهر والإسماع العالي[4]، واجتماع ذلك كله يهيئ لنا أن نتصور حال الجبال يوم القيامة كحال وعاء ذي غلاف قوي، وقشر متين، وباطن حشوه الفراغ والخواء، والريح الذي يطير به في كل وجه، وذلك نسفها الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾[5].

والنسف نفخ قوي للنفس، كما يعرف في العربية، فيملأ أجواف هذه الجبال، وقد سمى علماء الأصوات الانتقال من الحرف المكسور إلى الساكن: (النفسية)، وهي نفخ للهواء أثناء النطق، ونراه في الخروج من كسرة العين إلى سكون الهاء.

---

[1] الصوت اللغوي ودلالته في القرآن الكريم، د. محمد فريد عبد الله، ص : 18.

[2] الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، ص : 68.

[3] انظر تفصيل هذه الصفات في: الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، ص : 65.

[4] الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، ص : 68، وعلم الأصوات، لحسام البهنساوي، ص : 72.

[5] طه : 105.

ويزداد الأداء البلاغي لكلمة (العهن) تميزا وتفوقا، إذا لوحظ موضوع السورة الذي يدور حول معنى مآل الأشياء إلى حقيقتها يوم القيامة، بخلاف ما تظهر عليه في هذه الدنيا، فجبروت الكفر وعناده ليس يومئذ إلا كفراش ضعيف واهن واه، يتهاوى على النار لخفته، وذلك هو حال جبال الدنيا، ترى في قوتها ومتانتها منيعة شديدة، لكنها تؤول إلى حال عهن منفوش لا يقوى على أمر نفسه[1]، لذلك، فإن الموازين الحقة هي موازين الآخرة لا موازين الدنيا : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[2].

والخلاصة أن ما تمدنا به اللغة بمعهود متنها، ومألوف استعمالها، ليس بالذي يتخلف عن تغليب الأداء البلاغي للعهن على الصوف، وسوف لن تكون قراءة الصوف في أحسن مستويات أدائها، غير تقريب لمعنى العهن لمن لا يعرفه، أما أن تعتلي مرتبة القرآن البلاغية، فأمر مدفوع بمقررات البحث اللغوي والبلاغي.

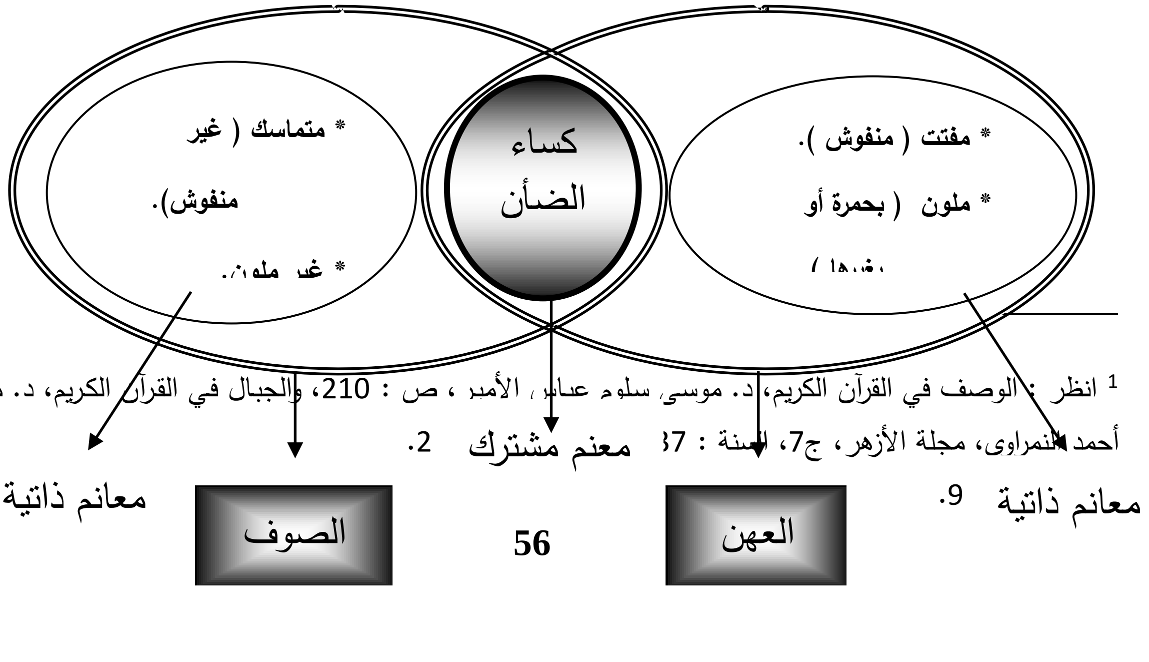

[1] انظر : الوصف في القرآن الكريم، د. موسى سلوم عباس الأمير، ص : 210، والجبال في القرآن الكريم، د. محمد أحمد النمراوي، مجلة الأزهر، ج7، السنة : 37 ... 2.

... 9.

2. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس العموم والخصوص :

قوله تعالى : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1].

فقد قرئ : (زقية واحدة)[2].

---

[1] يس : 53.

[2] معجم مكرم وعمر، 213/5، ومعجم الخطيب، 502/7.

فأما الصيحة فمن الصياح، وهو معروف، وأما الزقية فاسم المرة من زقا يزقو زقاء وزقية، والمصدر الزقاء والزقو، والزقي: صياح الديك[1]، وتورد كتب اللغة هذه المادة مع النسبة إلى غير الديك، كالطائر والمكاء، والصدى والهامة، وذلك غير العاقل، وفي العاقل خصوا بالزقاء الصبي فحسب، وإن كادت المعاجم أن تجعل الزقاء للديك غالبا.

على أن ابن منظور انفرد بالإشارة إلى الإطلاق في دلالة هذا الأصل اللغوي، فقال : (وكل صائح زاق)[2]، فظاهر ذلك تسويته بينهما.

ونحب أن نعرض هنا ملاحظات تخص هذه المادة :

– قد نحكم على أن زقاء كل من الديك والمكاء، والطائر والهامة واحد، إذ كل ذلك طيور.

– والصدى قد يعود إلى ما سبق، من جهة غلبة تعلقه، في لغة العرب، بالبومة، بل إن الصدى عندهم هو البومة، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن القتيل، إذا لم يدرك ثأره، خرج من رأسه طائر كالبومة، وهي الهامة، فيصيح على قبره.

وقد يستدل على هذا بقول توبة بن الحمير في ليلى الأخيلية[3] :

ولـــــو أن ليلـــــى الأخيليـــــة ســــــلمت

علـــــــيّ، وفـــــــوقي تربـــــــة وصـــــــفائح.

لســــــلمت تســــــليم البشاشــــــة أو زقـــــا

إليهـــا صـــدى مـــن جانـــب القبـــر صـــائح.

---

[1] انظر : لسان العرب، 43/7، وأساس البلاغة، 417/1، والمنتخب من غريب كلام العرب، لكراع النمل، ص : 158.

[2] لسان العرب، 43/7.

[3] انظر : الأغاني، 229/11.

فقد رووا أن الذي زقا من جانب القبر، في قصة هذين البيتين، بومة.

– زقاء الصبي ربما كان استعاريا لضعفه، ولو كان كل بكاء زقاء ما جعلوه للصبي خاصة.

– ربما ينصرف قول ابن منظور : (كل صائح زاق) إلى الاستعمال المجازي، لا الحقيقي، إذ لا يستقيم أن يريد العرب بكل زاق كل صائح، وقد قيدوا الزقاء بالديكة، إذ أسموها الزواقي، وهم يقولون في أمثالهم : (فلان أثقل من الزواقي)، يقصدون الديكة، لأنهم كانوا يسمرون فتفسد عليهم سمرهم، وتفرق مجالسهم بصياحها[1].

كما قد تضعف تسوية ابن منظور بين الصائح والزاقي على الحقيقة، بإشارة ابن فارس إلى هذه التسوية بصيغة لا تفيد قطعه بذلك في قوله : (ويقال : إن كل صائح زاق)[2].

ومما نخلص إليه أن كل زاق ضعيف، طيرا كان أم صبيا، وهو ما نحسب أنه لا يتماشى مع موضوع الآية وغرضها.

لذلك آثر التعبير بـ (صيحة)، ثم هو جعلها (واحدة)، إمعانا في تهوين أمرهم عن الله وتوهينه، ولا يفهم منه أن الله أنزل بهم ضعيفا، إنما هي صيحة من عند الجبار، لا يظن بها الضعف والوهن، وكيف، والبناء الصوتي لكلمة (صيحة)، يضمن أداء

---

[1] المستقصى، 41/1، ومجمع الأمثال، 151/1، وجمهرة الأمثال، 287/1، واللسان، 43/7، وأساس البلاغة، 471/1، ومعجم مقاييس اللغة، 16/3.

[2] معجم مقاييس اللغة، 16/3.

إيحائيا بمعنى القوة والشدة ، فالصاد صوت من صفته القوة، و قد سبق، والزاي التي في (زقية) أضعف من الصاد، وإن هي قاربتها في المخرج وجاز إبدالها منها.

وتظفر قراءة الزقية بسمة في أدائها البياني، من حيث تعبيرها عن معنى تفريق المتلاقين، وتشتيت المجتمعين، فالعرب يقولون في أمثالهم : (أثقل من الزواقي)، يعنون الديكة التي تفرق مجالس أسمارهم بزقائها، فإذا نحن ذهبنا إلى أن الزقية في الآية تهلك هؤلاء القوم بتبديد شملهم، وتفريق جمعهم، إلا أنه مذهب يضعف بكونه تبديدا يعقبه التئام، وتفريقا يليه اجتماع، لأن السمار يعاودون مجالسهم وأنديتهم كل ليلة، وذلك دأب لهم متجدد، ليس بالذي يخدم غرض القصة من إبادتهم إبادة لا قيام لهم بعدها، ويؤيد هذا ما قص الله به عن القوم، في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، فقد قال في الأعراف تصويرا لمهلكهم : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1]، والرجفة الزلزلة[2]، والجاثم اللازم مكانه لا يبرحه[3]، فسكن ولم يعد له طمع في حركة بعدها، وقال في هود : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[4]، وغيرها من المواضع.

ثم إن الذي يكاد يحسم في الفصل بين أدائي القراءتين هو أن القرآن آثر التعبير بالصيحة، أو ما في معناها، مما يكون في غرض الإنهاء والإفناء، في اثنتي عشرة موضعا[5].

---

[1] الأعراف : 78.

[2] لسان العرب، 111/6.

[3] لسان العرب، 76/3.

[4] هود : 67.

[5] انظر : المعجم المفهرس، ص : 529.

في حين لم يرد في لغة القرآن زقاء ألبتة، وحسبها ضعفا أنها ليست من لغة القرآن الكريم.

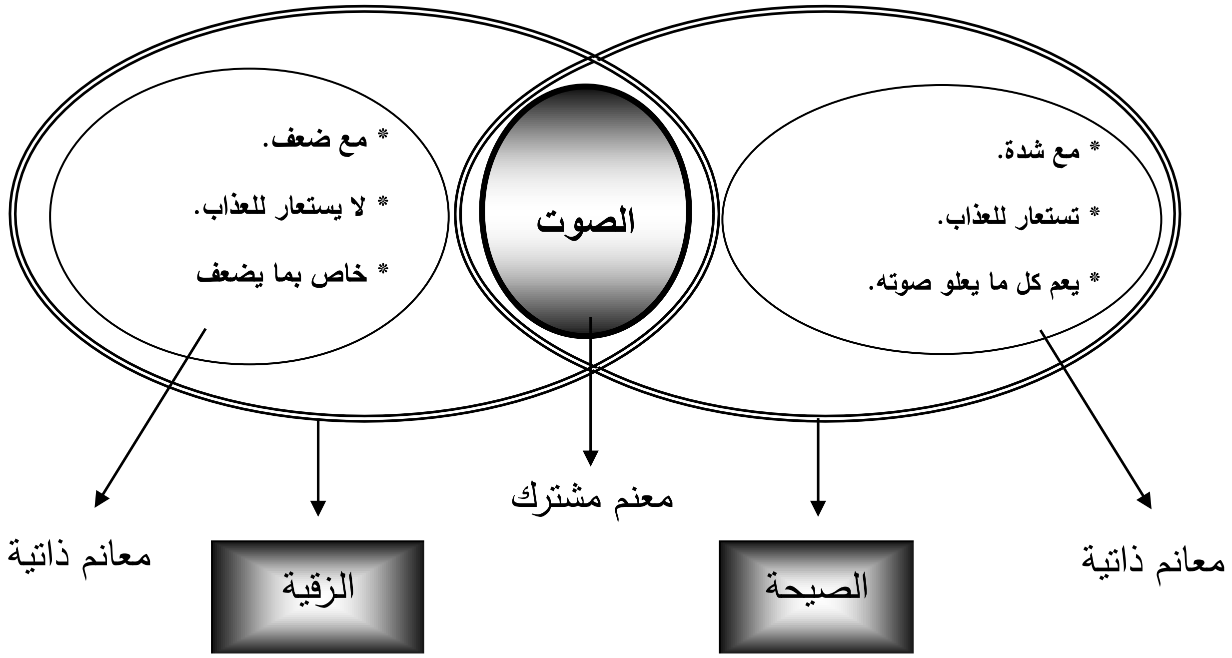

3. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الاقتران اللفظي :

ويدخل هذا أيضا في مقاييس الفروق بين ما يرى فيه ترادف، ولنا أن نعد منه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فقد قرئ : (السراح)[2].

في موضع الطلاق، والسراح والطلاق أصلان لغويان معروفان، يتحدان في إفادة معنى التخلية والإرسال[3]، في غالب ما يستعملان فيه، وكلا اللفظين من لغة القرآن

---

[1] البقرة : 227.

[2] معجم مكرم وعمر، 173/1، ومعجم الخطيب، 312/1.

[3] لسان العرب، (سرح)، 163/7، و(طلق)، 136/9.

الكريم، فقد ورد لفظ الطلاق، وما يشتق منه، في معنى بينونة الزوجة عن زوجها في أربع عشرة موضعا[1]، وجاء لفظ السراح في إفادة المعنى نفسه في خمسة مواضع[2]، ونسارع إلى القول بأن تتبع سياقات استعمال اللفظين، هو ما يفضي بنا إلى تبين وجه التفريق بينهما من خلال الوقوف على ما قد يقترن باللفظين من ألفاظ وأوصاف ونعوت، وقد بدا لي أن طبيعة المقام الذي يكون فيه السراح تنزع إلى التحبب والتلطف، ومراعاة الإحسان والرضا، لذلك ما جاء السراح في القرآن إلا وهو مقترن بصفة تحببه وتلطفه : قال تعالى : ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[3].

- وقال : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[4].
- وقال : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[5].
- وقال : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[6].

فالسراح في هذه الآيات مقترن بالجمال والإحسان والمعروف، وليس شيء من ذلك مع الطلاق في لغة القرآن الكريم، ولقد سمى دارس ما اعتبرناه اقترانا لفظيا : (الملازمة في التركيب النحوي)[7]، ثم إن البنية الصوتية لكلمة السراح توحي في مكوناتها بما فيه تنفيس وانبساط وارتياح.

---

[1] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص : 543.

[2] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص : 442.

[3] الأحزاب : 28.

[4] البقرة : 231.

[5] الأحزاب : 49.

[6] البقرة : 229.

[7] ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، د. عمر عبد الهادي عتيق، ص : 85.

ولعلنا نخلص من وراء هذا إلى أن اللطف والجمال والإحسان المقترن بلفظ السراح إنما يدخل في باب ما يسميه بعض الدارسين : (الإثارة الوجدانية)[1]، وهو معنى لنا أن نأخذ منه، في هذا المقام، التعبير عن احترام الزوجين باللفظ الذي يحفظ عليهما ود العشرة والصحبة، مما يبقي على إمكان الصلح قائما، وهو بهذا يرمي إلى غرض نبيل، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]، وجاء السراح في قوله تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[3]، والآية ضمن قصة جزع نساءه (ﷺ) من شظف العيش معه، ورغبتهن في حياة أيسر وأرغد، فإن الله تبارك وتعالى، يأمر نبيه بتخييرهن بين العيش مع رسول الله ﷺ، على شظفه، أو يخلي بينهن وبين الدنيا يطلبنها[4].

وما أحسب أن مراد الله، عز وجل، معلق بتطليق نساء نبيه، فما في ذلك حكمة ظاهرة، إنما المراد، والله أعلم، تربيتهن، وتطييب خواطرهن، بتغليب ظفرهن بالآخرة مع رسول الله ﷺ على متاع الحياة الدنيا، وهو ما لا يكون إلا بترغيبهن في الرجوع إلى بيوتهن تفضيلا للدين على الدنيا[5].

---

[1] انظر : منهج تربوي فريد في القرآن الكريم، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص : 64، وأساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، د. الحسين جرنو محمود جلو، ص : 255.

[2] البقرة : 237.

[3] الأحزاب : 28.

[4] الجامع، م7–106/14.

[5] انظر قصة النزول في : أسباب النزول، للواحدي، ص: 204، ولباب النقول، للسيوطي، ص : 207.

وفي السورة نفسها، جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]، فقوله تعالى : (الذين آمنوا) للرجال، و(المؤمنات) للنساء، هو من باب وضع المخاطبين في مقام إيماني يملأ القلوب والأفئدة، تمكينا للفضل والخير بين المؤمنين، في أسوإ ما تكون عليه الحال، وقوله : (ثم طلقتموهن) في معنى : نويتم طلاقهن، لكن التخلية آثر التعبير عنها بالسراح الجميل، لأن (إذا) الشرطية تصرف الماضي للاستقبال[2].

ولما كان الأمر غير متعلق بأشخاص بأعيانهم، إنما يفيد به بيان حكم شرعي بصورة مستقلة عن الارتباط بقضية مخصوصة، اقتضى الأداء البياني الموفق استدعاء اللفظ الدال على المعنى المخصص غير المقترن بغرض ما، وهو لفظ الطلاق، حتى إنه مصطلح الفقهاء في هذا الباب، فيقال : (باب أحكام الطلاق) لا أحكام السراح، ويعطف على هذا إيثار تسمية السورة سورة الطلاق، لا سورة السراح، وعلى هذا نقول عن قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[3]، إنه لبيان الحكم الشرعي، وإنما عبر بالتسريح تحاشيا لتكرار لفظ الطلاق، والله أعلم، وبه يتبين ضعف رأي من رأى تفسير التسريح في الآية بالبينونة الكبرى، يقابل بذلك دلالة لفظ الطلاق على الرجعي منه[4]، وذلك لأنه تفسير مبني على اعتبار التسريح في الآية طلقة ثالثة، ليس بعدها إلا البينونة الكبرى[5]، وفاته أن البينونة هنا استفيدت بقرينة العدد في قوله : (الطلاق مرتان

---

[1] الأحزاب : 49.

[2] انظر : الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، ص : 370، والزمن النحوي في اللغة العربية، د. كمال رشيد، ص : 210.

[3] البقرة : 229.

[4] انظر : أثر القراءات القرآنية في الفهم اللغوي، د. محمد مسعود علي حسن عيسى، ص : 182.

[5] زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 1/275.

)، إذ ليس بعد المرتين إلا الثالثة، ولم تستفد البينونة من اللفظ ذاته، وإلا فهم منه إفادته معناها في جميع مواضع وروده، وهو لا يصح، فلم يبق إلا ما ظهر لنا من الفرق بين استعمال السراح في غرض تحريك الأفئدة، دفعا لها إلى الترفق المؤدي إلى الصلح، والصلح خير، وبين استعمال الطلاق، وهو لفظ يدل ببنائه الصوتي على قوة وشدة حاصلة من اجتماع الطاء واللام والقاف، بما يصلح لمقام الجد والصرامة المرتبطة بمراعاة الضبط في لغة التشريع، وقد يؤيده اقتران لفظ الطلاق في الآية بلفظ العزم في قوله : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فإن العزم الجد، والعقد على فعل الشيء وتحقيق إيقاعه[2]، وهو الأدنى للفظ الطلاق، بشدته، من لفظ السراح، برفقه ولينه، وقد يكون من البليغ هنا أن نشير إلى أن لفظ الطلاق، وما يشتق منه، يرد غالبا في مستهل الآي، أو حشوها، وتجيء كلمة السراح في آخره، وذلك ليكون اللفظ المرتبط بالإحسان و المعروف، ومراعاة ود العشرة، آخر ما يمس السمع، و يبلغ الفؤاد، وذلك على ما نحو ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾[1].

---

[1] البقرة : 227.
[2] لسان العرب، 139/10.
[3] البقرة : 227.
[4] البقرة : 228.
[5] البقرة : 229.

- وقوله : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾(3).
- وقوله : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[5].

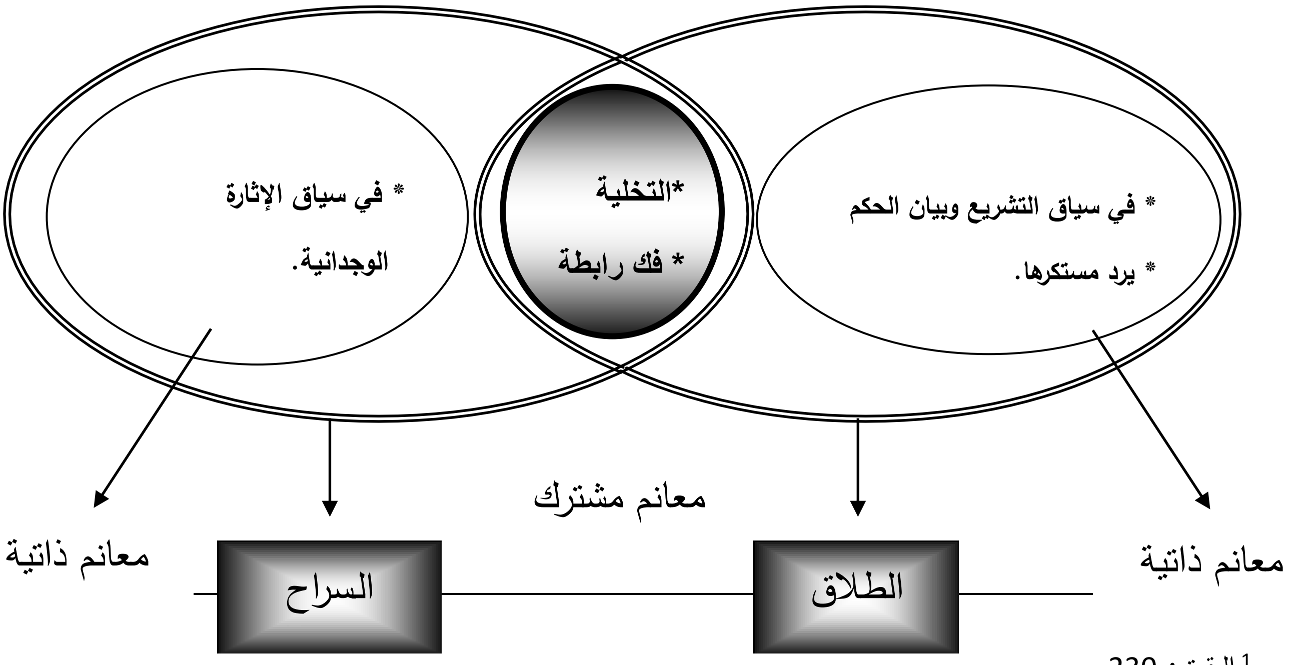

[1] البقرة : 230 .

[2] البقرة : 231.

[3] البقرة : 236.

[4] البقرة : 237

[5] البقرة : 241.

4. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الذات والصفة :

والتفريق بين ذات الشيء وصفته، يكاد يكون أهم مقياس عند فقهاء اللغة في التفريق بين ما يظن به الترادف، ذلك أن فريق المنكرين يعول في غالب الأمر على اعتبار الشيء مما يعد مترادفات صفات لمسمى واحد، وقصة السيف معروفة[1]، وقد بدا

[1] انظر : المزهر، للسيوطي، 405/1.

لنا أنه مما يدخل ضمن هذا الاعتبار قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1].

قرئ : (نسمة عن نسمة)[2].

وتفيد المعاجم أن النسمة مأخوذة من النسيم الذي هو ريح غير شديدة الهبوب، كما أن نفس الإنسان، وكل ذي نفس يتردد شهيقا وزفيرا نسيم، ولما كان الإنسان ذا نسيم يتردد، صح أن يسمى معه نسمة، قال ابن فارس : (النون والسين والميم، أصل صحيح يدل على خروج نفس، أو ريح غير شديدة الهبوب، ونفس الإنسان نسيم،... ولذلك سميت النفس نسمة)[3].

والهاء في (نسمة) للإفراد، لأن الجمع نسم، مثل قصبة وقصب، والله بارئ النسم أي خالق النفوس[4].

ولم أقف في كتب اللغة على ما يزيد كلمة (نسمة) دلالة فوق معنى ما تكون به الحياة، حتى إن النسمة هي الروح عند بعضهم، جاء في اللسان : (... النسمة : نفس الروح... يقال ما بها ذو نسم أي ذو روح ... وما بها ذو نسيم أي ذو روح ... وكل دابة في جوفها روح فهي نسمة، والنسم الروح،... ويقال: نسمت نسمة إذا أحييتها...)[5]، ومن ثمّ، فإن دلالة النسمة في لسانهم مقصورة على الحياة، لا تجاوز ذلك إلى التعبير عن الدخول في وصف من الأوصاف، أو عمل من الأعمال الحسنة أو السيئة.

---

[1] البقرة : 48.

[2] معجم مكرم وعمر، 53/1، ومعجم الخطيب، 94/1.

[3] مقاييس اللغة ، 421/5.

[4] المصباح المنير، ص : 358.

[5] لسان العرب، 249/14، ومفردات الراغب، ص : 818.

ولذلك صح أن تدل النسمة على العاقل وغيره، أي المكلف وغيره، قال في اللسان : (النسمة : الخلق، يكون ذلك للصغير والكبير، والدواب وغيرها، ولكل من كان في جوفه روح، حتى قالوا للطير...)[1]، وبه يتضح أن كلمة (النسمة) ليست بالتي تفي بالتعبير عن مقام عرض الأعمال على الميزان يوم القيامة، لما فيها من الإطلاق الذي يشمل المكلف وغير المكلف، فاللفظ مدفوع عن قصور أدائي من هذا الوجه، بخلاف ما يؤخذ من اللفظ المنتخب في القراءة الصحيحة المشهورة، ويؤخذ من متن اللغة ما يفيد أن (النفس) تدل على ما به حياة من الخلق، مضموما إليه ما يتصف به من عمل وصنع، ففي الدلالة على الحياة والروح يتحد اللفظان، وتتفرد النفس بمزيد التعبير عن الحال والعمل والصفة، ولعل هذا هو معنى قول السمين الحلبي : (النفس ذات الشيء وجملته)[2]، فكأن مراده بذات الشيء كونه حيا ذا روح، وبجملته ما تكون عليه حاله ووصفه، وجاء في اللسان : (.... النفس في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما: قولك خرجت نفس فلان أي روحه...، والضرب الآخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته)[3].

ويؤيد دلالة النفس على الروح تسميتهم الدم نفسا وروحا، قال في اللسان : (... وإنما سمي الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه)[4]، ومعلوم أن الخروج خروج الروح.

ويؤيد تعبير النفس عن الوصف و الحال تعددها، و تعدد وصفها، فمنها اللوامة، والمطمئنة، والزكية، والأمارة بالسوء[1]، ومن ثم احتاجت إلى التمييز بين الفجور والتقوى،

[1] لسان العرب، 249/14 .

[2] عمدة الحفاظ، 204/4.

[3] لسان العرب، 319/14 .

[4] لسان العرب، 320/14.

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2]، وجاء في اللسان : (قال ابن خالويه : النفس الروح، والنفس ما يكون به التمييز)[3]، ثم قال : (والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين، وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء، وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نفسا وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى، وعلى ذلك قول الشاعر :

يـــؤامر نفســـيه، وفـــي العـــيش فســـحة

أيســـــــترجع الــــــذؤبان أم لا يطورهــــــا؟

وأنشد الطوسي :

لـــــم تـــــدر مـــــالا، ولســـــت قائلهـــا

عمـــــرك مـــــا عشـــــت آخـــــر الأبـــــد

ولـــــم تـــــؤامر نفســـــيك ممتريـــــا

فيهـــــا وفـــــي أختهـــــا ولـــــم تكـــــد

وقال آخر :

---

[1] انظر مثلا : التعريفات، للجرجاني، ص : 243.

[2] الشمس : 7-8.

[3] لسان العرب، 319/14.

فنفســـاي نفـــس قالـــت: ائـــت ابـــن بحـــدل

تجـــد فرحـــا مـــن كـــل غمّـــى تهابهـــا

ونفـــس تقـــول: اجهـــد نجاتـــك لا تكـــن

كخاضـــبة لـــم يغـــن عنهـــا خضـــابها)[1]

ثم جاء بعد هذا بكلام كثير يصب جميعه في هذا المجرى.

وربما يقطع بصحة هذا التفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

إذ لا بد من التفريق بين النفسين، قال الشوكاني : (وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف إليه)[3]، فليس إلا أن تكون الأولى بمعنى الروح، والثانية بمعنى العمل، ولذلك صح معنى أن تجادل عنه، قال المراغي : (يوم تأتي كل نفس تخاصم عن نفسها، وتحاج عنها، وتسعى في خلاصها بما أسلفت في الدنيا من عمل)[4].

وبه يتضح أن النسمة ذات، وأن النفس ذات وصفة، فيكون غرض الآية أدنى إلى إيثار التعبير بالنفس لما فيها من تضمن معنى الصفة والعمل، وهو ما يراعى يوم القيامة ويعرض على الميزان.

---

[1] لسان العرب، 320/14 .

[2] النحل : 111.

[3] فتح القدير، 191/3.

[4] تفسير المراغي، 149/14.

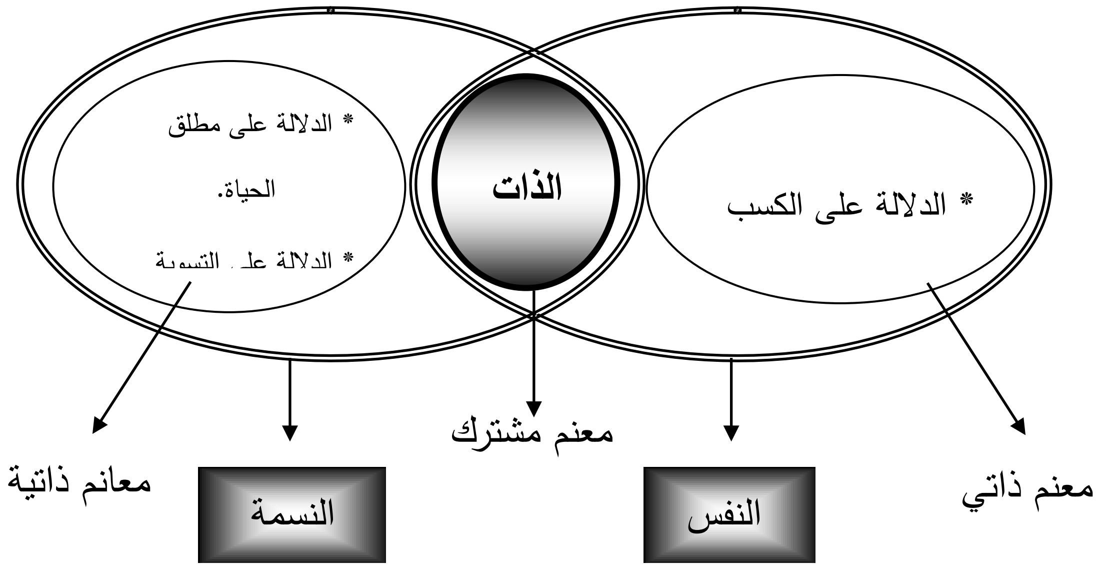

5. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس اقتضاء العطف المغايرة :

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فقد قرئ : (حيفا)[2] في موضع قوله : (جنفا).

---

[1] البقرة : 182.

[2] معجم مكرم وعمر، 140/1 ومعجم الخطيب، 249/1.

وتكاد المعاجم أن ترينا اللفظين متطابقي الدلالة، لكثرة ما يفسر به أحدهما بالآخر، وكلاهما في معنى الظلم والجور.

وتجمع كتب اللغة على أن اللفظين بمعنى الميل والجور في الحكم، ويطلق كلاهما سواء على الحسي من الأشياء، أو المجرد المعنوي، فمن ذلك أن الجنف هو دخول أحد شقي الرجل واعتدال الآخر، والأجنف المنحني الظهر[1]، والجنف الميل الذي هو الظلم والجور[2].

فالميل هو معناه العام وقياسه، في الحسي كان أم في المعنى المجرد، وكذلك الحيف، فقياس بابه الميل أيضا[3]، ويكون في المعنوي وهو الظلم والجور[4]، وفي الحسي كالبلد الأحيف، والأرض الحيفاء، إذا لم يصبهما المطر[5].

وعلى هذا، بدا لبعض أئمة اللغة أنهما مترادفان ترادفا مطلقا، فقد نقل ابن منظور ردا للأزهري على من نظر في التفريق بينهما فقال : (.... والجنف شبيه بالحيف، إلا أن الحيف من الحاكم خاصة، والجنف عام، قال الأزهري: أما قوله الحيف من الحاكم خاصة فخطأ، الحيف يكون من كل من حاف)[6].

والذي بدا لي هو أن اللجوء إلى السياق الاستعمالي هو الكفيل بالكشف عن وجه التفريق بين اللفظين، ومن المحقق أن المحيط الدلالي للفظ يتوفر على قرائن وضمائم قد

---

[1] انظر : لسان العرب، 216/3، والقاموس المحيط، 154/3، وعمدة الحفاظ، 348/1، وغريب اليزيدي، ص : 88، وغريب السجستاني، ص : 67، ومفردات الراغب، ص : 207.

[2] معجم مقاييس اللغة، 486/1 .

[3] معجم مقاييس اللغة، 486/1، ومفردات الراغب، ص : 266.

[4] لسان العرب، 289/4.

[5] القاموس المحيط، 131/3.

[6] لسان العرب، 276/3.

تعين على المراد هنا، ومن ثم، فلعله من الموفق في هذا أن نقول: إن الجنف هو الظلم المتلبس بالقصد إليه، وأن الحيف يكون بقصد وبغيره، فقد جاء في السير أن المسلمين أخطأوا غروب الشمس في رمضان فأفطروا، ثم طلعت الشمس، فقال سيدنا عمر (رضي الله عنه) : (ما تجانفنا)، أي ما قصدنا[1].

وعلى هذا يفسر قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، قال بعض أهل التفسير : (غير متعمد)[3] كما يستفاد من اقتران الجنف بالإثم معنى القصد والعمد، ذلك أن الخطأ والسهو، وما إليهما، لا يستوجب التأثيم، وربما بلغ بي النظر إلى أن النهي عن الاختيال في المشي، لما فيه من القصد إلى استصغار الآخرين، هو ما أوثر فيه التعبير بالجنافي، أي الذي يختال في مشيته[4]، كما قد يقطع بهذا عطف الإثم عليه في قوله : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5]، واقتضى العطف الاشتراك في الحكم، فكان الجنف مما فيه تأثيم يستوجبه القصد إليه، وربما يكون اقتران الجنف بالقصد هو ما جعل الراغب الأصفهاني يراه في معنى الضلال، قال : (الحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحيف ميل عن الاستقامة إلى الظلال)[6]، وربما يقطع ابن عباس في هذا الأمر بقوله: (وجنفا يعني تعمدا للحيف بلغة قريش)[7]، وهو على خلاف ما رواه عنه ابن الجوزي من جعله

---

[1] لسان العرب، 216/3.

[2] المائدة : 03.

[3] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، لمحمود الطناحي، 273/1.

[4] انظر : لسان العرب، 216/3.

[5] البقرة : 182.

[6] لسان العرب، 320/14 .

[7] مفردات الراغب، ص : 160.

الجنف من الخطأ والإثم من العمد، وعلى هذا، يتعين التميز الأدائي في التعبير البياني بالجنف دون الحيف، من بعد ما أسعفنا السياق اللغوي والمحيط الدلالي للآية الكريمة.

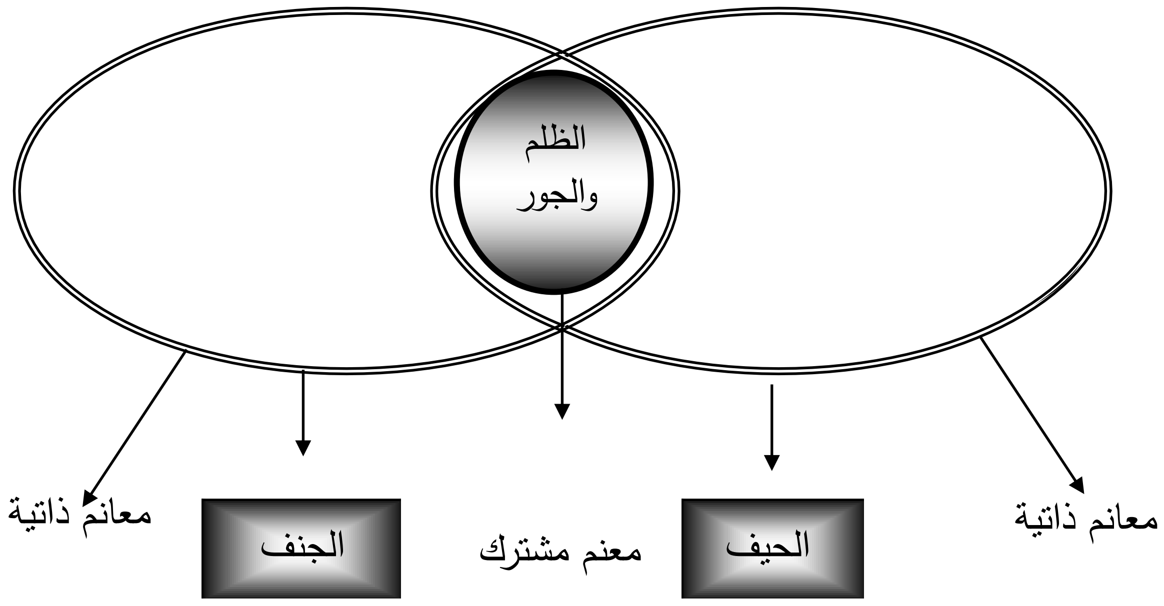

6. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الاستعمال اللغوي للكلمة :

والنظر في اشتقاق اللفظ يبلغنا الجذر اللغوي الذي جاء منه، وبه يسهل التعرف على معناه، فإن يكن لفظان مترادفين أعاننا اشتقاقهما على كشف وجه الفرق بينهما، ونأخذ من هذا السبيل قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[1].

---

[1] البقرة : 150.

قرئ : (... تلقاء المسجد ... تلقاءه)[1].

وموضوع الآية هو نسخ التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة، والأمر باستقبال المسجد الحرام، وقصة ذلك معروفة[2].

ومعلوم أن من قرأ (تلقاء) إنما أراد بذلك تفسير الشطر، وهو كذلك يرمي إلى الجمع بين اللفظين على معنى واحد، على سبيل الترادف، ولكن البحث في الاستعمال اللغوي بين اللفظين ربما انتهى بنا إلى وجه من وجوه التفريق بينهما، فالشطر في متن اللغة يطلق على معنيين أساسيين :

- النصف : فشطرت الشيء : جعلته نصفين، وشاطره ماله : ناصفه[3].
- البعد : فالشطير هو البعيد[4].

وعلى هذين المعنيين يدور كل ما في كتب اللغة مما هو من هذا الأصل اللغوي، وهو في الدلالة على المناصفة والبعد مأخوذ من الفعل (شطر)، من باب (نَصَرَ) ومضارعه يشطر، واسم الفاعل منه شاطرٌ، وقيل لمن يؤذي قومه شاطر، لأنه يأتي بما يبعده عنهم ويقصيه[5]، جاء في الزاهر : (وقولهم: فلان شاطر، الشاطر معناه في كلام العرب المتباعد من الخير، أخذ من قولهم : نوى شطر، أي بعيدة، و احتج بقول امرىء القيس :

و شـــــاقك بــــين الخلـــــيط الشـــــطر

---

[1] معجم مكرم وعمر، 140/1 ومعجم الخطيب، 214/1.

[2] انظر مثلا : العجاب في بيان الأسباب، للعسقلاني، ص : 204.

[3] لسان العرب، 78/8.

[4] معجم مقاييس اللغة، 186/3، ولسان العرب، 80/8.

[5] لسان العرب، 80/8، ومفردات الراغب، ص : 453.

و فـــيمن أقـــام مـــع الحـــي هـــر)[1].

ومصدره : (شَطْرٌ)، على زنة (فَعْلٌ)، وذلك قياس بابه، قال ابن مالك :

فعـــــل قيـــــاس مصـــــدر المعـــــدى

مـــــن ذي ثلاثـــــة كـــــرد ردا[2].

ولكن هذا الأصل اللغوي إذا كان في الدلالة على الوجه والقصد والناحية فهو مما لا فعل له، قال ابن منظور : (... وشطر الشيء ناحيته، وشطر كل شيء نحو قصده، وقصدت شطره أي نحوه... ولا فعل له)[3]، فلا يقال: شطرت أشطر، والمراد اتجهت أتجه، أو قصدت أقصد، وتقوم شواهد كثيرة على إفادة الشطر معنى القصد والناحية.

وعلى هذا فسروا اللفظ في قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾، قال السمين الحلبي : (أي نحوه ووجهته)[4]، وقال الزجاج : (الشطر النحو، لا اختلاف بين أهل اللغة فيه)[5].

---

[1] الزاهر في معاني كلمات الناس، للأنباري، 224/1.
[2] انظر : توضيح المقاصد والمسالك، للمرادي، 22/2.
[3] لسان العرب، 79/8.
[4] عمدة الحفاظ ، 269/2.
[5] معاني القرآن وإعرابه، 194/1.

ومنه تبين أن اللفظ في معنى المواجهة والتقابل، ولعله بهذا يرجع إلى معنى البعد من جهة أن الشاطر، إذ يبعد عن قومه، فإنه يواجههم بأذاه، ويقابلهم بظلمه.

كما يقال : تقابل الخصمان، ولعله ما جعل ابن فارس يجمع بين الدلالتين في الأصل الثاني لمادة (شطر) في قوله : (الشين والطاء والراء أصلان يدل أحدهما على نصف الشيء، والآخر على البعد والمواجهة)[1]، كما لا يفوتنا أن نعلم أن بعد الشاطر عن أهله، هو بعد معنوي لا حسي، فيكون على هذا في معنى العداوة والخصام، لا مجرد مفارقتهم، وإن استوجب العداء البعد الحسي، لعدم إمكان الجمع بين أذاهم والمقام بينهم، فهو، من ثم، يواجههم بأذاه عن بعد، لا عن اختلاط بهم، وعلى هذا يمكن حمل اختيار اللفظ (شطره) في القراءة الصحيحة المشهورة على إرادة معنى المواجهة من بعيد، وهو عين ما يكون في الصلاة، إذ لا يجب فيها بلوغ البيت الحرام، والاختلاط به، إذ هو مما لا طاقة لأحد به، إلا أن يكون من أهل الحرم المكي، فالقراءة أمر بالاستقبال دون الاختلاط.

أما قراءة (تلقاء) فمأخوذة من (لقى)، ومن معانيه توافي الشيئين مع تقابلهما، كما قال ابن فارس[2]، والتوافي البلوغ والوصول إلى الشيء[3].

والتلقاء تفعال، بكسر التاء، مصدر من ثلاث عشرة مصدرا هي : لقاء ولقاءة وتلقاء ولقيا ولِقيانا ولُقيانا ولقيانة ولقية ولقيا ولُقى ولَقى[4]، ولأئمة اللغة في هذا المصدر كلام يوقف عليه في مظانه[1].

---

[1] معجم مقاييس اللغة، 186/3.

[2] معجم مقاييس اللغة، 260/5.

[3] لسان العرب، 253/15.

[4] انظر : لسان العرب، 516/5.

والذي انتهيت إليه في تحليل دلالة هذه المادة أن اللقاء والتلقاء يزيد على الشطر معنى الوصول إلى الشيء، وبلوغه، والاختلاط به، قال السمين الحلبي : (اللقاء : مصادفة الشيء للشيء ومقابلته له معا)[2]، وعلى هذا يخرج كثير من اللقاء، كلقاء الجيشين إذا التحما، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾[3]، ولقاء التعب بلوغه إلى الجسد، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[4]، وكل لقاء في القرآن الكريم هو بلوغ ووصول وتواف، لا يكتفى فيه بالمواجهة البعيدة، وجاء أيضا : (وجلس تلقاءه أي حذاءه)[5]، ولا مجالسة بين اثنين عن بعد، وسموا الطريق الملقى لأنه يبلغك ما تريد لقاءه، ويوصلك إليه[6]، وجاء التلقاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، تفيد كلها معنى البلوغ والمخالطة، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[7]، وصرف الأبصار لا يكون إلا بإرادة بلوغها ما تصرف إليه.

وقال أيضا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[8]؛ أي من قبل نفسي[1]، أو من عند نفسي[2]، ويكون الشيء عند النفس، إذا هو خالطها، وألم بها.

---

[1] انظر مثلا : المزهر، للسيوطي، 83/2، والكتاب، 245/2، وغريب السجستاني، ص : 64.

[2] عمدة الحفاظ، 37/4 ، ومفردات الراغب، ص : 754.

[3] آل عمران : 155.

[4] الكهف : 62.

[5] الصحاح، 2484/6.

[6] أساس البلاغة، 178/2.

[7] الأعراف : 47.

[8] يونس : 15.

وقال أيضا : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[3]؛ أي ناحية مدين، لأنه يريد بلوغها والاختلاط بأهلها.

وعليه، يكشف استعمال اللقاء والتلقاء، ومادة ذلك، عن الوجه الذي يقوم به الفرق بينه وبين الشطر، وهو حصول الاختلاط بين المتلاقين، فيبين بذلك ضعف أدائها البياني من جهة تضمنها شرط بلوغ الكعبة بالتوجه إليها عند الصلاة، وهو لا يكون.

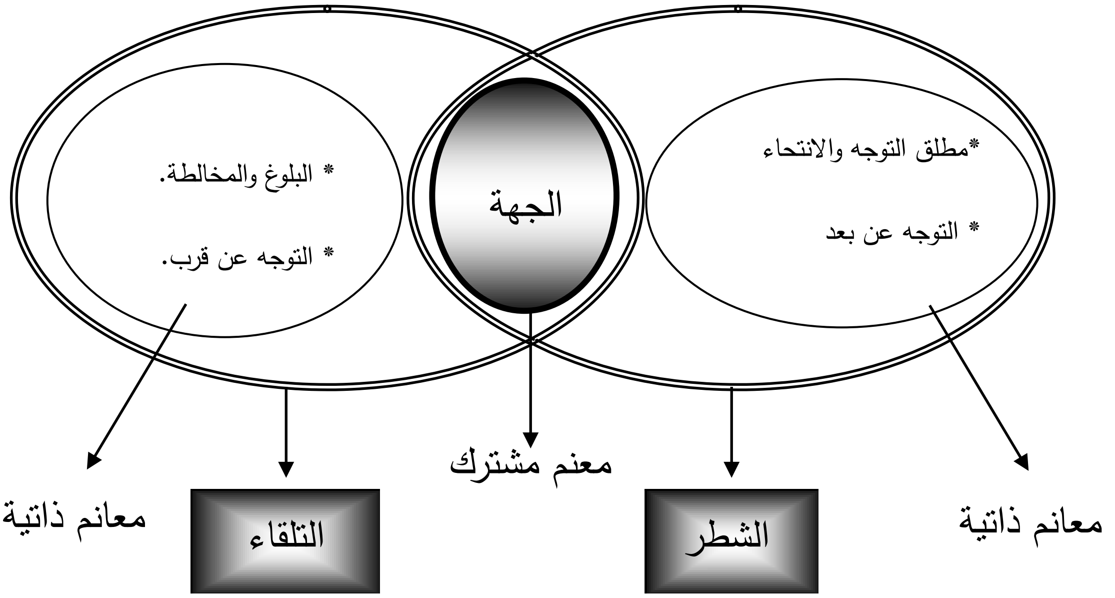

[1] البحر المحيط، 136/5.

[2] غريب السجستاني، ص : 64، وغريب اليزيدي، ص : 169.

[3] القصص : 22.

7. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الاشتقاق :

ومما يسعف الاشتقاق بالظفر بوجه الفرق بينه وبين ما يرى مرادفا له، ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

فقد قرئ : (ولكل قبلة)[1].

---

[1] البقرة : 148.

فأما الوجهة، فكل ما يقصده المرء بوجهه ويستقبله، قال ابن فارس : (الواو والجيم والهاء، أصل واحد يدل على مقابلة الشيء ... والوجهة : كل موضع استقبلته)[2].

ومن الوجهة المواجهة، وهي الاستقبال والمقابلة[3]، وكل ذلك مألوف في اللغة معروف.

وجاء أيضا أن الوجهة القبلة[4]، ولعل ذلك مخصوص بوجهة القرآن، دون سواه، إذ ليست كل وجهة قبلة؛ أي قبلة يتوجه إليها في الصلاة، وإن صح أن كل قبلة وجهة، وبه قد يبين أن الوجهة أعم من القبلة لتخصيص هذه بالصلاة، وعموم الوجهة كل ما يتوجه إليه في صلاة، أو في غيرها، ولكن النظر في غالب ما يشتق من مادة (قبل) ربما بلغ بنا إلى تضمن هذه المادة اللغوية لمعان هي أدنى إلى المقاصد الإسلامية، تغدو معها وجهة المسلمين في صلاتهم، أولى بتسمية القبلة من أي وجهة أخرى لغيرهم من أهل العقائد والأديان، فكأنه لا قبلة إلا قبلة المسلمين، وذلك ما نسعى في بيانه هنا :

في مادة (قبل) معنى قدوم ما تستقبله إليك، فسميت الليلة القادمة قابلة، وكذا العام القادم إليك قابل، أي مقبل... وقبلت الهدية لأنها قادمة إليك.. وكذلك قبلت الخبر، والخبر يقدم عليك... وسميت القابلة قابلة لأن الولد قادم إليها من بطن أمه... وكذلك سمي من يمسك الدلو من البئر لأنه قادم من جوفه، وأقبلت الأرض بالنبات جاءت به[5]، وغيره مما يلتقي على معنى القدوم على المستقبل، ويوقف على هذا في قبلة صلاة

---

[1] معجم مكرم وعمر، 125/1، ومعجم الخطيب، 212/1.

[2] مقاييس اللغة، 88/6.

[3] انظر: لسان العرب، 161/15.

[4] لسان العرب، 161/15، وغريب اليزيدي، ص : 84، وغريب السجستاني، ص : 208.

[5] لسان العرب، 14/12، وأساس البلاغة، 49/2، وعمدة الحفاظ، 266/3، ومقاييس اللغة، 51/5.

المسلمين من جهة أن المصلي إذا توجه إلى ربه، يبغي الصلة به، أقبل الله إليه، وجاءه برحمته وعفوه، وغفرانه وثوابه وجنته، فمن أتى ربه بالطاعة أتاه ربه بالأجر والثواب، ومن ترك الصلاة فقد نسي ربه وتركه فينساه ربه ويتركه، وتشهد لهذا المعنى نصوص لا تعد كثرة، وعلى هذا أوثر تسمية وجهة المسلمين بالقبلة لأدائها معنى إقبال الله على من يقبل عليه، وقد يعضد هذا تسمية رضا الله تعالى عما يقبل به عبده عليه من الطاعات قبولا وتقبلا، لأنه تعالى يقبل على هذا العابد بالثواب، قال السمين الحلبي : (... والتقبل : قبول الشيء على وجه يقتضي ثوابا)[1].

وليس كل ذلك بكائن في الوجهة لإفادتها معنى التوجه إلى الشيء دون قدوم عليك، إذ ليس من شرط ما تتوجه إليه عوده بالتوجه إليك، إلا أن يستفاد ذلك بقرينة من صيغة المشاركة مثلا، فيقال المواجهة إذا أريد توجهك إلى الشيء، وتوجهه إليك معا، أما المادة مجردة فإنها لا تفيد ذلك، بل ربما أخذ من التوجه والمواجهة معنى الذهاب بغير رجوع، فقد جاء عندهم أن الشيخ الفاني إذا ولى وأدبر، أي هلك، قالوا : توجه[2].

وفي مادة (قبل)، معنى الوحدة، والتماسك والتآزر، فقد جاء أن القبيل هو الكافل، وفي الكفالة والتكفل تأييد وتقوية ودعامة، وسمي العهد المكتوب قبالة لأن الكتابة تزيده قوة وتوثيقا، والقبيل في قوى الحبل كل قوة على قوة، والقبل الطاقة والقوة، ومالي به قبل أي طاقة و...[3]، وغير ذلك، مما يكثر ويلتقي على معنى القوة والتماسك، وهو عين ما يرمي إليه الشرع بفرض الصلاة التي يكون من وجوه الحكمة في تشريعها تقوية

---

[1] عمدة الحفاظ، 266/3.

[2] مقاييس اللغة، 88/6.

[3] انظر في كل ذلك : لسان العرب، 14/12، وعمدة الحفاظ، 266/3، وأساس البلاغة، 49/2، ومقاييس اللغة، 51/5.

المسلمين بالتجمع في الصلاة في صورة مصغرة عند كل مكتوبة، ثم يأخذ التجمع في التعاظم عند كل جمعة، إلى بلوغ منتهاه عند حج البيت الله الحرام.

وعلى هذا الأساس من التفريق بين القبلة والوجهة، وما تفضل به القبلة الوجهة، بما ذكر من المعاني الشرعية، يتضح أن الوجهة تطلق على التوجه إلى ما فيه خير أو شر، وأنها، من ثمّ ، تكون محمودة أو مذمومة بخلاف القبلة، فلا يؤخذ منها إلا كل مرغوب من الشرع مقصود إليه، ولما كان سياق الآية، ومحيطها الدلالي، في الحديث عن اليهود وضلال وجهتهم، وعن المسلمين وهداية وجهتهم، اقتضى الأمر التعبير باللفظ الذي يشمل المعنيين بما فيه من إطلاق معنى الضلال ومعنى الهداية، قال القرطبي : (ولكل وجهة إما بحق وإما بهوى)[1]، وقال الزمخشري : (ولكل من أهل الأديان المختلفة وجهة)[2]، فلو أنه قال : (ولكل قبلة)، لجعل لغير المسلمين من اليهود وغيرهم نصيبا مما تدل عليه القبلة من معان شرعية، وهم ليسوا على شيء من ذلك لضلالهم، ومنه، فإن التعبير بالقبلة في هذا الموضع غير موفق ألبتة، بما فيه من تدافع بين الكفر والضلال، ومقاصد الشرع الحنيف، ويترجم التدافع المعنوي هذا إلى تدافع لغوي يُرى في اجتماع إفادة العموم في لفظ (كلٍّ) المنون، وإفادة الخصوص في لفظ (قبلة) بما سبق من تفسير وبيان، فيخلص الأمر إلى أن الأداء البياني المرتضى إنما يحصل باجتماع عموم (كلٍّ) مع عموم (وجهة).

وأما عن تسمية ما هم عليه قبلة، أي في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ

---

[1] الجامع، م1- 111/2.

[2] الجامع، م1- 111/2، والكشاف، 322/1.

﴿ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1]، رغم ضلالهم وكفرهم، فلعله يكون من باب المشاكلة اللفظية، فيحمل على قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[2]، فإن الأولى سيئة، والثانية ليست كذلك، وعلى قوله : ﴿ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[3]، فإذا كان الأول اعتداء، فإن الثاني ليس كذلك، لأنه اقتصاص، وهو عدل.

ثم إنه لو قال : (ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع وجهتهم)، لذهب من التعبير حسن المشاكلة، وجمال المماثلة اللفظية، والقصد إلى خفة النطق بهذا الازدواج اللفظي، وذلك غرض بياني ليس بالذي تفوته مرتبة القرآن البلاغية[4].

ونحب أن نشير ختاما إلى أن من التدليل على عموم الوجهة، واشتمالها على الهداية والضلال اقترانها في لغة القرآن الكريم بما يفيد معنى القصد إلى الحق فيها، كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾[5].

- وقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[7].
- وقوله : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[1].

---

[1] البقرة : 145.
[2] الشورى : 40.
[3] البقرة : 194.
[4] انظر مثلا : أمالي المرتضى، 131/1 .
[5] الروم : 30.
[6] الأعراف : 29.
[7] يونس : 105.

- وقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[2].
- وقوله : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾[4].

فإن قرينة القصد إلى الحق في ذلك كله هي قوله : (لله)، فعبر في كل ذلك بالإقامة لتخصيص التوجه بالهداية والحق، وصرفا له عن الباطل والضلال :

وقد أخذت القرينة من اللفظ نفسه في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[5]، قال السمين الحلبي : (وجهت وجهي، أي قصدت لعبادتي وتوجهي)[6].

وبعد، فإن الله تعالى إنما آثر لصلاتنا لفظ القبلة على لفظ الوجهة لأنه أراد، بمنه وفضله، أن تكون الصلاة أخذا وتلقيا بالاستقبال، وذلك أجره وثوابه، لا أن تكون ذهابا إلى جهة قد لا ينالنا منها شيء، فكأني به، تبارك وتعالى، يقول لنا إذ ينادينا للصلاة : أقبلوا وخذوا الأجر والثواب، لا أقبلوا فحسب.

---

[1] البقرة : 112.

[2] النساء : 125.

[3] آل عمران : 20.

[4] لقمان : 22.

[5] الأنعام : 79.

[6] عمدة الحفاظ، 286/4.

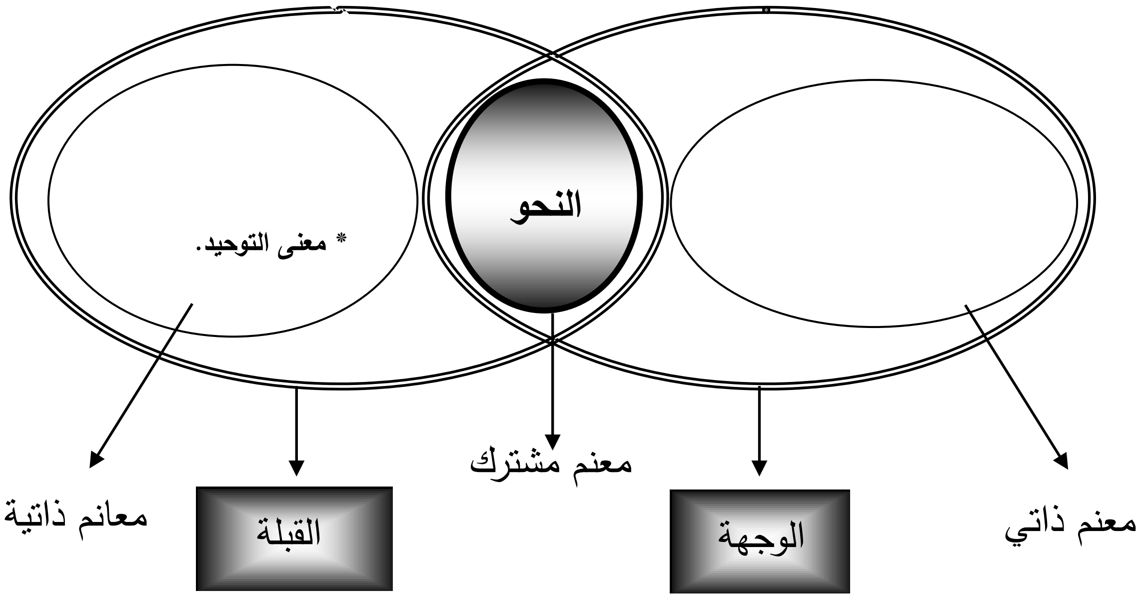

8. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس أصل اللفظ وحقيقته في اللغة :

وهذا المقياس هو أحد السبل التي تبلغ الباحث مراده من التفريق بين ما يظن به الترادف، إذ قد تختلف حقيقتا لفظين في اللغة، ويتباين أصلاهما، فيظهر الفرق به ويقوم، ومما ندرسه في هذا المقياس قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

---

[1] البقرة : 213.

قرئ : (كان البشر)[1].

فأما الناس في كتب اللغة، فمن النَّوْس، وهو تذبذب الشيء، يقال : ناس الشيء ينوس نوسا ونوسانا : تحرك وتذبذب[2]، فالمعنى المركزي لهذا اللفظ، في أصله وحقيقته اللغوية، هو الحركة والاضطراب والذهاب جيئة ورواحا، وهو مناسب لحال الناس وحياتهم، فإن شأنهم الحركة والاضطراب فوق هذه الأرض، وربما اتسع معنى الاضطراب هنا ليشمل اختلاف أعمالهم، واضطراب مذاهبهم، وتذبذب مللهم ونحلهم، وقد بدا لبعض الباحثين أن ينظر في الفرق بين الناس والإنس، فجعل الإنسان يستعمل مقابلا للجن، واستدل باقترانهما بكثرة في القرآن الكريم، وجعل الناس عاما للجن والإنس معا[3]، ولا نظن أن هذا سديد، لأن الأولى هو التفريق بين الناس والبشر، وسيأتي بيانه :

فأما البشر، فإن أصله في اللغة من البشرة، أي ظاهر جلد الإنسان[4]، وسمي الإنس بشرا لظهور بشرتهم[5].

ولعل حقيقة اللفظين في اللغة أن تعيننا على تبين الفرق بينهما في استعمال القرآن الكريم، ذلك أن أخذ لفظ الناس من النوس، أو النوسان الدال على الحركة والاضطراب والتذبذب يدل على ارتباط لفظ الناس بسياق الحديث عن الاختلاف بينهم في الأعمال والأخلاق، والعقائد، وغير ذلك، كما أن أخذ البشر من البشرة وظاهر الجلد، دليل على استعمال اللفظ فيما يجمع بينهم، وهو ظهور جلودهم، فلم تكن مكسوة بالصوف أو الشعر، أو الريش، كالحيوانات والبهائم، وهو ما يتيح لنا أساسا قد نفرق به بين اللفظين،

---

[1] معجم مكرم وعمر، 162/1، ومعجم الخطيب، 290/1.

[2] لسان العرب، 14/ 382.

[3] انظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياس خضر الدوري، ص : 92.

[4] لسان العرب، 89/2.

[5] المفردات في غريب القرآن، ص : 47.

فنقول إن لفظ الناس إنما يستعمل في القرآن الكريم في السياق الذي يدل على الاختلاف والتفاوت، أو ما يحمل على ذلك، وإن لفظ البشر يستعمل في السياق الذي أريد فيه إلى معنى التسوية، واعتبار ما يجمع بين الناس، ولكثرة ورود اللفظين في القرآن الكريم آثرنا الاقتصار على ما نؤيد به ما ذهبنا إليه هنا، وترك استقصاء كل المواضع لمكان آخر بعيد عن هذا المقام :

<u>أوّلاً</u> : الناس، والحمل على الاختلاف :

- قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[1].

أي الناس على اختلاف شعوبهم وأممهم، ومحالهم وأوطانهم، وذلك أدل على عظمة هذا الفتح.

- وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[2].

فلو لم يكن اختلاف بين ما يأمر به الناس بعضهم بعضا لما صح للأمر هنا معنى، لأن الأمر بالبر يدخل في سياق الدعوة، ولا دعوة إلا للمخالف، فلا يدعى الموافق.

- وقال تعالى : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾[3].

---

[1] النصر : 1–2 .

[2] البقرة : 44 .

[3] البقرة : 164.

فالناس هنا في سياق الإنعام والإفضال، وهو ما يكون حسنه ظاهرا عند شموله الناس على اختلافهم، فالفضل الذي يعم المخالفين خير من الفضل الذي يخص الموافقين، يقول طرفة :

نحـــــن فـــــي المشـــــتاة نـــــدعو الجفلـــــى

لا تـــــــرى الآدب فينـــــــا ينتقـــــــر[1]

فهو يفتخر بأن إكرامهم الناس لا يتخيرون فيه، إنما يعمهم على اختلافهم، سادة وسوقة.

- ويقول تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾[2]، وذلك لأنه يكلم ناسا اختلفوا فيه واضطربوا، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[3]، والامتراء هو الاختلاف والخلاف.
- وقوله تعالى : ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[4]، معناه رغم اختلافهم بين من يستحق القتل ومن لا يستحق، يدل عليه قوله قبله : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[5]، أي، بغير ما يستوجب القتل من قتل أو فساد.

---

[1] ديوان طرفة، ص : 40.
[2] آل عمران : 46.
[3] مريم : 34.
[4] المائدة : 32.
[5] المائدة : 32.

وغيره، مما لا يحتمل المقام الإحاطة به، إنما نقتصر على خلاصته فنقول : إن التعبير بالناس يرتبط في لغة القرآن بما يحتمل الاختلاف والاضطراب والتفاوت.

ثانياً : البشر، والحمل على المماثلة :

- قال تعالى : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[1]، وهو ظاهر.
- وقال : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2]، وهو ظاهر.
- وقال : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[3]، وهو ظاهر.

وكل ما اقترن فيه لفظ البشر بلفظ المماثلة فهو ظاهر كذلك.

- وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾[4]، إخبار عن بدء الخليقة قبل الاختلاف، ودلالة على المماثلة بين البشر في أصل الخلق.
- وقوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[5] أي، مثل من تعرف هي من البشر.
- وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾[6]، هو إخبار عن الموت، ولا اختلاف فيه بين البشر.
- وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾[7]، أي بالكلام مع أيٍّ، تجعلهم في هذا الأمر سواء، فلا تخص بعضهم دون بعض.

---

[1] هود : 27.
[2] الكهف : 111.
[3] المؤمنون : 47.
[4] ص : 71.
[5] مريم : 17.
[6] الأنبياء : 34.
[7] مريم : 26.

وغيره، مما نلخص التعبير عنه بقولنا: إن التعبير بالبشر في لغة القرآن الكريم يرتبط بما يحتمل معنى التسوية والمماثلة.

وعلى هذا، فإن التأمل في الآية، محل البحث، في هذا المقام، ينتهي بنا إلى اضطلاع لفظ الناس بالمعنى الذي سيق الكلام له فيها، فإنه إخبار عما آل إليه حال الناس من الاختلاف من بعد إرسال الرسل، مبشرين ومنذرين، حتى إن لفظ الاختلاف تردد في الآية ثلاث مرات : (اختلفوا) و (اختلفوا) و (اختلفوا)، حتى لقد قدر العلماء الفعل المحذوف في هذه الآية فقالوا إن المعنى هو : (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)[1]، في حين لا يفي بهذا لفظ البشر، لعدم مناسبته لهذا الاختلاف من بعدما تبين أنه يصلح لمقام المماثلة والتسوية.

ولي أن أستدل لما ذهبت إليه من ارتباط لفظ الناس بمعنى الاختلاف بينهم في الملل والنحل والآراء والاعتقادات، وغيره، بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[2].

فإنه لا يستقيم أن يُظن أن الناس الأولين هم أنفسهم الناس الآخرين.

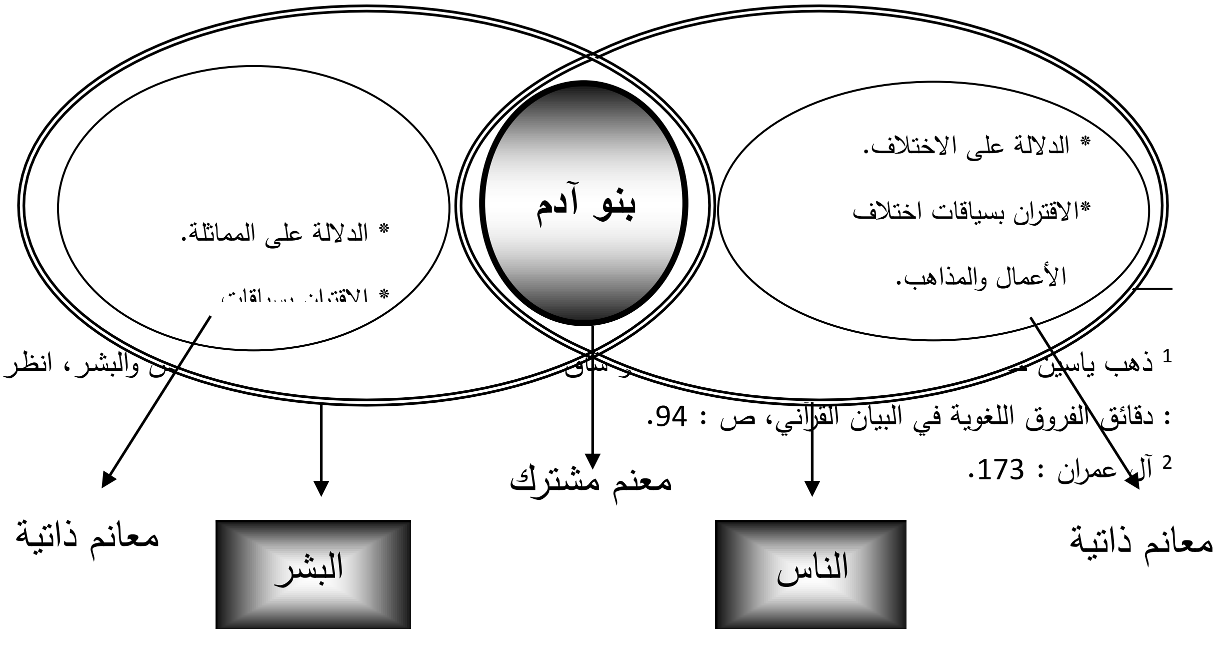

[1] ذهب ياسين [illegible] والبشر، انظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 94.

[2] آل عمران : 173.

ثانيا :

فروق المباني : أو الصيغ والأبنية .

الذي نراه يقع في درجة تلي الترادف في اقتراب المعاني، وتجاور الدلالات، ما يكون من قبيل التنويع البنائي، على مقتضى قواعد الصياغة في الصرف العربي، ذلك بأن يلاحظ في الأمر إبقاء على معنى مركزي، بموجب الإبقاء على الجذر اللغوي، ثم يكون في كل بناء صرفي مقتضى دلالي تأسيسا على أن التنويع في المبنى يجر إلى التنويع في المعنى لزاما، قال الدكتور فاضل صالح السامرائي : (ولاشك أنه لو لم يختلف المعنى لم تختلف الصيغة، إذ كل عدول من صيغة إلى أخرى لابد أن يصحبه عدول عن معنى إلا آخر)[1].

ثم إن من وجوه الاختلاف بين القراءات القرآنية أن يرد اللفظ المعجمي على بناء في قراءة، وتورده قراءة أخرى على بناء غيره، مما يحيل على وجوب التماس الفرق بين البناءين، ثم النظر في مستوى الأداء البلاغي الحاصل من توظيف كلا الصيغتين في السياق الواحد، ونسارع إلى القول بأن ما يصلح للدرس هنا يكون على أحد صورتين :

أولاهما : أن يكون البناءان الواردان في القراءتين من بابين صرفيين مختلفين، كأن يكون الأول من باب المصدر، ويكون الثاني من باب اسم الفاعل، وغير ذلك، كنحو ما في قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾[2]، بضم الحاء وتسكين السين، مصدرا من حَسُن الشيء يَحْسُن حُسناً.

وقراءة من قرأ : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حَسَناً ﴾[3] بفتح الحاء والسين، صفة مشبهة من الحسن، وما إلى ذلك.

---

[1] معاني الأبنية في العربية، ص : 06.

[2] البقرة : 83.

[3] معجم الخطيب، 139/1.

وثانيهما : أن يكون البناءان من باب صرفي واحد، كأن يردا مصدرين أو اسمي فاعل، أو غير ذلك.

وقد بدا لنا أن الوجه الثاني أدنى إلى ما ننظر فيه في هذا البحث من جهة دقة سبيل وجه التفريق بين البناءين، وخفاء سبيله، إذ هما يكونان من باب واحد، وذلك ما حملنا على الزعم بأنه آخذ بمعنى من معاني الترادف، فأبحنا لأنفسنا، من ثمّ، أن نجعله تاليا له في درجة تقارب المعاني وتجاورها، وقد بدا لنا، عملا بذلك، أن نطلب للدراسة مواضع من القرآن الكريم موزعة على معهود التبويب الصرفي على النحو التالي :

أولاً : المصَادِر :

أ. (فُعْلٌ) و (إِفْعَال) :

جاء لفظا القراءتين مصدرين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[1].

قرئ : (أن يصالحا بينهما إصلاحا)[2].

وتضعنا هذه القراءة بمحل وجوب النظر في المقتضى الدلالي للافتراق البنائي بين المصدرين : الصلح والإصلاح :

---

[1] النساء : 128.

[2] معجم مكرم وعمر، 168/2، ومعجم الخطيب، 169/2.

فأمّا الصُّلْح، فمصدر الثلاثي اللازم (صَلُحَ)، على وزن (فَعُلَ)، بفتح فضم، ومضارعه (يَصْلُح) على وزن (يفعُل)، بضم العين منه[1]، ومصدره (صُلْحٌ) على وزن (فُعْلٌ) بضم فائه وتسكين عينه.

وطبيعة هذا المبحث تلزمنا السعي وراء الإنتاج الدلالي، والمحصول المعنوي، ضمن المستوى الصرفي من خلال النظر في التنويعات المورفولوجية، والإمكانات الاشتقاقية، أو ما يمكن أن يدرج تحت اسم التشكيل الاشتقاقي والتوليد المعنوي[2].

وعلى ذلك نقول : إن الصُّلْح مصدر للفعل (صَلُحَ)، أو (صَلَح) بفتح الصاد واللام كالذي في قوله تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم ﴾[3]، وتلك قراءة الجمهور، وقرأ ابن أبي عبلة : (ومن صَلُح)[4].

وقد دفع بعض علماء اللغة في ضم اللام، ورأى أن الأثبت فتحها[5]، ولعل الأمر من باب التركب اللغوي الذي تحدث عنه ابن جني[6]، على أن الأهم هنا هو كون الفعل، بكلا وجهي ضبط العين فيه، إنما يأتي لازما أبدا[7].

وهذا البناء يمثل صورة من ثلاث صور لتفاعل مصوتين قصيرين، هما الفتحة والضمة، وهي : (فَ/ عُ / لَ)، وتتوزع قوة إنتاجها الدلالي على وجوه كثيرة، منها ما

---

[1] المقتضب، للمبرد، 71/1.

[2] انظر مثلا : البحث الدلالي في كتاب سيبويه، د. دلخوش جار الله حسين دزه يي، ص : 48.

[3] الرعد : 23.

[4] معجم الخطيب، 412/4، والكشّاف، 358/2، وبنية الكلمة العربية، جمال حسين أمين إبراهيم، ص : 127.

[5] انظر مثلا : جمهرة اللغة، لابن دريد، 381/1.

[6] الخصائص، 381/1.

[7] الممتع في التصريف، 180/1.

يكون حسنا أو قبحا، إذ هو مما يبنى فعله على (فَعُل) (يفْعُل)، نحو : قبُح يقبُح، ووسُم يوْسُم، وجَمُل وملُح[1].

ومنه صَلُح يصلُح الذي نبحث فيه، وهو مما يمكن إدراجه ضمن السجايا والطبائع والخصائص من بين مجموع الأطر الدلالية التي ترتبط بما يكون مصدره على (فُعْل)[2]، وقد عرض السامرائي لهذا البناء ممثلا له بهذا الفعل عينه، على أنه مما يدخل ضمن دلالة التحول في الصفات، وذلك مراد الحَكَمين حين يرميان إلى تحويل مابين الزوجين من صفة فساد إلى صفة صلاح .

وعلى هذا، يمكن توجيه القراءة إلى معنى إرادة الحكمين أو الزوجين، في الآية الكريمة، جعل الصلح سجية أو طبيعة، أو خاصية لهذا الزواج المعرض للشقاق، فيقتضي الأمر تعيين موصوف لهذه السجية أو الطبيعة أو الخاصية، ولنا أن نقول إنه حال الزوجين، أو حياتهما أو غير ذلك، مما يحتمله المقام، كأن يقال : (إن يُريدا صُلحا لحالهما أو لحياتهما)، إذ المراد هو أن يُرى حال الزوجين، أو زواجهما، يصلح صُلحا، على أن ثمة ما قد يغنينا عن تقدير الموصوف بالصلح إذا جعلناه صفة للزوجين نفسيهما، وذلك مما يؤخذ من كون الفعل لازما، أي وصفا للفاعل لا يتعداه ولا يجاوزه، فكأن المعنى على هذا هو : (إن يُريدا يَصْلُحا)، وهذا مراعًى فيه عود الضمير في (يريدا)، على الزوجين، ويتعين معه أن يلاحظ أنه عَوْد للضمير على الأبعد، فإن ذكر الأزواج في الآية سابق لذكر الحَكَمين، فيحصل منه اجتماع ضرورة تلبيس صفة الصلح بالزوجين، بموجب لزوم الفعل، واختيار مجانبة التقدير، مع عود الضمير على الأبعد،

---

[1] الكتاب، 28/4، وانظر : البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 73.

[2] انظر مثلا : أبنية المصدر في الشعر الجاهلي، د. وسمية عبد المحسن المنصور، ص : 184، وفقه اللغة، لعلي عبد الله وافي، ص : 222، ودروس التصريف، لمحمد محي الدين عبد الحميد، ص : 55.

وهو خلاف الأولى، على ما يوقف عليه في مقررات النحو[1]، وهو ما قد يقلل من أداء هذا الوجه من القراءة بما قد يرى فيه من التعارض بين مقتضى لزوم الفعل، من جهة، ومقتضى عود الضمير الذي يرى عوده على الحكمين أولى، من جهة أخرى.

وربما اعترض بعضهم على هذا بأن تصدير فعل الإرادة بالشرط دليل على إسناده للزوجين، لأنهما المالكان لأمرهما، إن شاءا اصطلحا، وإن شاءا افترقا، فيجاب عنه بأن الحكمين ممكنان من ترجيح أحد الأمرين كذلك، أخْذا بما يريانه أصلح للزوجين، وأما عن تعليق الإرادة بالإصلاح دون التفريق مع إمكان ترجيح التفريق، فلأن الإصلاح هنا لا يقصد به الجمع بينهما فحسب، وإنما قد يقصد به التفريق أيضا، إذا رأى الحكمان أنه الأصلح لحال الزوجين، قال أبو حيان : (والضمير في (إن يريدا) عائد على الحكمين إصلاحا أي بين الزوجين، والضمير في (بينهما) عائد على الحكمين، أي فيما بعثا فيه من تمام الإصلاح أو التفرقة، على حسب ما يظهر لهما)[2].

ثم إنه لو لم يكن أمر الزوجين مَوْكولا إلى الحكمين ما دعيا إلى النظر فيه، هذا عن قراءة (الصُّلح).

أما الإصلاح، فمصدر الفعل (أصْلَح) المزيد بهمزة في أوله، وذلك قياس مصدره[3]، والهمزة فيه لإفادة معنى التعدية، وهو أشهر معانيها[4]، ومجيء الفعل متعديا فيه ترجيح لإسناد إرادة الإصلاح للحكمين، فإنهما لا يريدانه لنفسيهما، وإنما يريدان إيقاعه بين الزوجين.

---

1 البحر المحيط، 26/1، والنهر الماد من البحر المحيط، 459/1.

2 النهر الماد من البحر المحيط، 459/1، والكشاف، 525/1.

3 في الصرف وتطبيقاته، د. محمود مطرجي، ص : 149.

4 البحر المحيط، 26/1، وأبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية، د. نجاة الكوفي، ص : 31.

ومن دلالات (أَفْعَل) وصول الحدث إلى المفعول، قال سيبويه : (وتقول غفلْت أي صرت غافلا، وأغْفلْت إذا أخبرتَ أنك تركت شيئا، ووصلت غفلتك إليه)[1]، وتُعلق الدكتورة نجاة الكوفي على كلام سيبويه بقولها : (ويتبين من النص أن المتكلم بالفعل المجرد إنما يخبر عن اتصاف الفاعل بالحدث، فإذا زاد الهمزة فقد دل على وصول الحدث إلى المفعول به، فقولنا (بصر الرجل) مثلا إخبار عن وجود بصره وصحته، لأنه قد يقال : بصر فهو بصير لمن غمض عينيه ولم ير شيئا، وذلك لصحة بصره، فإذا دخلت الهمزة أفادت وصول الرؤية إلى الشيء المرئي)[2].

وبمجيء المصدر على الصيغة الموجبة للتعدية في فعله تقع القراءة في المستوى البياني الأرفع من الأخرى لسلامتها من تدافع موجب اللزوم، ومقتضى عود الضمير، كما سبق ذكره، ويقال في الأخير إنه لو كان الإصلاح من (أصلح) التي بمعنى (صلح) أي من باب (فَعَلْتُ) و (أفعلتُ) والمعنى واحد، لخرجت الهمزة فيه عن معنى التعدية، ولدخلت في معان أخرى ترتبط بصيغة (أفعلَ)، ولكنها مدفوعة بسياق الآية موضوعها، فضلا عن عدم ورود (صلح) و (أصلح) بمعنى واحد في الكتب المفردة لهذا الباب من اللغة[3].

ومما يمكن أن يدرس ضمن فروق المصادر ما يلي :

---

[1] الكتاب، 61/4.

[2] أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، ص : 47.

[3] ينظر مثلا : فعلت وأفعلت، للزجاج، ص : 56، وفعلت وأفعلت، للسجستاني، ص : 91، وما جاء على فعلت وأفعلت والمعنى واحد، للجواليقي، ص : 50.

ب. (**فَعْل**) و (**فِعَال**) : يقول تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

قرئ: (ولولا دفعُ الله)[2].

وقد جاء عن الصرفيين أن (فَعْل) هو بناء قياسي لمصدر الأفعال الثلاثية المتعدية[3]، وفيه قال ابن مالك:

(فَعْلٌ) قياس مصدر المُعَدَّى مـن ذي ثلاثة (كـردَّ ردًّا)[4]

وعلى هذا يتعين تبين مفعول المصدر (دفع) في الآية الكريمة، وهو (الناس)، وذلك رعيا لقاعدة عمل المصدر عمل فعله.

وبناء هذا المصدر دال على أن الله، تبارك وتعالى، متفرد بالدفع، أي أنه يدفع ولا يدفع[5]، وإن يكن دفعه غير مباشر للناس، إنما بأن يدفع بعضهم ببعض، فيكون إسناده له، عز وجل، على معنى إيجاده بين الناس وجعله سنة بينهم، وعلى هذا، تم اختيار قراءة الدفع لدى بعضهم لتنزيهها لله، عز وجل، من أن يغالبه أحد من خلقه، وذلك لعدم إفادة بناء (الدفع) معنى المشاركة كما في (الدفاع) الذي هو مصدر (دافع)

---

[1] الحج : 40.

[2] معجم مكرم وعمر، 185/4، ومعجم الخطيب، 122/6.

[3] ينظر في هذا : كتاب سيبويه، 216/2، وشرح الأشموني، 304/2، وحاشية الصبان، 459/2، وشرح ابن عقيل، 115/2، وتصريف الأسماء، ص : 51، وتوضيح المقاصد والمسالك، 22/2.

[4] انظر : شرح ابن عقيل، 115/2.

[5] إيضاح الزبيدي، ص : 199، وانظر : أثر القراءات القرآنية في الفهم اللغوي، ص : 175.

الدال بناؤه على ذلك، فإن الألف فيه للمشاركة، كما هو معروف، واختار هذا جمع منهم أبو عبيدة[1]، والقرطبي[2]، وابن خالويه[3]، وغيرهم، وقد طلب هؤلاء، تقوية لمذهبهم، تأويلا لإسناد الدفع لله، تعالى، مع كونه واقعا بين الناس، فقال بعضهم إن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين[4]، وقد سبق الإلماع إلى هذا المعنى.

وأما قراءة (دفاع)، فهي مصدر للفعل دافع، وهو بناء يفيد المشاركة، قال سيبويه : (اعلم أنك إذا قلت : فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته)[5]، وقد فسرت المشاركة بأن يكون بين الفاعل والمفعول اقتسام للفعل، واشتراك معنوي في أداء الفعل[6]، وعلى هذا، فإن الدفاع اشتراك في الدفع، وهو كالجدال والقتال، والضراب والنقاش، وغير ذلك مما لا يقع إلا من اثنين.

ودلالة البناء على المشاركة هو ما أباه بعضهم، لاستحالة أن يشارك الله تعالى في فعله أحد من خلقه، كما سلف ذكره، وقد يجاب على هذا بأن المفاعلة إنما تكون بين الناس بأن يوجدها الله تعالى بينهم، وذلك معنى إسناد الدفاع إلى لفظ اسمه، تعالى، في الآية، كما سبق بيانه مع الدفع كذلك، وعلى هذا، يكون الدفع والدفاع مما يحصل كلاهما بين المخلوقين بأمر الله، تعالى، المفهوم من الإسناد إليه، لأن المخلوقين يأبى بعضهم

---

[1] إعراب القرآن، للنحاس، 328/1.

[2] جامع القرطبي، 169/3.

[3] وحجة ابن خالويه، 91/1.

[4] معاني النحاس، 255/1، وحجة ابن خالويه، 91/1.

[5] الكتاب، 68/4، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 151.

[6] أبنية الأفعال، ص : 45.

الدخول في بطش بعض، ويمتنع بعضهم عن غلبة بعض، وذلك من معاني الفعال في أبنية مصادر العربية[1]، وهو ما يسميه سيبويه معنى المباعدة[2].

ونخلص من هذا إلى أن لا اختلاف بين القراءتين في هذه الجهة، وأن قراءة الدفع ليست بالتي تظفر بمعنى تنزيه الله، تعالى، عن أن يغالبه خلق من خلقه دون قراءة الدفاع، إلا أن الفرق بينهما يكون في تأويل ما يقدر إسناد الدفع أو الدفاع إليه، فيقال في الدفع : إنه تعالى أقدر الناس على دفع بعضهم بعضا، ويقال في الدفاع : إنه تعالى أوجد التدافع بين الناس لحكمة يعلمها، وقد نعلمها عنه، عز وجل.

وينبغي أن يعلم أن هذا مبني على إغفال اعتبارين :

أولهما : إمكان أن يكون (الدفاع) مصدرا لـ (دفع) لا (دافع) ، كـ (الكتاب) مصدرا لـ (كتب) و (الجماح) مصدرا لـ (جمح).

ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد تسمية المحرمات من النساء : ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[3]، ومعلوم أن التحريم مما يقال فيه كتبه الله عليكم، لا كاتبه.

وقوله تعالى في الموت ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[4]، وهو مما يقال فيه كتبه الله على خلقه، أي فرضه، ولا يقال كاتبه، وغير ذلك.

وعليه، فإنه إن يكن الدفاع مصدرا لدفع لا دافع، رجعت به القراءتان إلى معنى واحد.

---

[1] معاني الأبنية في العربية، ص : 26.

[2] الكتاب، 217/2، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 80.

[3] النساء : 24 .

[4] آل عمران : 145.

وثانيهما : إمكان التسوية بين (دفع) و (دافع)، قال الأزهري : (المعنى في الدفاع والدفع واحد، يقال : دافع الله عنك السوء ودفع عنك السّوء)[1]، وهو ما عليه الفارسي في حجته، قال : (كأن معنى دفع ودافع سواء، ألا ترى أن قوله :

ولقـــد حرصـــت بـــأن أدافـــع عـــنهم

فـــإذا المنيّـــة أقبلـــت لا تُـــدفع

والتسوية بين الدفع والدفاع حاصلة من التسوية بين (دفع) و (دافع) ، وقد جاء عن أئمة اللغة أنهما يردان كذلك في بعض الحروف التي لا يتعين أن تحتمل الصيغة معها معنى المشاركة، إنما قد ترد لمعنى القيام بالفعل بشكل انفرادي[2]، قال الأزهري موجها قراءتي (يدفع) و (يدافع) من قوله تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾[3] : (من قرأ (يدافع)، فهو من دافع يدافع بمعنى (دفع)، وقد جاءت حروف على (فاعل) للواحد منها، قاتله الله وعافاه الله وعاهدت الله)[4].

ويمكن أن يعطف على الاعتبارين ثالث، مفاده إمكان أن تكون الألف في (دافع) إنما زيدت للمبالغة في الدفع[5]، ولعل هذا نظير ما يعنيه بعضهم بمعنى التكثير في

---

[1] معاني القراءات، ص : 83.

[2] انظر : الكتاب، 68/4، والبحث الدلالي، ص : 152، وأبنية الأفعال، ص : 54، وفقه اللغة وسر العربية، ص : 443.

[3] الحج : 38.

[4] معاني القراءات، ص : 333، وانظر : أثر القراءات القرآنية في الفهم اللغوي، ص : 177، وجامع القرطبي، 169/3، وإعراب النحاس، 328/1 .

[5] روح المعاني، 2 / 262، والكشاف، 15/3.

مثل (ضاعفته)، أي كثرت أضعافه، وناعمه الله بمعنى نعَّمه أي كثَّر نعمته[1]، ولعل ذلك يرى في دفاع الناس بعضهم بعضا، فإنه سُنَّة فيهم دائمة لا تزول.

وقد يكون هذا التوجيه الأخير أولى من سواه، لجعله قراءة الدفاع تظفر بالتعبير عن المعنى وحال يكون عليه، وهي الكثرة والمبالغة، وهو ما يؤيده، فيما نقدر، أمران :

أولهما : أن الأنسب لحال الناس كثرة الدفع لا الدفع فحسب.

وثانيهما : أن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، وهو من مقررات أئمة اللغة.

بل قد يبدو لنا أن نقول : إن الهدم الذي كان سيطال الصوامع والبيع، والصلوات والمساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرا، ما كان لينتفي لولا دفاع كثير بين الناس، فالأبلغ، على هذا، أن يعبر بالكثير في مقابل الكثير، لأجل أن تقابل المعاني بما يلائمها، وتواجه بما يشاكلها.

ثانيا : المشتقات :

---

[1] انظر : شرح شافية ابن الحاجب، 11/1، وأبنية الأفعال، ص : 54.

1- اسم الفاعل وما يُحوّل عنه :

أ. (مُفْتَعِل) و (مُتَفَاعِل) :

قال الله، تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

قرئ : (متشابها و غير متشابه)[2]، عدولا عن (مفتعِل) إلى (متفاعِل).

فالأول اسم فاعل من (افتعل)، والثاني اسم فاعل من (تفاعل)، و تكون صيغة (افتعل) للدلالة على معنى الاجتهاد و الطلب، و السعي و الاضطراب، والحرص في بلوغ الشيء و تحصيله[3] .

وقد يوقف على هذا في ما ذهب إليه سيبويه في تفريقه بين (كسب) و(اكتسب)، من قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[4]، إذ قال : (وأما كسب، فإنه يقول : أصاب، وأما اكتسب، فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب)[5].

وقد اجتهد بعضهم في جعل الكسب لما يكون خيرا، والاكتساب لما يكون شرا، استدلالا باستعمال الحرفين (اللاّم) و (على)، حملا على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ

---

[1] الأنعام : 99.

[2] معجم مكرم وعمر، 300/2، ومعجم الخطيب، 502/2.

[3] أبنية الأفعال، نجاة الكوفي، ص : 59.

[4] البقرة : 286.

[5] الكتاب، 74/4، وشرح كتاب سيبويه، للسيرافي، 452/4.

صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1]، وبقول العرب : " الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ".

وعللوا جعل الكسب للخير والاكتساب للشر، بأن النفس لا تجدّ لما فيه خير جدّها لما فيه شر، فهي للشر أكثر انجذابا واعتمالا[2]، وردّه بعضهم مستدلا بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾[3]، فقد جعل الكسب للخطيئة والإثم، وهما شر[4].

وأبت الدكتورة نجاة الكوفي إلا أن يظل الكسب للخير والاكتساب للشر، ورأت أن الكسب قد يدل على معنى الاكتساب إذا قصد في ذلك إلى معنى إلف ارتكاب الخطايا فلم يعد يتكلّفها[5].

ولكني ربما فهمت جواز أن يكون الافتعال لمطلق الاضطراب والحركة، في الخير كان أم في الشر، وأما (كسب) و (اكتسب) فلأجل أن الخير في النفس هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي المعروف الذي تعرفه نفوسهم[6]، وأما الشر فتجاوز من النفس لما فطرت عليه، وتعد لما تعرفه فطرتها إلى ما تنكره، والمنكر ما تنكره النفوس، والتجاوز والتعدي من معنى الاضطراب والجدّ في طلب ما ليس لها، كأنه يقول : لها ما فطرت عليه من حب الخير، وعليها ما كلّفت به نفسها بالتجاوز والتعدي، وذلك معنى :

---

1 فصلت : 46.

2 انظر : فتح الرحمان، ص : 50.

3 النساء : 112.

4 انظر : البحر المحيط، 367/2.

5 انظر : أبنية الأفعال، نجاة الكوفي، ص : 59.

6 الكشاف، 218/1.

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1]، وأما قوله : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً ﴾[2]، فإن ما ذهبت إليه نجاة الكوفي أشبه بالصواب لولا أن في الإمكان أن يقال إنه من باب الخروج باللفظ إلى ضد معناه، زيادة في التبكيت أو قصدا إلى التهكم، كأنه يقول : و من يكتسب خطيئة، وهو عند نفسه يكسب خيرا، إذ لا يأتي العاصي من المعاصي إلا وهو يرى فيها نفعا وصلاحا، و قد يكون مثله قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3]، والتبشير يكون في الخير، و في ما يسر النفس، وهو كثير في القرآن الكريم، ولعل منه قوله، تعالى : ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾[4]، وهو كذلك كثير في القرآن الكريم، والمأوى إنما يكون لما يعصم ويمنع، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[5]، وقوله : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾[6]، وبهذا يظل من غير البعيد أن يكون الافتعال لمعنى الاضطراب والحركة.

ولم نجد لعلماء المتشابه شيئا ذا بال في خصوص التفريق بين الاشتباه والتشابه، فذهب بعضهم إلى أن في الآية عدولا عن الاشتباه إلى التشابه، من باب ترك الأثقل إلى الأخف، أو لأجل التفنن في القول فحسب[7]، وهو مذهب يجعل البنائين سواء بما لا مقنع فيه.

---

[1] البقرة : 286.
[2] النساء : 112.
[3] لقمان : 07.
[4] آل عمران : 197.
[5] هود : 43.
[6] المعارج: 13.
[7] انظر مثلا : ملاك التأويل، للغرناطي، 466/1.

لكن منهم من جعل الاشتباه لما يرد ملتبسا مختلطا مشكلا،[1] و هو مذهب رضيّ، لكن تفسير ورود اللفظين، في آيتي سورة الأنعام، على مقتضاه لم يبد موفقا.

فهذا السامرائي يرى أنه لما كان الموضع الأول من السورة للتدبر والتأمل في خلق الله ونعمه، جاء التعبير بالاشتباه، لما فيه من الدقة الناجمة عن الالتباس والاختلاط، مما فيه مزيد دلالة على قدرة الخالق، إذ كلما دق الشيء و أشكل كلما دل على القدرة و البراعة، بخلاف التشابه في الآية الثانية، فإنه لأجل مناسبة ذكر المقابلات بين كل اثنين، و ذلك تشابه لا اشتباه[2]، و تبعه في هذا الدوري[3].

لكنا، و إن كنا نوافق على أن الموضع الأول للاعتبار، و أن الثاني للإنعام ، بدلالة قوله : (انظروا)، في الأول، و قوله : (كلوا) في الثاني، إلا أنه لا وجه لأن يقال : إن الأمور كلما اختلطت و التبست دلت على الإعجاز و براعة الخلق، إذ الأولى في آيات الله أن يقال بأنها ظاهرة جلية، لتكون أقوم بالحجة على من يأبى الإذعان لها والتسليم بها.

والأيسر منه أن يقال : إنه لما كان الموضع الأول للنظر والاعتبار اقتضى ذلك الحديث عما ترى عليه الأشياء من صور وأشكال وألوان، ومناظر وهيئات، فهو ذكر فلق الإصباح والليل، الشمس والقمر، والنجوم والماء، والسماء ونبات الأرض، والخضرة والحب المتراكب، والطلع والقنوان الدانية، وذلك كله مما يرى في شكله وصورته، ولونه و هيئته، حتى إذا جاء إلى جنات الأعناب والزيتون والرمان قال : (مشتبها)، ليدل بذلك على أنه يقصد إلى شجرها لا إلى ثمرها، بدليل قوله : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر)، ولم

---

[1] لسان العرب، 17/8.

[2] انظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص : 90.

[3] دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 273.

يقل : (كلوا) كما في الآية الأخرى، فالمعنى ، على هذا، هو أن أشجار العنب والزيتون والرمان مختلطة، مشتبكة متداخلة فروعها، وأغصانها، لكثرتها و وفرتها، دعوة للنظر في جمال التفافها، و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾[1]، ثم نفى التشابه عن طعومها، ليُري كيف لا يكون لها طعم واحد رغم التباسها وتداخلها، حتى لكأن الشجرتين المختلطتي الأغصان شجرة واحدة، لا يكاد يميّز فرع هذه عن هذه، قلت : رغم ذلك تختلف طعومها، وفيه إعجاز ظاهر باتحاد المنبت وافتراق الطعم، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] فيخلص المعنى، على هذا، إلى أنها أشجار كثيرة متنوعة، وبه يحصل كمال الإنعام والإفضال، ولهذا المعنى سيق الاعتبار، كأنه يقول: خذوا من ذلك ما تشتهون وعلى قدر ما تشاؤون.

وبعد، فإن قراءة : (متشابها وغير متشابه)، تفوت على المعنى كماله، وتذهب من التعبير دقته وإصابته الغرض المراد، وذلك بأن جعلت الواو للتقسيم وليس كذلك، إنما هي للجمع بين متغايرين هما الكثرة والتنوّع.

ب- (فَاعِل) و (فَعِل) :

---

[1] النبأ : 16.

[2] الرعد : 04.

معلوم أن بناء (فاعل) إنما هو لاسم الفاعل من الثلاثي، كـ (جالس) و (واقف) من (جلس) و (وقف) مثلا، وأن صيغة (فَعِلٌ) هي من مجموع الأبنية التي يعدل إليها قصدا إلى المبالغة والتكثير، حتى إن بعضهم عرف صيغ المبالغة بأنها: (ضرب من أسماء الفاعلين مما فيه معنى المبالغة والكثرة)[1].

ويشار إلى أن الفرق الدلالي بين اسم الفاعل وصيغ المبالغة في أن اسم الفاعل جامع لإرادة معنى الكثرة وعدمه، بخلافها، إذ لا تكون إلا للمبالغة[2].

ومما يمكن البحث فيه هنا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾[3].

قرئ : (وإنا لجميع حذرون)[4].

ولا شك في أن مدار بحثنا سيكون ضمن النظر في التفريق بين التعبير باسم الفاعل (حاذرون) تارة، وبالصيغة المحولة عنه للمبالغة (حذِرون) تارة أخرى.

فأما قراءة اسم الفاعل، فمبدأ الحديث فيها بما يستفاد من بناء اسم الفاعل، وهو الدلالة على الحدث والحدوث، أو على الذات الفاعلة ومعنى التجدد[5]، قال ابن مالك في

---

[1] انظر : شرح المفصل، 70/6، والمشتقات العاملة في الدرس النحوي، ص : 93.

[2] حاشية ياسين على الفاكهي، 148/2.

[3] الشعراء : 52-53-54-55-56.

[4] معجم مكرم وعمر، 313/4، ومعجم الخطيب، 421/6.

[5] المشتقات العاملة في الدرس النحوي، ص : 51، وحاشية الصبان، 293/2.

تعريفه : (وهو الاسم المشتق لمن فعل مقصودا به الحدوث)[1] ، وعلى ذلك، ففي اسم الفاعل أمور ثلاث هي : الحدث، صاحب الحدث، والحدوث.

واللفظ وارد ضمن قصة سيدنا موسى، عليه السلام، وهي من كلام فرعون لجنده في طلب موسى وأتباعه، وقد أسرى بهم ليلا هربا من بطش فرعون بهم، فيدل اسم الفاعل على اتصاف فرعون ومن معه بالحذر، والخوف، والاحتراز مما قد ينالهم من موسى وأخيه بعد إذ هما ساحران يريدان أن يخرجاهم من أرضهم بسحرهما[2]، وذلك اتصاف يرى فيه لزوم الحدوث، حتى إن الحذر سيكون منهم كالصفة اللازمة الثابتة لا تنفك عنهم بحال، وذلك مما يدل عليه (فاعل) بخلاف ما لو عبر بالفعل منه، فقال : وإنا سنحذر جميعا، أي أن دلالة (فاعل) ألزم في صاحبها من دلالة الفعل[3]، ومعناه ثبوت هذه الصفة في الموصوف بها، فلا تزول عنه، وإن لم تدل على معنى التجدد، وقد بدا لبعضهم أن يسوي بين معنى الثبوت ومعنى التجدد، ونراه غلطاً، وآية ذلك ما نراه في قول الجرجاني : (إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل، فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء، فإذا قلت : " زيد منطلق "، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد و يحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: " زيد طويل " و " عمرو قصير "، فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد و يحدث، بل توجبهما و تثبتهما فقط، و تقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا

---

[1] سبك المنظوم وفك المختوم، ص : 162.

[2] النهر الماد، 590/2.

[3] المشتقات العاملة، ص : 52.

تتعرض في قولك : " زيد منطلق " لأكثر من إثباته لزيد، و أما الفعل، فإنه يُقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت : " زيد هاهو ذا ينطلق "، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزء)[1].

وقد يرى هنا أن التعبير بالفعل المضارع أولى من اسم الفاعل من جهة دلالته على التجدد، كما فهم عن الجرجاني، واقتصار اسم الفاعل على الدلالة الزمنية العارضة، وقد قال الفرّاء : (الحاذر الذي يحذرك الآن)[2]، فيحسن التعبير بالفعل ليدل على دوام الحذر واستمراره بالتجدد، فهو بهذا أدل على المراد من اسم الفاعل، وربما يجاب على هذا بأن المراد هو بيان الصفة والحال التي يتعين أن يكون عليها كل واحد، أي: على كل واحد أن يلتزم صفة الحذر، ويفهم هذا من قوله (لَجميع) ، ومن هنا حسن التعبير باسم الفاعل ليدل على الصفة التي يراد إلزام كل الناس بها، إذ هو الأحرى بقطع السبيل على موسى إلى النجاة بجعل الناس أجمعين معنيين بكيده، على ما يرى فرعون، أي أنه حين قصد إلى تعميم الحذر اكتفى باسم الفاعل مع تنكيره ليدل به على الاتصاف بالفعل ابتداء، قال الجرجاني : (اعلم أنك إذا قلت: " زيد منطلق " كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداء)[3].

فكأني به يقول : إن الحذر واجب الجميع لمن يسأل: من المعني بالحذر ؟.

ثم إن الغرض هو الأمر، وإن جاء بصيغة الإخبار، أي: ليكن الحذر حالنا جميعا.

هذا من جهة، ويضعف من جهة أخرى أن يكون تجدد الحذر ودوامه من غرضه، لأن ذلك مما فيه تعظيم لأمر موسى ومن معه، وتهويل لشأنه، وهو مدفوع

---

[1] دلائل الإعجاز، ص : 138، وانظر : الإعجاز الصرفي في القران الكريم، ص : 75.
[2] معاني القراءات، للأزهري، ص : 363.
[3] دلائل الإعجاز، ص : 141.

بغرض التحقير، الذي يريده فرعون، وذلك يدل عليه قوله : (إن هؤلاء لشرذمة قليلون)، وبهذا يظهر التفوق الأدائي، والتميز البياني لإيثار اسم الفاعل على الفعل.

والذي حملنا على ابتداء الحديث بالفرق بين اسم الفاعل والفعل، هو التوطئة للانتقال إلى الفرق بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة، لأنها تدخل في غالب ما يثبت له من أحكام طالما كانت محولة عنه، معدولا عنه إليها، وعلى ذلك، فإن التعبير بها في قوله : (حذرون) يؤخذ منه الإخبار بتعميم الوصف بالحذر ضمن غرض الأمر بذلك، ثم القصد إلى المبالغة في ذلك أي التشديد عليه، إذ إن غالب صيغ المبالغة تدل على معنى اسم الفاعل مع المبالغة في المعنى، وتأكيده وتقويته[1]، بل إن بعضهم قد جعل كل عدول عن أصل إنما أريد به المبالغة[2]، ومعنى المبالغة في الحذر أن يرى الرجل حذرا على كل حال، أي لا يزول عنه ذلك، ولذلك قال الفراء: (كأن الحذر الذي لا تلقاه إلا حذرا)[3].

حتى لكأن الحذر يصير كالجبلة فيه، أي الطبع الذي لا يفارقه، قال الأزهري : (والعرب تقول للرجل الذي جبل حذرا : فلان حذر، وأما الحاذر، فهو الذي يحذر عند حادث يحدث)[4].

وهاهنا يرى وجه لمزية بيانية في قراءة المبالغة، ذلك لأن الحذر مع اسم الفاعل يكون وصفا ابتدائيا، كما سلف، ثم يكون تعميمه مع قوله (لَجميع)، لكن الالتزام بهذا الحذر، عند كل حال، مما يحتاج إلى لفظ تقوية، فحسن، من ثم، التعبير بصيغة

---

[1] المشتقات العاملة، ص : 104.

[2] انظر مثلا : فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب، لناصيف اليازجي، ص : 30.

[3] معاني القراءات، للأزهري، ص : 363. ومعاني الفراء، 280/2، والوصف المشتق، ص : 298.

[4] معاني القراءات، ص: 363، وانظر : همع الهوامع، 97/2، ومعاني الأبنية، ص : 102.

المبالغة، فحصل من ذلك أن جمعت القراءة بين إفادة الالتزام والتعميم، فكانت بذلك أدل على حرص فرعون على النيل من موسى، والكيد له، إذ تعبر بنية اللفظ على حثه قومه على الحرص والنشاط، والحركة الدائبة للإيقاع بموسى ومن تبعه من عباد الله، تعالى، وقد تقرر لدى أئمة اللغة أن الدلالة على الهيجان والاضطراب والحركة من جملة ما تدل عليه صيغة (فَعِلُ)[1].

جـ- (فَعْل) و (فَعِل) :

كما بحثنا في وجوه الافتراق البياني بين اسم الفاعل وما يحول عنه، نبحث أيضا في ما يكون من ذلك بين بنائين كلاهما محول عن اسم الفاعل، سعيا في الكشف عن أي صورتي العدول أولى بالمستوى البلاغي، والأداء البياني الأعلى، وهو بحث نراه وجيها، لأنه يتأسس على ما قرره بعض علماء اللغة من أن الترقي في العدول البنائي دليل على الترقي الدلالي، قال العسكري : (إذا كان العدول على المبالغة كلما كان أشد عدولا كان أشدُ مبالغة)[2].

وللغويين بحوث كثيرة بنوها على التفريق بين التحصيل القائم على فروق أبنية الباب الواحد، آخذين فيها بمبدأ الزيادة في المبنى الدالة على الزيادة في المعنى[3].

ونصطفي من أمثلة هذا المطلب ما جاء في قوله تعالى:

---

[1] انظر : كتاب سيبويه، 20/4، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 68، ومعاني الأبنية، ص : 102، والرضي على الشافية، 154/2.

[2] الفروق اللغوية، ص : 160، وينظر : الفخر الرازي، 142/30، والتفسير القيم، ص : 208، والكشاف، 178/4، والدر المصون، 465/6، والمحرر الوجيز، 427/5، وروح المعاني، 16/30.

[3] المنصف، لابن جني، 241/1، والوصف المشتق في القرآن الكريم، ص : 297.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1].

قرئ : (إن بيوتنا عَوِرة وما هي بعَوِرة)، على كسر الواو في كلا اللفظين[2].

والآية إخبار عن فريق من المنافقين دعاهم النبي ﷺ للقتال في غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب، فاعتذروا إليه بأن بيوتهم غير حصينة ولا منيعة على السراق، فإذاهم غادروها للقتال خافوا عليها، وهم في ذلك كاذبون، إنما مرادهم الفرار[3].

واستخدم هؤلاء المنافقون لتبرير الخوف على بيوتهم لفظ (عوْرة) بتسكين الواو.

وعَوْرة على وزن (فَعْلة) قد تحمل على أكثر من وجه، يعنينا هنا منها جواز أن تكون مصدرا منقولا عن اسم الفاعل، فعورة فيه بمعنى مُعْوِرة وعاوِرة[4].

فهو من باب نقل المصدر إلى الوصفية، وللنحاة في قاعدته شروط منها أن يشغل وظائف نحوية بعينها، كأن يقع خبرا[5]، و (عوْرة) في هذا الموضع خبر لـ (إن)، كما هو بيّن، وهو من باب الإخبار بالمصدر في العربية، ومثلوا له بشواهد كثيرة، منها قول الخنساء:

---

[1] الأحزاب : 13.

[2] معجم مكرم وعمر، 115/5، ومعجم الخطيب، 259/7.

[3] انظر : لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص: 47، أسباب النزول، للواحدي، ص : 93.

[4] انظر مثلا : الكتاب، 43/4، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي، ص : 534، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 52.

[5] انظر : استعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، أحمد محمد عبد الراضي، ص : 43.

ترتـــــع مـــــا رتعـــــت حتـــــى إذا ذكـــــرت

فإنمـــــا هـــــي إقبـــــال وإدبـــــار[1]

على أنهم رووا خلافا بين المدرستين في ذلك، فأجازه البصريون على حذف المضاف، فقالوا في: رجل عدْل، إنه على معنى : ذو عدل، وذلك لضرب من التوسع، ورأى الكوفيون تأويله بالمشتق، فيقال في : رجل عدْل، إنه على معنى : عادل[2].

فعلى مذهب البصريين يكون تأويل الآية : (إن بيوتنا ذات عَوْرة)، وعلى رأي الكوفيين يكون التأويل : (إن بيوتنا عاورة)[3] أو (مُعْوِرة) ، إنْ من الثلاثي، أو مما فوقه، فعلى الثلاثي يكون من عور يعور، عَوَرًا[4]، ثم على تسكين الواو في المصدر فيقال : عوْرا، ثم تزاد التاء فيه فيقال : عوْرة، ثم عاوِر، لاسم الفاعل منه، ثم يؤنث فيقال : عاورة، وعلى ما فوق الثلاثي يكون من أعور يعور فهو مُعْور وهي معورة، ثم كان عدول عن المصدر (عورة) إلى صيغة المبالغة (عورة)، ومنه يتبين أن البحث في وجه الافتراق إنما يكون بين إيثار الوصف بالمصدر تارة، وبصيغة المبالغة أخرى، ولا يكون بينهما وبين اسم الفاعل، لأنه لم يقرأ به، وإنما البحث فيما قرئ به.

أما قراءة (عوِرة) ، فالأداء البياني فيها يتوسل بهذا البناء (فعِل)، لبلوغ غرض المبالغة في معنى اختلال هذه البيوت، أي انكشافها للعدو أو للسراق، قال السجستاني في معنى هذه المادة : (عورة : أي معورة للسراق، يقال: أعورت بيوت القوم،

---

[1] انظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص : 95.

[2] انظر : الأشموني على الألفية، 64/3، واستعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، ص : 43.

[3] مشكل إعراب القرآن، للقيسي، ص : 534.

[4] معاني الزجاج، 167/4.

إذا ذهبوا عنها فأمكنت العدو ومن أرادها، وأعور الفارس إذا بدا منه موضع خلل للضرب والطعن، وعورة الثغر : المكان الذي يُخاف منه)[1].

وترتبط صيغة (فعل) بمجالات دلالية شتى، أهمها المبالغة في الاتصاف بالفعل أو الحدث[2]، فهم بذلك يرمون إلى التشديد على ما يعفيهم من القتال، إمعانا منهم في الكذب والنفاق والتلبيس، ويرى تشديدهم، زيادة على مدلول صيغة المبالغة، في تصدير العبارة بأداة التوكيد (إن)، على أن القرآن الكريم لم يكن ليترك زيفهم فكان تعقيبه تاليا له فقال : (وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا) ليريهم أن الله تعالى لا يخفى عليه نفاقهم، وإن أمعنوا فيه ودلسوا وزيفوا.

كما تستعمل (فعِل) في التعبير عما به داء أو بليّة[3]، وهم في ذلك أو في بعضه، إذ إن بيوتهم المعيبة بعدم التحصين تعد موصوفة بما هو من معنى الداء والبلية، وأولى بمن به شيء من ذلك بأن يعفى من القتال، فعلى ذلك، تتأهل هذه القراءة للظفر بالإعفاء استعمالا لإيحائية البنية الصرفية في ذلك.

أما التعبير بـ (عوْرة)، وإيثار الإخبار بالمصدر، فأداؤها لما تضمنه الوجه الأول يظهر على صورة أكثر قوة وجلاء، ذلك أن البيوت لم تعد معها موصوفة بالعور فحسب، إنما أضحت هي العورة عينها، ومنتهى الإبلاغ عن صفة الشيء اتحاده بما يتصف به على معنى الشيء الواحد، حتى لكأن ذلك الموصوف لم يكن شيئا غير ما وصف به، وقد شاع في مثل هذا المعنى تمثيلهم ببيت الخنساء :

ترتـــــع مـــــا رتعـــــت حتـــــى إذا ذكـــــرت

---

[1] غريب السجستاني، ص : 141.

[2] انظر : الكتاب، 110/1.

[3] الكتاب، 649/3.

فإنمـــــــــا هـــــــــي إقبـــــــــال وإدبـــــــــار

ويعلق الجرجاني على كلام الخنساء بقوله : (لم تُرد بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرهما)[1].

وتفترق الصيغتان في جهة حصول المصدرية على مزية الاتساع والتجوز الذي يرتبط بقيم بلاغية، وسمات أسلوبية، تعلو بالتعبير عن مستوى الاقتصار على أدوات الإبلاغ النمطية، كما أن الاتساع في الكلام من أبرز وسائل إظهار العناية بالمعنى والتفنن في خدمته[2].

ثالثا : الجموع :

أ- (فَعْلى) و (فُعَالى) :

والنظر في بُنى الجموع يتيح الوقوف على وجوه التفريق بين مستوياتها الأدائية ضمن الموقف التعبيري الواحد، ومن ذلك ما قد نراه في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ

[1] دلائل الإعجاز، ص : 226 وانظر : حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، د. سمير أحمد معلوف ص : 355 .
[2] انظر : التوسع في كتاب سيبويه، د . عادل هادي حمادي العبيدي، ص : 09.

تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

قرئ : (وإن يأتوكم أَسْرى)[2].

وكلا الصيغتين لجمع أسير، وهو معروف، وإن قيل إن (أُسَارى) جمع جمع، أي جمعٌ للأسرى[3].

فأما بناء (أَسْرى)، فعلى وزن (فَعْلى) ، وقد جاء عن أئمة العربية أنه يكون فيما يدل على العاهات والآفات والمكروهات، قال سيبويه : (قال الخليل : إنما قالوا مرضى وهلكى وموتى وجربى، وأشباه ذلك، لأن ذلك يبتلون به، وأدخلوا فيه، وهم له كارهون)[4].

والمعروف أن الأسر مما يدخل في ذلك، فهو مما تبتلى النفس به وتدخل فيه كرها، ولكن، هل إيثار القراءة لإحدى الصيغتين يفسره ارتفاع الفرق بينهما دلاليا؟ وعود الاختلاف بينهما إلى اختلاف لهجي ؟.

---

[1] البقرة : 83-84-85.

[2] معجم مكرم وعمر، 82/1، ومعجم الخطيب، 144/1.

[3] لسان العرب، 1 / 104، وزاد المسير، 1 / 111، ومعاني القراءات، ص : 54.

[4] الكتاب، 213/2، وينظر : شرح مفصل ابن يعيش، 15/5، ومعاني الأبنية، ص : 140، ومعاني الفراء، 215/2، وحجة ابن زنجلة، ص : 104.

وقد رأى بعضهم أن اختلاف لغات العرب يفسر وجود بُنًى مختلفة لجمع الشيء الواحد[1]، بل لعله أهم سبب في ذلك لديهم.

ويقال في الجواب : إنه لم يُرْوَ في كتب اللغة ما يقضي برجوع كلا البناءين إلى لغتين مختلفتين، فتعين وجوب البحث عن سبب المغايرة بينهما، ضمن التفسير الدلالي، وفي هذا الإطار، رأى بعضهم أن الأسرى هم الواقعون في أسر عدوهم دون تشديد وثاق، أو إضرار بتعذيب وإيلام، بخلاف الأسارى، فإنهم يزيدون على كونهم في يد العدو شدّ الوثاق[2]، ولعل ذلك إنما يرجع إلى قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى، ولعل الطبري وأبا السعود في تفسيرهما للأسارى بأنهم المأخوذون قهرا أو غلبة[3]، إنما يشيران إلى ما يفرق الأُسارى، بتضمنها معنى القهر والغلبة، ولعلنا نؤكد ذلك بأن الأسرى لا تُرى مما يعوزه التفسير، إذ الأسير معروف.

وهو ما نريد أن نؤسس عليه الإيمان بالكشف عن وجه الفرق الأدائي بين الصيغتين، وقد تقرر لدى الصرفيين أن العرب حين جمعوا (الأسير) على (الأُسارى) ، حملا له على جمع (فعلان) كسكران وسكارى، لأن بناء (فعلان) يدل على ما فيه حرارة الباطن والجوف، وكذا شأن الأسير، فإن باطنه في شغل شاغل بما آلت إليه حاله، ولعلنا أن نستجلي بوضوح أن الأسير تزيد حيرته وحرارة جوفه إذا زيد على أسره سومه سواء العذاب، وعلى هذا، قد ينتهي بنا التحليل إلى أن (الأسرى) تستعمل في المقام الذي يقصد فيه إلى إفادة حدث الأسر الذي هو ضد الحرية دون سواه، وتؤيده استعمالات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ

---

[1] انظر مثلا : كتاب سيبويه، 199/2، ومعاني الأبنية، ص : 114، ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 297، وحجة ابن زنجلة، ص : 104.

[2] انظر : زاد المسير، 111/1، والمزهر، 252/2، وكليات الكفوي، ص : 46.

[3] جامع البيان، 400/1، وإرشاد العقل السليم، 125/1.

﴿ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، فقال هنا (أسرى) لأنه، تعالى، يعاتب نبيه على الإسراع في أسر جند العدو قصدا إلى الفداء[2]، ومعلوم أن الأسير إنما يفدى طلبا لخلاصه مما قد يناله من الموت أو العذاب، فلما كان الأوفق عند الله، تعالى، أن لا يؤسروا، فضلا عن أن يعذبوا، حَسُن التعبير بالأسرى، لأنه اللفظ المعبر عن الأسر في عمومه إن بعذاب، وإن بغير عذاب، بل إنه لو قال هنا (أسارى) لأقر ما عنه ينهى، وهو الإثخان في الأرض، والإثخان الإمعان في القتل[3]، وأفاد الزجاج بأنه لم يعلم أحدا قرأ (أسارى) في هذا الموضع، ثم هو ينهى عن القراءة بها إلا بثبوت رواية صحيحة[4]، ولا يفوتنا القول بأنه استجازها، ولعله يريد أن ذلك كائن في العربية دون هذا الموضع من القرآن.

وفي الآية التالية، يرد قوله، تعالى، : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

ترد قراءة لأبي عمرو : (من الأسارى)[6]، وإن لم ترو له قراءة بذلك في الموضع السابق، فتخرج قراءة غير أبي عمرو على القصد إلى أن يكونوا أسْرى لا أسارى، أي واقعين في اليد، لا يتجاوز النبي ﷺ وأصحابه ذلك إلى تعذيب أو قتل، فلما لم يرد إلى ذلك اكتفى بالأسرى، ولم يجاوز ذلك إلى الأسارى، فطابق اللفظ مقتضى القصد والمراد.

---

[1] الأنفال : 67.

[2] انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن ناصر السعدي، ص : 306.

[3] انظر : غريب السجستاني، ص : 227.

[4] معاني الزجاج، 344/2.

[5] الأنفال : 70.

[6] انظر : حجة ابن زنجلة ، ص : 314.

وتخرج قراءة أبي عمرو على إرادة مطابقة اللفظ للحال التي عليها أسرى المشركين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه، أو التي يوشك أن يكونوا عليها من الشدة والعنف، فقد كان من رأي بعض أصحاب النبي ﷺ ضرب أعناقهم[1]، فكأن المعنى مع هذا (يأيها النبي قل لمن في أيديكم ممن تريدونهم أُسَارى) ، والله أعلم، وها هنا سمة بيانية ترى في ما يمكن أن نعده مجازا مرسلا باعتبار علاقة ما سيكون بين لفظي أسرى وأسارى، تأسيسا على ما سلف من أن الأسير إذا هو اليد فهو من الأسرى، وإذا يكون صائرا إلى قتل فهو من الأسارى.

وقد بدا لنا من بعد ذلك، ما قد يدل على تفوق قراءة (الأسارى) في الآية التي ندرسها أدائيا، وتميزها بيانيا، ذلك في النظر إلى موضوعها الإجمالي الذي هو فضح لخبث بني إسرائيل وكشف لمكرهم، في نقضهم لعهد الله وميثاقه، وأخذهم من وحي الله بما تشتهي أنفسهم وتنزع أهواؤهم، فهم أمروا بعبادة الله، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى، واليتامى والمساكين، وقول الحسن للناس، وأمروا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكنهم تركوا ما أمروا به، وهم بعد ذلك نهوا عن سفك الدماء وعن إخراج بعضهم من ديارهم بالتحالف مع عدوهم ضد إخوانهم ظلما وعدوانا، ولكنهم أقدموا على فعل ما نهوا عنه، فلا هم ائتمروا ولا هم انتهوا، ويرد الأسر ضمن ما نهوا عنه، أي تاليا لسفك الدم والإخراج من الديار، ولما كان ذلك تعنيفا وإيلاما حسن معه التعبير بالأسارى لا الأسرى فيخلص التفريق إلى تخصيص الأسرى بسياق بيان الحكم الشرعي في اتخاذ الأسرى، وتخصيص الأسارى بسياق الغلبة والقهر.

ب. (فِعال) و (فُعَّال) :

---

[1] انظر في قصة نزول الآيات : أسباب النزول، للواحدي، ص : 137، وتيسير الكريم المنان، ص : 306.

من هذين البنائين ما نراه في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

قرئ : (فرُجَّالا)، بضم الراء وتشديد الجيم المفتوحة[2].

وكلا البناءين جمع لراجل أي الساعي على رجليه.

وفي الآية الكريمة حث على المحافظة على الصلاة بأدائها لوقتها، وخص منها العصر على المشهور في ذلك، وتبلغ عناية الشارع الحكيم بإقامة الصلاة إلى الحث على أدائها، وإن في حال خوف من عدو أو سبع، أو غير ذلك، بأن تؤدى مشيا على الأقدام إذا كان في الاشتغال بإقامتها على وجهها المعروف تعريض للنفس لسطو عدو أو سبع، كما سلف، وذلك معنى قوله : ﴿ فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾، فيصلي الخائف ماشيا، ويصلي راكبا، على نحو ما هو مبين في كتب الفقه.

ولقد وقفنا في كتب اللغة على جعل بعض العلماء بناء الفعال، مما يكون جمعا للصفات لا الأسماء، مرتبطا بالدلالة على ما فيه امتلاء أو خواء وخلو، وذلك ما رأيناه لسيبويه مثلا، وقد مثل له بالعطاش والسغاب والغراث[3]، وغيرها، على أنه صرح بأنه أمر لا يطّرد.

---

[1] البقرة : 238–239.

[2] معجم مكرم وعمر، 186/1، ومعجم الخطيب، 338/1.

[3] الكتاب، 22/4، 23، وانظر : البحث الدلالي في كتاب سيبويه، د. دلخوش جار الله حسين دزه يي، ص : 81.

وأما (الفعلاء)، فإنه يرد في العربية جمعا لـ (فعيل)، وصفا لذكر عاقل، بمعنى فاعل أو مُفعل، أو مُفاعل، ككريم وكرماء، ولما دلّ على سجية مدح أو ذم من فُعال بالضم، أو فاعل كشجاع وشجعاء وصالح وصلحاء[1].

وإن بدا للدكتور فاضل صالح السامرائي أن يقرن بين هذا البناء، وما يدل عليه، بمقابلته ببناء الفُعلاء، وذلك على هذا النحو :

رأى السامرائي إمكان الرجوع بالفعلاء إلى سياق الأمور المعنوية، وبالفعال إلى المادية، ومثل لذلك بأن جعل الوصف بـ (الثقلاء) لمن فيهم ثقل الروح، وبـ (الثقال) للثقل المادي، فإنه تعالى قال : ﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[2]، وقال : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾[3]، وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾[4]، فذلك جميعه ثقل مادي.

ولما كان كبر المقدم في قومه معنويا، جمع المقدمون و السادة على (كبراء)، فقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾[5]، وترك بناء (الكبار) للكبر المادي، أي للأجسام والأبدان.

وعلى هذا الأساس، مضى السامرائي إلى التفريق بين الضعاف والضعفاء مستدلا بأنه لما كان ضعف العوام والأتباع ضعفا معنويا، أي ضعف المنزلة والمكانة، جاء التعبير بالضعفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم

---

[1] انظر : معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ص : 144.

[2] التوبة : 41.

[3] الرعد : 12.

[4] الأعراف : 57.

[5] الأحزاب : 67.

مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وفي قوله : ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ﴾[2]، وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ﴾[3]، وهذا كله، عند السامرائي، من قبيل الضعف المعنوي.

ولكنا قد نقول له : إنه، إن ساغ رد الضعف في آيتي (إبراهيم) و (غافر) إلى الضعف المعنوي، أي على معنى صغر المكانة، وقلة الوجاهة، فإنه قد لا يسوغ مع آية (التوبة)، لأن الضعف فيها غير محمول على شيء من ذلك، فإنه لا قائل بإعفاء غير السادة و الوجهاء عن القتال، أما هؤلاء فإنهم قوم ضعفت أبدانهم عن القتال فاستعفوا، وضعف الأبدان بالهرم أو الزمانة مادي مرئي محسوس، فإن يشأ السامرائي رده إلى الضعف المعنوي، فبغير قليل من التعسف و التكلف.

وقد بلغ حرصه على تعميم تفسيره – عسفًا – أن جعل تعبيره في قوله : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً ﴾[4] مراعاة لضعفهم المادي، أي فقرهم واحتياجهم إلى المال، إذ الآية في سياق المواريث والتركات، وأما قوله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾[5]، فهو، حسب السامرائي، أوثر فيه (الضعفاء) لأن

---

[1] إبراهيم : 21.

[2] غافر : 47.

[3] التوبة : 91.

[4] النساء : 09.

[5] البقرة : 266.

الضعف فيه معنوي، يكون تفسيره حاجتهم إلى من يقوم على أمرهم بعد موت أبيهم، وليسوا هم فقراء كأولئك، لأن لهم جنات من نخيل وأعناب وأنهارًا وثمارًا، وضعف الكفالة معنوي، وضعف الحاجة والفقر مادي، هذا ما يراه السامرائي.

وفي وسعنا الرجوع بالبناءين، في الآيتين، إلى الضد مما رأى هو، ذلك أن ذرية (النساء) أحسن حالا من ذرية (البقرة)، إذ إن لأولئك ميراثا هو، تبارك وتعالى، يأمر الأوصياء بمراعاته، وبأن يخافوه، عز وجل، ويخشوه فلا يصرفوه عن مستحقيه.

وأما ذرية، (البقرة) فهم أسوأ حالا منهم، على خلاف ما حسب السامرائي، إذ فاته أن جنة هؤلاء، وثمارهم، وجميع مالهم، قد ضاع، وهلك، بأن أصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وليس يكمل تحصيل المراد من الآية إلا بأن يصل القارئ بالجنة إلى الاحتراق والزوال، فهي مثل لمن يبطل صدقته بالمن والأذى، فلا انتفاع لذي المن بصدقته، كما لا انتفاع لصاحب الجنة بجنته بعد احتراقها، ويؤيده أنه لا وقف في الآية بين قول القارئ : (أيود) إلى قوله : (فاحترقت).

ففي تفسير السامرائي تجنٍّ كبير على الآية، إذ انتزع منها ما بدا له مؤيدا لتفسير أعده في ذهنه سلفا، ثم رام حمل الآية عليه، وهو منهج مقلوب في دراسة النص القرآني، لقيامه على السعي في حماية تفسيره بتسخير الآية لذلك، وهو أحد الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم.

ولقد بان لنا، في سياق الكشف عن التفريق بين استعمال بناء (فعال) ، واستعمال بناء (فعلاء) في صيغ جموع التكسير، لما يكون صفة لا اسما، أن الأولى في ذلك هو استقصاء المواضع الوارد فيها استعمال البناءين في كل القرآن الكريم عسى

أن يسعفنا ذلك بتفريق بينهما لا عسف فيه، ولا تكلف، ولا غمط للأساس التداولي معه، وكان أن انتهى بنا ذلك إلى ما نسعى في بيانه هنا:

إن (الفعال)، جمعا للوصف لا الاسم، إنما يرد في القرآن الكريم في سياق التقابل الضدّي، ويخرج (الفعلاء) عن ذلك، إلا إذا استغني به عن الفعال، وتفصيل ذلك على هذا النحو يكون :

I. التصريح بلفظي التقابل الضدي :

وله صورتان :

الصورة الأولى : مجيء المقابل الضدي موافقا مبنى : وجاء منه :

1- قوله تعالى : ﴿انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾[1].

2- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾[2].

الصورة الثانية : مجيء المقابل الضدي مخالفا مبنى : وجاء منه :

1- قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾[3].

2- وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ﴾[4] .

---

[1] التوبة : 41.

[2] يوسف : 43.

[3] النساء : 103.

[4] آل عمران : 191.

3- وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾[1].

II- التصريح بأحد لفظي التقابل الضدي وتضمين الآخر :

وذلك بأن يُتصيد من المعنى باعتماد قرينة لفظية أو معنوية، وجاء منه :

1- قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾[2] ويؤخذ مقابله الضدي من قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[3] فالأول شدة، والثاني رخاء وسعة.

2- وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾[4]، ويؤخذ مقابله الضدي من قوله تعالى بعده : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾[5] فالأول رحمة، والثاني عذاب.

3- قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾[6] ، ويؤخذ مقابله من المعنى الذي سيق اللفظ له، أي : إنهم غلاظ شداد، لا كما تحسبونهم، بكفركم واستهزائكم، ضعافًا تقوون على ضربهم وأذاهم ودفعهم، بزعمكم، في ما نزل من سورة المدثر، إذ جعلتم عدة الزبانية التسعة عشر موضع تهكم وسخرية بينكم[7].

---

[1] البقرة : 239.

[2] يوسف : 48.

[3] يوسف : 49.

[4] الرعد : 12.

[5] الرعد : 13.

[6] التحريم : 06.

[7] انظر : الكشاف، 128/4، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 193/5.

4- وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾[1]، فإن مقابله الضدي في قوله : (عطلت)، لأن معناه : لم تعد عشارًا، فآلت إلى الضّد، فإنها بعد أن كانت كريمة عليهم أُرخصت بالترك، والتخلي بالتعطيل[2].

5- وقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾[3]، لأن معناه : راكبون.

6- وقوله تعالى : ﴿ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾[4]، مقابله الضدي موقوف عليه في مقابلة وصف الملائكة بالكرم، وهو الحفظ، بغرور الإنسان، وهو كفره بفضل الله عليه، بعد إذ خلقه وسواه وعدله، فحال الملائكة حفظ، وحال الكفار جحود.

7- وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾[5]، فمقابله الضدي يوقف عليه بالنظر في حال الأرض، فإن شدة السماء معناها إحكامها وقوتها، فلا ينقص منها مر الدهور والأزمان[6]، وأما الأرض فإنها بخلافها معرضة للنقص، وذلك في قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[7]، فإن يكن هذا التقابل مدفوعا بكون طرفيه في سياقين متباعدين، إذ الأول في سورة (النبأ)، والثاني في سورة (الأنبياء)، فلنا أن نقابله بقوله تعالى قبله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً

---

[1] التكوير : 04.

[2] انظر : غريب اليزيدي، ص : 415، وغريب ابن الهائم، ص : 337، وغريب ابن الجوزي، ص : 416، وترجمان اليماني، ص : 402.

[3] الحج : 27.

[4] الانفطار : 11.

[5] النبأ : 12.

[6] نظر: الكشاف، 207/4، والنهر الماد، 1209/3.

[7] الأنبياء : 44.

﴾[1]، فإن شدة السماء يقابلها جعل الأرض مهادا، أي ذلولا، و يؤيده قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ﴾[2].

8- وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾[3].

فقوله : (ألسنة حداد) دال على شعورهم بالقوة والشدة، وهو ضد قوله : (ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت)، فقابل بين ضعفهم إذا جاء الخوف، وبأسهم إذا ذهب الخوف.

ولنا أن نمضي بعد ذلك في طلب الفرق بين (ضعاف) و (ضعفاء) ، فنقول : إن قوله تعالى من سورة النساء : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾، فإن مقابله الضدي يُتصيد من سياق الآية الدلالي، وهو سياق بيان الأنصبة والفرائض والتركات، وهو سياق ضدي، لقيامه على فرز ذي النصيب عمن لا نصيب له، وهذا هو التقابل الضدي الذي أدرجنا الآية فيه، أي: فليتق الأوصياء الله في هؤلاء الأيتام، وليقولوا قولا سديدا يحفظ عليهم مالهم، فيجعلهم من ذوي الحق

---

[1] النبأ : 06.

[2] الملك : 15.

[3] الأحزاب : 18-19.

والنصيب، ويخرجهم عمن لا حق له ولا نصيب، فإن حكمة هذا التشريع هي إخراج الضعيف إلى حال القوة والغنى.

وأما قوله، تعالى، من سورة البقرة : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾[1]، فإنه أوثر فيه التعبير بالضعفاء لخروجه عن سياق التقابل الضدي، على ما قدمنا بيانه.

على أن الذي ينبغي علينا التنبيه إليه هو مجيء بناء (الفعلاء) في سياق التقابل الضدي مشروطا بأن يكون مما استغني به عن الفعال، وذلك في موضع واحد، هو قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2]، فإنه ما جيء فيه بـ (الرحماء) إلا لما استغني به عن (الرحام)، والله، تعالى، أعلم.

وبعد، فهذا مجمل ما في القرآن الكريم مما جمع من الصفات على بناء فعال، قد انتهى بنا النظر في وجوه استعماله في جميع مواضعه، من القرآن الكريم، إلى ما نلخصه فيما يلي :

يدخل كل (فعال)، في لغة القرآن الكريم، مما يرد جمعا لوصف لا اسم، ضمن سياق التقابل الضدي، ويخرج (الفعلاء) عن ذلك، إلا ما استغني به عن الفعال.

---

[1] البقرة : 226.

[2] الفتح : 29.

وتأسيسا على ذلك كله نمضي، بقليل من التمعن، إلى اعتبار قراءة الجمهور أولى بهذا السياق من قراءة معنى التكثير الحاصلة من ضم الرّاء وتشديد الجيم، فقد قيل إن هذا البناء صالح لإفادة معنى الكثرة.

الفصل الثاني:

الفروق الأدائية في وجوه ما خالف المعنى

أولا:

مخالفة المعنى مع التقارب الصوت

1. بوضع صوت موضع صوت :

نحب، قبل بدء القول في ما يكون من القراءات من هذا المبحث، أن نقدم بين يديه بما يوطئ لفهمه، فنقول : إنه تكون القراءة بوجه ثم يرد في قراءة أخرى لفظ تخرج علاقته عن لفظ السابقة عن الترادف والتضاد، فلا تكاد تقوم بين معنييهما صلة لكن بينهما تقاربا بنائيا فونولوجيا ومورفولوجيا، وربما بلغ التقارب بينهما حد التطابق المورفولوجي التام، والتطابق الفونولوجي شبه التام، أي بالاختلاف في صوت واحد، وقد يكون الاختلاف حركيا، أي ملتزما حد الحركة فحسب.

ونسارع إلى القول: إنه ما يدخل في تقارب لفظي القراءتين صوتيا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[1].

قرئ : (حضب جهنم)[2] في وجه، وقرئ : (حطب جهنم) [3] في آخر.

فأما الحطب فمعروف، والمراد أن الكفار والمنافقين والمشركين يكونون مع ما يعبدون من دون الله وقودا لنار جهنم، وقد جاءت بهذا المعنى آيات أخرى، منها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[5].

---

[1] الأنبياء : 98.

[2] الكشاف، 584/2، وغريب اليماني، ص : 236.

[3] الكشاف، 584/2، وغريب اليماني، ص : 236.

[4] التحريم : 06.

[5] البقرة : 24.

وذلك لأن الحطب هو ما توقد النار به[1]، واللفظ صالح لتأدية المعنى لولا ما يفضله به التعبير بالحصب، ذلك أن النار تحتاج في إضرامها إلى الحطب فكأنها لا تكون بدونه، وهذا المعنى مدفوع عن نار جهنم لعدم احتياجها إلى غير أمر الله تعالى، فإن قيل إن الله يضرمها بمن يستحقها من الكفار، قيل : ذلك يدل على عدم وجودها قبل ورودهم عليها، وهو غير صحيح، فلعل هذا هو ما نأى بالآية عن التعبير بالحطب إذ هو مدفوع بتعين سبق إحضار الحطب على حصول النار مما لا يليق بنار جهنم التي أعدها الله تعالى بما لا حاجة معه إلى سبق إعداد.

والكلام نفسه يقال عن قراءة (الحضب) المنقوطة، إذ غاية ما قيل فيه أنه الحطب بلغة أهل اليمن[2]، أو : هو كل ما ألقي في النار من حطب وغيره، يهيجها به[3].

إلا أن يقال : إن ما يكون حضبا أسرع استجابة للإضرام بما في الضاد من لين موح بشيء من الهشاشة والضعف، مما يكون حطبا فإن تصلب اللسان مع حرف الطاء يوحي بمناعة عن الاحتراق، وهو ما لا يجري مع غرض الآية، ولنا في هذا دليل آخر على تجافي لفظ الحطب عن هذا المقام من التعبير، ولو صح أن في حطب نار الدنيا شيئا من الصلابة إلا أن تشبيه الكفار به مع نار جهنم يضعف من جهة نقله صفة الصلابة إليهم، وهم ليسوا على شيء من ذلك ألبته، إذ لا يتصور أن يكون لمخلوق أدنى قدر من القوة مع نار جهنم، ثم إنه لا يتصور ذلك مع أشد ما في الدنيا صلابة ومتانة فضلا عن أجسام المخلوقين من البشر.

---

[1] انظر : معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 329/3.

[2] معاني القرآن، للفراء، 212/2.

[3] لسان العرب، 147/4، وغريب السجستاني، ص : 77، وغريب اليزيدي، ص : 256، وغريب ابن الهائم، ص : 35.

وأما (الحصب)، فهو الحجارة والحصى، ويقال : حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء أي الحصى، وتحاصبوا : تراموا بالحصباء...، والحاصب : ريح شديدة تحمل التراب والحصباء[1]، وفي التنزيل قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[2]، أي عذابا يرميهم بالحجارة، أي يحصبهم بها[3]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾[4].

- وقوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾[6].

ومدار دلالة اللفظ على ما يرمى في النار من حصى ليزيد به ضرامها، ولذا قيل في الحصب : هو كل ما ألقيته في نار فقد حصبتها به من حطب أو غيره[7].

والقراءة تجعل من أجسام الكفار والمشركين مما تحصب به النار أي يلقى فيها، قال الرازي : (المراد يقذفون في نار جهنم، فشبههم بالحصباء التي يرمى بها الشيء،

---

[1] لسان العرب، 137/4.
[2] الملك : 17.
[3] معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، 156/5، وغريب السجستاني، ص : 76.
[4] الإسراء : 68.
[5] العنكبوت : 40.
[6] القمر : 34.
[7] غريب السجستاني، ص : 77، وغريب اليزيدي، ص :256، وغريب ابن الهائم، ص : 234، وغريب ابن الجوزي، ص : 239، والنهر الماد، 479/2.

فلما رمى بها كرمي الحصباء جعلهم حصب جهنم تشبيها)[1]، فهو من باب التشبيه، كما عن الرازي، أو أنه، على ما ذهب إليه الألوسي، من أن الحصب خاص وضعا عام استعمالا[2].

وذلك يحصل بأن يكون ضرامها سابقا لما تحصب به، وبه يكون الغرض إحراقهم لا زيادة إيقادها لأنها في غنى عن ذلك كما سلف، فاللفظ بهذا أوفى بغرض الترهيب من جهة تعلقه بإحراقهم وما يعبدون، إذ المراد إفهامهم أنهم لا ينجون ولا ما يحسبونه آلهة بناج كذلك، فضلا عن أن يدفعوا عنهم العذاب، وذلك هو غرض التوبيخ والتبكيت على عبادة غير الله تعالى[3].

وربما دل كذلك على مناسبة لفظ الحصب لمقام الآية أنه بدلالته على الرمي في النار أوفق للتعبير عن حصولهم فيها، من بعد ضرامها، ويدل عليه قوله تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي داخلون[4]، ولا دخول إلا فيما أعد سلفا للدخول فيه.

ولعل مما يزيد أداء هذا اللفظ توفيقا مجيء الصفيرية التي في الصاد موحية بسرعة الصوت المناسبة لغرض سرعة احتراقهم بنار جهنم، حتى إن فيه تصويرا للكفار وهم يلقون في النار فتتلقفهم ألسنة لهيبها، فتلقي الصورة في الروع رهبة وخشية، يقول محمد قطب عبد العال : (إن الألفاظ القرآنية تأتلف مع أصوات الحروف وتتسق معها في الأداء الموسيقي مما يجعلها تشيع قدرا من التأثير الوجداني الواضح في النفوس،

---

[1] مفاتيح الغيب، 224/22.

[2] روح المعاني، 96/17.

[3] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، د. محمود محمد الطناحي، 368/1.

[4] النهر الماد، 479/2، وغريب ابن الجوزي، ص : 239.

وربما كانت حركة المفردة فيها ثقل وتراكم صوتي شديد مما ينفر من استخدامها لغويا، ولكنها إذا وردت في القرآن اتخذت السمت البلاغي المعجز وتناسقت مع الأداء التعبيري الكلي وحملت المعنى والدلالة حملا جماليا مؤثرا)[1].

ونحب في الأخير أن نشير إلى أن من اللغويين والمفسرين من جعل الحصب مرادفا للحطب، ففسره به، فالأولى أن يقال : إنه مما يوهم بالترادف لحصول الفرق بينهما بما ذكرنا من التوفيق الاستعمالي السياقي في الحصب دون الحطب والحضب[2].

---

[1] من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص : 25.

[2] انظر : الترادف في القرآن الكريم، محمد نور الدين المنجد، ص : 239.

ومما قرئ به مختلفا معجميا مع تقارب صوتي، ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[1].

فقد قرئ: بدم كدب[2]؛ أي بدال غير معجمة.

فأما القراءة الأولى فمن الكذب، وهو معروف، أي ضد الصدق، وقد استعمل فيها التعبير بالمصدر من باب استعمال الصيغة في الدلالة على معنى صيغة أخرى، وهي هنا صيغة اسم المفعول أي : دم مكذوب[3]، وهو ما يعبر عنه بالنقل، وهو نوع من تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد[4]، والآية الكريمة شاهد من شواهد النعت بالمصدر الذي قال عنه ابن مالك :

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا[5]

وقد جاء أن بلاغة التعبير بالمصدر، نعتا لمنعوت، ترى في التوسع في استعماله، ومعلوم أيضا أن التوسع، أو الاتساع، يرتبط بمقاصد بلاغية كثيرة تدرك من سياق التعبير[6]، وعلى هذا، يمكن الحكم بأن قوله : بدم كذب أبلغ من قوله دم مكذوب، من جهة جعل تلبيس إخوة يوسف على أبيهم غير موصوف بالكذب، فحسب، بل هو الكذب كله، أو هو الكذب مطلقا من أن يتقيد بالدلالة على زمن بعينه، ففي اللفظ بهذا مزيد

---

[1] يوسف : 18.

[2] معجم مكرم وعمر، 156/3، ومعجم الخطيب، 207/4.

[3] غريب ابن الجوزي، ص : 178، ومعاني الزجاج، 77/3، وأمالي المرتضى، 124/1، والكشاف، 308/2، واليماني، ص : 173.

[4] انظر مثلا : البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، 51/1، واستعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، لأحمد محمد عبد الراضي، ص : 09، ص : 41، وأقسام الكلام العربي، د. فاضل الساقي، ص : 205.

[5] انظر : ابن عقيل على ابن مالك، 331/1.

[6] انظر : التوسع في كتاب سيبويه، د. عادل هادي حمادي العبيدي، ص : 69.

دلالة على عظم ما اقترفوا، وشناعة ما وصفوا، وهذه مزيته على التعبير باسم المفعول منه[1].

وأما قراءة : (كدب)، بدال غير معجمة، فمما جاء في كتب اللغة أنه :

- الدم الطريُّ، والكدر واليابس والمسفوح[2].
- الدم الذي يضرب إلى البياض[3].
- الدم ذو الأثر[4].

وجملة ذلك كله أنه دم موصوف بما قد يغطي على كذبهم، ويجعل ما صنعوا أقرب لتصديق أبيهم، ولكن هذه الأوصاف المدلول عليها بلفظ الكذب من الطراوة، والكدرة واليبوسة والبياض، والتأثير لا تفي بالدلالة على التلبيس والتضليل إلا بضرب من التأويل يغني عنه الوصف بالكذب على إطلاقه، إذ يكون الإطلاق مفهما لما ذكر من الأوصاف وغيره، ثم إن الكذب بذلك يصير دالا على العلامة التي اختلقوها تضليلا لأبيهم وإيهاما، وعلى هذا، تصير القراءة اعتناء بحيلتهم في التضليل، ووسيلتهم إليه، وليس ذلك بذي بال في سياق القصة إنما محل العناية فيها فضح جرمهم في أخيهم ويفي بذلك نعتهم بالكذب، ومن شأن القصص القرآني الانصراف عن ذكر التفصيلات وطي ما لا يتعلق به غرض ديني، ويدل عليه عدم الكشف عما اهتدى به أبوهم إلى كذبهم، فقال عقب وصف الدم بالكذب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾، فدل على عدم تصديقه إياهم دون بيان الدليل لعدم تعلق الفائدة به، ولأجل تركه للمتلقي يمضي بخياله إلى صنع مشهد إتيانهم بالدم من

---

[1] انظر : الكشاف، 308/2.

[2] لسان العرب، 31/13، والبحر المحيط، 180/3، وغريب اليماني، ص : 173، وأمالي المرتضى، 124/1.

[3] لسان العرب 31/13.

[4] الجامع لأحكام القرآن، 20/4.

جدي، أو نحوه، وتلطيخ القميص به، وما إليه من تفاصيل ما يعني القصة فيه أنه دم مكذوب وتدعو الخيال بعد ذلك للمشاركة في البناء الفني القصصي بما لا يكون في تركها إياه، واستكماله له ضرر من الجانب الديني[1].

وعلى هذا يبين التفوق البلاغي لقراءة (الكذب)، بنأيها عن التفصيل في وصف الدم تعويلا على خيال القارئ، وإنها لإحدى الخصائص الفنية في عرض القصة في القرآن الكريم، قال الدكتور سعيد عطية علي مطاوع : (ومن الخصائص الفنية في عرض القصة تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد وقص المناظر بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد والمشهد اللاحق)[2].

وذلك ما نحسبه يفوتنا بقراءة الكدب التي ترمي إلى إظهار ما طوته القراءة الأخرى بتحديد نوع الدم، وبيان وصفه، ولا يفوتنا في الأخير أن نقرر أن تميز التعبير بـ (كذب) عن التعبير بـ (كدب) إنما يظهره تفاعل المفردة مع سياقها وتضامها مع نسيج مقامها، وبناء موضوعها، وهو ما تقوم على أساسه الصياغة الكلية في العمل اللغوي الفني الذي يغدو جوهر مفهوم النظم عند أئمة البلاغة والبيان[3].

---

[1] انظر : الجانب الفني في القصة القرآنية، د. خالد أحمد أبو جندي، ص : 247.

[2] الإعجاز القصصي في القرآن، ص : 187، ومن جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال، ص : 333.

[3] انظر في هذا : جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، ص : 38.

ومن هذا الباب ننظر في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾[1].

فقد جاءت القراءة فيه بأربعة وجوه، هي :

– حذرون وحدرون.

– حاذرون وحادرون[2].

ويرى الاختلاف بنائيا مرة، أي بين صيغتي اسم الفاعل والمبالغة، وقد سبق الكلام عنه، وصوتيا مرة أخرى، أي بين نطق اللفظ بالذال في وجه، وبالدال غير المعجمة في وجه آخر، وها هنا موضع البحث، فنقول :

أما حذرون وحاذرون، فمن الحذر، وهو معروف، تدور دلالته في عمومها على اليقظة والخوف، والتأهب والاحتراز، وكل ما هو إلى هذا بصلة[3]، وجاء منه قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[4].

- وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[5].
- وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[6].

---

[1] الشعراء : 56.

[2] الكشاف، 114/3، وغريب اليماني، ص : 256، وغريب ابن الجوزي، ص : 264.

[3] لسان العرب، 64/4، والكشاف، 114/3.

[4] البقرة : 19.

[5] البقرة : 243.

[6] النساء : 71.

- وقوله : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1].

- وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾[5].

---

[1] النساء : 102.

[2] التوبة : 64.

[3] الزمر : 09.

[4] النور : 63.

[5] آل عمران : 28.

- وقوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[3].

والآية التي ندرسها، وقد سبق، من كلام فرعون في ما يحكيه عز وجل من قصة موسى عليه السلام، يدعو أتباعه إلى الجد في طلب موسى ومن معه من المؤمنين بتوخي الحذر على معنى اليقظة والاستعداد للإمساك بهم والنيل منهم، ولا يستقيم أن يكون هنا بمعنى الخوف والفزع لأن ذلك مدفوع بتقليل فرعون من شأنهم في قوله قبل ذلك : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[4]، ولذلك فسر العلماء الحذر هنا بالاستعداد واليقظة لا غير[5].

ثم إن مراد فرعون بذلك هو أن لا يفلته موسى، ومن معه، لا أن يدفع عن نفسه شرا متوقعا منه، فهو ذو غيظ وحنق، لا خوف وفزع، قال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾، أي : مغضبون[6].

---

[1] آل عمران : 30.

[2] التوبة : 122.

[3] القصص : 06.

[4] الشعراء : 54.

[5] معاني القراءات، ص : 363، وغريب اليزيدي، ص : 281، وغريب ابن الجوزي، ص : 264.

[6] انظر : غريب ابن الجوزي، ص : 264.

ذلك عن قراءة : (حذرون)، أما قراءة : (حدرون)، فعلى أصل لغوي يدور حول المعاني التالية :

– حدر الشيء يحدر حدرا وحدورا إذا هبط وانحط من علو إلى سفل، والحدور: الهبوط والانصباب، وهذا المعنى معروف .

– السمن والامتلاء، والعظم والضخامة، والحادر : الممتلئ لحما وشحما، السمين الغليظ، ومنه سمي الشاعر الحادرة[1]، وقال أبو بكر بن الأنباري : (عين حدْرة بدْرة، إذا كانت ممتلئة، قال امرؤ القيس :

وعـــين لهـــا حـــدْرة بـــدْرة شـــقت مآقيهـــا مـــن أخـــر

والحدرة أيضا هي الممتلئة، يقال : بعير حادر، إذا كان ممتلئا شحما)[2].

الاجتماع والكثرة، فيقال : حي حادر، أي مجتمع، وعدد حادر أي كثير[3].

فأما المعنى الأول فلا وجه له في سياق الآية، وأما المعنى الثاني فقد يكون حثاً لهم على طلب موسى وأتباعه، بما لهم من قوة وشدة وغلظة، أي أن قوما هذه أوصافهم ليسوا بالذين يفوتهم موسى بعد إذ هو، ومن معه، شرذمة قليلون، فيحصل، من ثم، معنى من معاني المقابلة بين قوة وضعف.

لكن هذا التعبير يفلح بيانيا، ويوفق فنيا، في عبارة الآية، لو أن حال فرعون من موسى حال الخائف، المتوقع لشره، المترقب للقائه، لقاء القوة للقوة.

---

[1] الأغاني، 265/3.

[2] الزاهر، 405/1.

[3] انظر : لسان العرب، 58/4، ومعاني القراءات، ص : 363، وغريب كراع النمل، ص : 88، والكشاف، 114/3.

لكنه ليس كذلك لأنه قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾، ولم يقل : مخيفون، وليس بين المعنيين وجه صلة، ومن شأن الإنسان أن يفاخر بقوته وشدته، وبأسه في سياق مواجهة قوة أخرى، وبهذا يبين إخفاق هذه القراءة بيانيا لتأديتها معنى في موضع غير مقصود إليه فيه، وقد تفطن الرازي إلى انتفاء معنى الخوف هنا، إذ قال : (وأما من قرأ : (حادرون)، بالدال غير المعجمة، فكأنه ذهب إلى نفي الحذر أصلا، لأن الحادر هو المشمر، فأراد إنا قوم أقوياء أشداء، أو أراد إنا مدججون في السلاح، والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم)[1].

وأما معنى الاجتماع والكثرة، فإنه عائد إلى ما قيل عن سابقه لأن المفاخرة بالتجمع والكثرة مما يليق بمقام المواجهة، ولقاء القوة بمثلها، وهو غير ما عليه حال فرعون من موسى، ولو أن فرعون قصد إلى مقابلة كثرة جنده بقلة أتباع موسى لكان بذلك مفاخرا لهارب منه يسعى في طلب النجاة، ولكان ذلك من الغباء بمكان، وهو غباء، إن صح أو جاز نعت فرعون به، فإنا ندفعه هنا لاعتبار آخر، هو بعد أن يكون مراد الله في الآية وصف فرعون بالغباء، والله أعلم.

---

[1] الرازي، 137/24.

وأرى من الممكن أن نبحث في قراءة أخرى ضمن هذا الباب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[1].

فقد قرئ : (بظنين)[2].

فمدار النظر في القراء تبين على البحث في (الضن) و(الظن).

فأما الضن، فهو البخل والإمساك، ورجل ضنين بخيل، هذا هو أصله، ويقال فيه: ضَنَنْتُ أَضِنُ ضَنًا وضِنًا وضِنَّةً ومَضَنَّةً ومَضِنَّةً وضِنَانَةً، كل ذلك من البخل[3].

قال الشاعر :

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل

وضنت علينا والضنين من البخل[4].

وضنين : فعيل، إحدى أبنية المبالغة، وتفسير الآية على هذا الوجه من القراءة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يبخل على قومه، ومن أرسل إليهم، بما نزل عليه من الوحي، وبما علمه ربه من شرع وأحكام، وربما جاء التعبير بمعنى البخل لاعتقاد بعضهم أنه يؤثر بالوحي قوما دون آخرين، كأن يخص الأغنياء دون الفقراء، أو الوجهاء دون

---

[1] التكوير : 24.

[2] الكشاف، 225/4، وغريب ابن الجوزي، ص : 417، والبرهان في بيان متشابه القرآن، للكرماني، ص : 429، ومعاني الأزهري، ص : 559.

[3] لسان العرب، 67/9، وغريب ابن الجوزي، ص : 417، وغريب اليماني، ص : 405 وغريب اليزيدي، ص : 417، ومعاني الأزهري، ص : 559، وغريب السجستاني، ص : 131، ومعاني الزجاج، 227/5، وحجة أبي زرعة، ص : 752 وغريب ابن الهائم، ص : 338، والكشاف، 225/4.

[4] لسان العرب، 67/9.

العامة، وغير ذلك[1]، أو أن المعنى على ما في عبارة الآلوسي : (أي لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، والتعليم ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم، على خلاف الكهنة، فإنهم لا يطلعون على ما يزعمون معرفته إلا بإعطاء حلوان) [2].

فأفاد، من ثم، بالقراءة أن كلام الله لكل عباد الله، ويؤيده قوله بعد ذلك : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3].

ثم إن في الآية تقديما وتأخيرا، والأصل فيه : (ما هو بضنين على الغيب)، والضن مما يتعدى إلى مفعوله بالباء، فالأصل قوله : (ما هو بضنين بالغيب).

فـ (على) هنا بمعنى الباء، من باب التضمين في الحروف[4]، ومن جماله في اللغة تقوية اللفظ، وتوسيع مدلوله، بإشرابه دلالة لفظ آخر[5]، ومنه أن يعدى فعل بحرف يعدى به فعل آخر، ليأخذ معناه، والضن في هذا الموضوع في معنى الافتراء على الله، لأنه لا يكون بخل بالوحي إلا بأن يستأثر به، ويكون ما أظهره لهم افتراء، فالمعنى بهذا أنه غير مفتر على الغيب.

ويقوي هذا التفسير ورود معنى الافتراء على الوحي في القرآن الكريم، ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾[6].

---

[1] انظر : لباب النقول، ص : 88، وأسباب النزول، ص : 67.

[2] الآلوسي، 61/30 .

[3] التكوير : 27.

[4] التضمين النحوي في القرآن الكريم، د. محمد نديم فاضل، 141/1، والباء، دراسة نحوية صرفية، د. عبد العزيز فاخر، ص : 61، والأدوات النحوية في كتب التفسير، د. محمود أحمد الصغير، ص : 714، واستعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، ص : 135، وغيرها.

[5] انظر مثلا : حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، د. سمير أحمد معلوف، ص : 301.

[6] الإسراء : 73.

وليست قراءة الظن، بمدفوعة عن شيء من ذلك، والظن هنا بمعنى الاتهام، والظنين : المتهم، والظِنَّة : التهمة، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم غير متهم[1]، في الوحي بشيء كالتبديل، أو الإخفاء والإزالة، أو غير ذلك، ويرجع إلى الأول، وعلى هذا المعنى تكون (على) في الآية مضمنة معنى (في)، لأنه يقال : فلان يظن به في فعل كذا، وروى ابن منظور لابن سيرين قوله : (ما كان علي يظن، (أي يتهم)، في قتل عثمان، وكان الذي يظن في قتله غيره)[2]، فيتضمن فعل الظن معنى الافتراء كذلك ليصح تعديه بـ (على) كما سبق.

وتبدو هذه القراءة أرحب دلالة من قراءة البخل، وذلك بأدائها ما في سابقتها، وأخذها ببلاغة التضمين مثلها، وزيادتها عليها بالاتساع لمعنى الاتهام، إذ هو يشمل البخل وغيره، فإذا قيل : ما هو على الغيب بمتهم، مع طي ذكر ما يتهم به، فازت القراءة بمزية بلاغية أخرى ترى في ترك ما يتهم به للذهن يتصوره كيف يشاء، فيحتمل الاتهام بالبخل وبالتزوير، وبالإخفاء وبالتبديل... وغير ذلك، وبه يرى في هذه القراءة ظفر بجمالية حذف المفعول ليتسع الاتهام لكل ما يمكن تصوره، فيعم النفي كل ذلك، أي ما هو بمتهم بأي شيء مما تفترون عليه، ويؤيده قوله بعد ذلك : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[3]، وفي ذلك تبرئة تامة للنبي ﷺ، من أي اتهام كان.

وبعد، فإن القراءتين سواء من جهة الأداء البياني، لأن كلا منهما لا يعدم شاهدا يؤيده، ودليلا يعضده، ومرد ذلك كون كليهما قرآنا مقطوعا به.

وربما حسن أن أشير إلى أنه لم يرد في القرآن ضن البخل إلا في هذا الموضع، أو هذه القراءة في هذا الموضع، أما ظن الاتهام فمنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن

---

[1] لسان العرب، 196/9، والكشاف، 225/4.

[2] لسان العرب، 197/9.

[3] التكوير : 26.

بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾[2].
- وقوله : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾[3].
- وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ ﴾[5].

2. بوضع حركة موضع حركة :

---

[1] آل عمران : 154.

[2] الفتح : 06.

[3] الفتح : 12.

[4] الحجرات : 12.

[5] فصلت : 23.

قد يختلف اللفظان في وجهي القراءة دلاليا، ثم يكون بينهما تقارب صوتي بأن لا يجاوز الاختلاف بينهما وضع حركة موضع أخرى، ويرد هذا من سبيلين :

الأول : أن تبدل حركة بحركة مغايرة لها كإبدال ضمة بفتحة، أو فتحة بكسرة، وغير ذلك، وقد اجتهدنا مع هذا الضرب في اطّراح ما كان منه عائدا لأسباب لهجية، إذ لا تعلق للدلالة به.

الثاني : أن تبدل حركة مخففة بمثيلتها مشددة، ولم نشأ عد الثانية حرفين لداع منهجي التزمته دراستنا هذه.

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾[1].

قرئ: (فَرُوحٌ)[2]، بضم الراء.

فأما الرَّوح، بالفتح فجاء في كتب اللغة أن معناه يدور حول معاني النسيم والريح، طيبا وخبيثا، ومعنى الرحمة، وغير ذلك مما يلتقي على معنى الراحة والتنفيس[3].

فيفهم منه أن الروح هو ما تجده النفس بعد غم وضيق[4].

وقد جاء في القرآن الكريم استعمال للرَوح، مفتوحا، في معنى الراحة والفرج والتنفيس، منه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾[5]؛ أي : فرج الله[1]، ومن عرف اللغة

---

[1] الواقعة : 88–89.

[2] معجم مكرم وعمر، 74/7، ومعجم الخطيب، 320/9.

[3] لسان العرب، 254/6، وغريب ابن الجوزي، ص : 374، وغريب ابن الهائم، ص : 312، والكشاف، 60/4.

[4] معاني الأزهري، ص : 504.

[5] يوسف : 87.

أن اليأس يقترن بالراحة والرحمة، وكذلك القنوط، لأنه يأس، ودليله قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

وبه نخلص إلى أن الرَّوح، مفتوحا، إنما يكون عقب يأس وقنوط، وضيق وغم، فهو بعد ذلك رحمة وتنفيس، وهو ما يدفع إلى النظر في سياق الآية طلبا لموضع معنى الضيق الذي تقابله القراءة بروحها وتنفيسها، وقد يتعين أنه حال الاحتضار عند الموت، فلا شك في أنه حال ضيق، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[3].

والمقصود هنا روح الإنسان عند حضور الموت[4]، وموضع الآيات تحد للكفار في تكذيبهم القرآن الكريم، فيقول تعالى : أرأيتم الإنسان تبلغ روحه حلقومه، حين يسلمها للموت، وأنتم ترون ذلك، ونحن أقرب إلى رُوحِهِ منكم، فإن كذبتم بوجود الله القادر على كل شيء، فأرجعوا روح المحتضر إلى الحياة، إن أنتم قادرون عليه، فإن لستم بقادرين، فآمنوا بالقادر على تنفيسه من ضيق الاحتضار، فإن يكن من أهل المكانة العلية فله الرحمة والنعمة والتنفيس، ويؤيد هذا التفسير مقابلة الروح فيه ببرده[5] ونسيمه لنزل الحميم، وتصلية الجحيم، في حق المكذبين الضالين، ثم إن سورة الواقعة مبنية إجمالا على تقابلات بين حال الكفار وحال المؤمنين، مما يدخل ضمن مما يسميه بعض الدارسين : (التقابل والتماثل في محاور القرآن الكريم)، ومن جملة هذه المحاور محور الكفر والإيمان والنفاق، حيث تغدو وسيلة التقابل في محور الكفر، مثلا إحدى وسائل إبطال كفرهم

---

[1] الكشاف، 340/2.

[2] الزمر : 53.

[3] الواقعة : 83.

[4] تيسير الكريم المنان، ص : 799، والكشاف، 59/4.

[5] انظر : غريب اليزيدي، ص : 370، ومعاني الأزهري، ص : 504.

ضمن إثبات قدرة الله تعالى[1]، إذ يمكن أن تتدرج بنية التقابل هنا ضمن سياق التكذيب بالقرآن الكريم الذي يفتتح في السورة بقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾[2]، إلى آخر السورة، فيكون طرفا التقابل هما : المكذب بالقرآن الكريم، من جهة، والمصدق به من جهة أخرى، فجاء التحدي ليفصل بين الطرفين، على هذا يمكن التعويل على السياق لفهم دلالة طرفي التقابل، وما يرتبط بهما من ألفاظ[3]، فلا يكون من المدفوع أن تكون قراءة الرَّوح، بما تدل عليه من التنفيس والراحة، جوابا لبلوغ الروح الحلقوم، ووقوعها في ضيق مسلكه.

كما يرى ثمة ملحظ صوتي في هذه القراءة يؤيد أداءها البياني، وتميزها الأسلوبي ذلك في احتلال الفتحة قمة السلم الصوتي من حيث الخفة وسهولة النطق إيحاءا باليسر والسهولة وارتفاع المشقة والعسر، وفي هذا بحوث لأولي العلم بدلالة الأصوات[4]، كما يرى ثمة أثر موسيقي في المشاكلة بين فتحتي الروح والريحان، فيما لا يكون ذلك مع مخالفة الحركتين، ومحاذاة الأصوات مما توسل به العرب لتحصيل خفة النطق وحسن النغمة، وربما ألجأهم ذلك إلى غير قليل من التجوز والتوسع[5].

هذا عن قراءة الرَّوح مفتوحا، أما عن الضم، فهي الروح التي بها حياة الإنسان وبقاؤه، فالمعنى على هذا أن الله تعالى يهب من يصدق بكلامه العزيز حياة وبقاء[6]، وقد دار لفظ الروح في القرآن الكريم على معان كثيرة يرى في توجيه القراءة بأكثرها شيء من

---

[1] انظر مثلا : التقابل والتماثل في القرآن الكريم، د. فايز عارف القرعان، ص : 225.

[2] الواقعة : 75.

[3] انظر : التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص : 123.

[4] انظر مثلا : كتاب سيبويه، 556/3، والخصائص، 59/1، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 49.

[5] انظر مثلا : موسيقى اللغة، د. رجب عبد الجواد إبراهيم، ص : 12.

[6] غريب اليزيدي، ص : 307، وغريب ابن الهائم، ص : 313. وغريب ابن الجوزي، ص : 374، وغريب السجستاني، ص : 99.

الإغراب في التأويل، من ذلك أن الروح هو جبريل، عليه السلام، والروح الأمر والحكم، والروح عيسى عليه السلام، وغير ذلك[1]، مما يُرى في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[7].
- وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾[8].
- وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[9].
- وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾[10].

---

[1] انظر : لسان العرب، 256/6.
[2] السجدة : 09.
[3] الحجر : 29.
[4] ص : 72.
[5] غافر : 15.
[6] النحل : 102.
[7] الإسراء : 85.
[8] الشعراء : 193.
[9] المعارج : 04.
[10] النبأ : 38.

- وقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾[3].

- وقوله : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى

---

[1] القدر : 04.

[2] التحريم : 12.

[3] النساء : 171.

[4] البقرة : 253.

بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[5].

على أن الأقرب في ذلك كله أن يقال إن الروح فيه هو القرآن الكريم، كالذي في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[6]، وربما يؤيده مجيئه في سياق الكلام عن القرآن كما سبق، لكنه يحتاج إلى ما يدل على أن الروح فيه هي القرآن الكريم كالذي في آية الشورى فقد دل عليه قوله (أوحينا)، والله تعالى أعلم.

---

[1] المائدة : 110.
[2] النحل : 02.
[3] المجادلة : 22.
[4] مريم : 17.
[5] الأنبياء : 91.
[6] الشورى : 52.

ومما قرئ به مختلف المعنى المعجمي قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [1].

فقد قرئ : (عُشَاء) بضم العين ففتح، وقرئ : (عُشِيا) بضم فكسر [1]، والمعنى في كليهما واحد وهو جمع أعشى ومثلهما قراءة الحسن (عِشَى) بكسر ففتح.

---

[1] يوسف : 16.

أما قراءة الجمهور فتتضمن ذكرا لزمان مجيئهم إلى أبيهم، وهو العشاء، فالمعنى على ذلك أنهم أرادوا إيهام أبيهم بأنهم أنفقوا اليوم كله في البحث عن أخيهم يوسف عليه السلام، وفيه معنى حرصهم على سلامته وعلى إنفاذ وصية أبيهم بأن يرعوه وأن لا يغفلوا عنه، ففي اختيارهم وقت العشاء للرجوع إبعاد للتهمة عنهم وتعمية على أبيهم بأن يظن بهم فعل السوء بأخيهم[2].

وأما قراءة (العُشاء) بضم ففتح، فعلى أنها جمع أعشى، من عشا يعشو عشوا، وهو سوء البصر وضعفه، وبه سمي الشاعر الأعشى لضعف بصره.

وكل ما في متن العربية من هذا اللفظ آخذ بسبب من معنى ضعف البصر، وعدم تبين الشيء، والغفلة عنه، أو التغافل والإعراض عنه، وكذا الظلمة وعدم الظهور، وكل ما في معنى الخفاء[3].

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[4]، أي يتعام ويعرض ويتغافل[5].

فالمعنى على هذا، أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا قد جاءوا أباهم وبهم ضعف في البصر، والوجه في هذا إما على الحقيقة في اللفظ، أي أنه لحق بأبصارهم ضعف من أثر التباكي والتظاهر بالحزن على يوسف، وهذا المعنى مدفوع بعدم إمكان الجمع بين التظاهر بالبكاء ولحاق الضرر بالبصر منه، لأن ذلك لا يكون إلا من جهة الحقيقة، وهم مختلقون مدعون.

---

[1] معجم مكرم وعمر، 156/3، ومعجم الخطيب، 204/4.

[2] تفسير النسفي، 308/2، والبحر المحيط، 249/6.

[3] لسان العرب، 162/10.

[4] الزخرف : 36.

[5] غريب اليماني، ص : 307، وغريب اليزيدي، ص : 333.

وإما أن يكون اللفظ مستعملا في معنى التظاهر بالعشا، إيهاما لأبيهم، وإمعانا في التخفي والاستتار، فيكون معنى (عشاء) متعاشين، أي متظاهرين بالعشا.

وإما أن يكون اللفظ في حقيقته على معنى الإشارة إلى مجيئهم ليلا، فإن من معاني العشا سوء الإبصار ليلا، فيكون هذا المعنى راجعا إلى معنى قراءة الجمهور (عشاء) أي وقت العشاء، وإن من سبيل الكناية في ذلك، أي : رجعوا إلى أبيهم لا يكادون يرون أمامهم لأنهم رجعوا ليلا وقت العشاء.

فيرجع بذلك معنى القراءة إلى توكيد قراءة الجمهور بتضمنها ذكرا للازم معناها، فإن العشا وضعف البصر من لوازم المسير ليلا، وبه يتبين وجه سائغ في هذه القراءة التي تكاد تذكرها في هذا الموضع كل كتب التفسير التي تعنى بتوجيه القراءات المختلفة، لما رآه أصحابها فيها من تأييد لقراءة الجمهور.

على أننا نشير إلى أن قراءة (عِشَاء) بكسر العين ففتح، غير مقصورة على معنى الظرف الزماني فحسب، بل قد تكون في معنى جمع (عاش)، فهي (فِعال) بكسر أوله كـ (راع) و(رِعاء)[1]، فتكون (عشاء) منصوبة على أنها حال من الضمير العائد على إخوة يوسف وهو راجع إلى معنى الذي في (عشاء) و(عشى) و(عشيا).

هذا، وننظر هنا فيما قرئ فيه بوضع حركة مخففة في وجه، موضع حركة مثلها مثقلة، في آخر، كالذي في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[2].

فقرئ : (الإبلِّ)، بلام مكسورة مشددة [3].

---

[1] انظر : البحر المحيط، 249/6.

[2] الغاشية : 17.

[3] معجم مكرم وعمر، 131/8، ومعجم الخطيب، 404/10.

فأما المخففة، فالمعنى فيها معروف، وهو اسم جمع للجمل، أي لا واحد لـه من لفظه[1]، وجاءت الكلمة في القرآن الكريم مرتين :

- في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴾[2].
- وفي قوله : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[3].

وقد أفاد اللغويون أن ما جاء من الأسماء والصفات على هذا الوزن قليل نادر، فهذا سيبويه يذكر هذا الجمع ثم يعلق قائلا : (لا نعلم في الأسماء والصفات غيره)[4]، واستدرك عليه ابن خالويه بإيراد أربع عشرة جمعا على هذا البناء، وإن أقر بأن سيبويه إنما ذكر ما لا خلاف فيه، وهو (إبل)، أما ما أورد هو فإنه مختلف فيهن[5].

وقد جاء اللفظ في سياق الدعوة إلى التدبر والتأمل في خلق الله تعالى وملكوته، فدعا إلى النظر في خلق الإبل، ورفع السماء، ونصب الجبال، وسطح الأرض، وكيف كان ذلك كله، ويندرج هذا ضمن ما يسميه بعض الباحثين معاونة العقل، أي على الإدراك والفهم والاقتناع باعتماد وسائل في ذلك من أهمها ما يصطلح عليه (الإثارة الوجدانية)[6]، ويدل عليها في هذا المقام قوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[7]، فإن النفس إذا رفع عنها الإكراه والإلزام في الأمر الذي يعرض عليها كان ذلك أدعى لأن تستجيب لما جبلت عليه النفوس من حب الحرية في شأنها.

---

[1] لسان العرب، 36/1، وأسماء الجموع في القرآن الكريم، ص : 125.
[2] الأنعام : 144.
[3] الغاشية : 17.
[4] الكتاب، 224/4.
[5] ليس في كلام العرب، ص : 97.
[6] انظر مثلا : أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، د. الحسين جرنو محمود جلو، ص : 255.
[7] الغاشية : 22.

أما الإبلّ، مشددا، فقيل : إنه السحاب[1]، وهو أيضا مما يدخل في الدعوة إلى التأمل وإعمال الفكر، كالذي في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[6].

---

[1] لسان العرب، 36/1، والكشاف، 247/4.

[2] الرعد : 12.

[3] البقرة : 164.

[4] الأعراف : 57.

[5] النور : 43.

[6] الروم : 48.

• وقوله : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[1].

لكن الذي شغل العلماء هنا هو وجه المناسبة في الجمع بين الإبل مخففا، أي جمعا للجمل، وبين ما تلاه من آيات كونية : السماء والأرض والجبال، وكذا وجه المناسبة بين السحاب، وما جاء بعده كذلك، وهل يفضل أحد اللفظين الآخر في الظفر بالموضع من هذا السياق ؟.

فأما عن الإبل، مخففا، فقال بعض أهل العلم : إنه لما كان من حال العرب كثرة الأسفار على الإبل في البراري، فإنه إذا انفرد أحدهم في الصحراء، ولم يكن له شاغل يشغله دعاه ذلك إلى النظر والتفكر في ما حوله، فإذا هو جمله يركبه، وسماء تضله، وأرض تقله، وجبال تجبهه، فكان اجتماعها في لفظ الآية بسبب من اجتماعها في بيئة العربي ودنياه[2].

وقيل : إنه لاجتماع منافع جمة في الإبل، ولا يرى فيه مناسبة لما ذكر بعده إلا بتأويل وإغراب[3].

وقد بدا لي في أمرها وجه مناسبة بين جملة ما ذكر، ذلك من جهة التمثيل لما سخره الله تعالى لعباده، وقرب إليهم الانتفاع به، رغم ما يرى في ظاهره من عظم ووعورة وامتناع : فهذه السماء تمطر بما فيه حياة كل شيء، وفي شمسها وقمرها مالا خفاء فيه من النعم والآلاء، رغم بعد ذلك كله عن يد الإنسان، وامتناعه عنه، وهذه الجبال على ما

---

[1] فاطر : 09.

[2] انظر مثلا : غريب اليماني، ص : 418 والكشاف، 247/4، والنهر الماد من البحر المحيط، 1257/3.

[3] النهر الماد من البحر المحيط ، 1257/3.

فيها من القوة والمتانة ما هي إلا أوتاد للأرض؛ بل قد يلينها الله للإنسان فيتخذ منها بيوتا ومساكن، وهذه الأرض جعلها الله ذلولا يمشي الناس في مناكبها وبسطها لهم ومهدها، وأخرج من جوفها من كل الثمرات، فكذلك الإبل، فإن البعير لا يرى أضخم منه في حيوان أرض العرب، وهذا شعرهم لا يصف الجمل والناقة إلا بما فيه قوة ومتانة، وعظم وضخامة، ومع ذلك، فقد أودع الله تعالى فيها آية بأن ذللها للقياد، وسخرها لما يريد منها الإنسان، فتراه يبرك ليعلوه الراكب، وربما أخذ بقياده الطفل والجارية، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[1].

ولم أجد هذا التوجيه لغير الزجاج، قال : (نبههم الله على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينتجه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل، وهو بارك فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره، فأراهم عظيما من خلقه ليدلهم بذلك على توحيده)[2].

أما الإبلّ، مشددا، فوجه انتظامها مع ما جاء بعدها أن ذلك كله من مظاهر الطبيعة وأرجاء الملكوت، فالقراءة، على هذا، تبدو أولى من أختها في التميز بالأداء البياني والتعبير الفني لظهور المشاكلة فيها بين مجموع ما ذكر، ومع ذلك، قد يقال إن الدعوة إلى النظر في السحاب مشمولة بالدعوة إلى النظر في السماء، لأنهما واحد، إذ لا

---

[1] يس : 71-72.

[2] معاني القرآن وإعرابه، 244/5.

سماء بغير سحاب، ولا سحاب بغير سماء، إلا أن يقال: إنه يخصها حملا على قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[1]، أفرد الرمان بالذكر، وهو فاكهة، لأنه يخصه.

- وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[2]، فإنه ذكر الملائكة ثم خص بالذكر جبريل وميكائيل.

- وقوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ ﴾[3]، فإنه خصّ الصلاة الوسطى بذلك.

- وقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[6].

---

[1] الرحمن : 68.

[2] البقرة : 98.

[3] البقرة : 238.

[4] البقرة : 47.

[5] البقرة : 169.

[6] البقرة : 231.

- وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1].

---

[1] المائدة : 02.
[2] المائدة : 97.
[3] النحل : 49.
[4] النحل : 90.
[5] الأنبياء : 73.

- وقوله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[6].

فيقال : إن التخصيص يقوم على تحصيل غرض منه ظاهر، وذلك كالتشريف والتعظيم[7]، وهو غير ملحوظ في فصل السحاب عن السماء، ولا وجه لأن يقال : إن السحاب أشرف ما في السماء، أو أنها أدعى للنظر دون سائر ما فيها، كما قد تضعف هذه القراءة بأن يقال إن أساليب التخصيص يسبق فيها ذكر العام بخلاف قراءة السحاب هذه فقد قدم فيها الخاص على العام.

---

[1] الأحزاب : 60.

[2] الدخان : 25.

[3] الأحقاف : 15.

[4] الرحمن : 11.

[5] المعارج : 04.

[6] الفلق : 1-2-3-4-5.

[7] النهر الماد من البحر المحيط ، 1045/3، ومعاني الزجاج، 82/5.

ولا نرى عد هذه القراءة من قبيل ذكر العام بعد الخاص، حملا على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾[1]، والأذى أعم من المن، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[3]، وغير ذلك، لأن الغرض من ذكر العام بعد الخاص في كل ذلك هو إفادة دخول الخاص في العام، وتوكيد أنه منه إزالة لتوهم غير ذلك، أو إنكاره أو غيره، فيجيء التعبير بإيراد العام بعد الخاص ليفيد أنه منه :

- فقوله : ﴿ مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ لينبه على أن المن من الأذى أو من أشد الأذى، زجرا وتنبيها.
- وقوله : ﴿ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ ﴾ ليدل على أنهما من أهل العزم من الرسل تنبيها لفضلهما.
- وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ تنبيها لما في الفاتحة من فضل التعبير عن جميع غايات القرآن الكريم.

ثم إنه لا يقال إن ذكره للسحاب قبل السماء تنبيه إلى أنها منها، فهو مما لا يحتاج إلى تنبيه إليه، كذا لا يقال إنه لأجل فضل السحاب على باقي ما في السماء كالشمس والقمر والنجوم، إذ لا يسوغ القول به.

---

[1] البقرة : 262.

[2] آل عمران : 84.

[3] الحجر : 87.

وربما يزيد أداء هذه القراءة قصورا عن قراءة الإبل، بالتخفيف، أن القرآن الكريم آثر في كل مواضع التدبر لفظ السحاب، فانفرد هذا الموضع بلفظ الإبل مشددا.

بقي أن يقال لعل من قرأ بالسحاب يرمي إلى المجاز لا الحقيقة، أي تشبيه الجمال بالسحاب، وذهب إليه الزمخشري[1].

ويحيل هذا التخريج على سؤالين اثنين :

- إن يكن أريد بالإبل مشددا الإبل مخففا من سبيل التشبيه، أفليس يحتاج ذلك إلى ما يدل عليه ؟.

- هل عرف عند العرب تشبيههم الجمال بالسحاب ؟.

إن وجاهة هذا التخريج تبقى رهنا بالإجابة على هذين السؤالين، ولا أخال أن الجواب عنهما مما يمكن أن يخدم هذا التخريج.

هذا، وقد ذهب بعضهم إلى أن الإبل هنا هو السحاب على الحقيقة، وقال فيه القرطبي : (وقيل : الإبل هنا السحاب، و لم أجد لذلك أصلا في كتب اللغة)[2].

---

[1] الكشاف، 247/4.

[2] الجامع، 20/ 35.

ومما يندرج ضمن باب ما تبدل فيه الحركة الأثقل بالحركة الأخف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾[1].

فقد قرئ : (مسَّاكين)، بتشديد السين[2].

أما القراءة الأولى فجمع مسكين وقد جاء في تعريفه كلام كثير، خاصة في التفريق بينه وبين الفقير.

---

[1] الكهف : 79.

[2] معجم مكرم وعمر، 07/7، ومعجم الخطيب، 282/5.

وأصل التفريق بينهما في مجيئهما متعاطفين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾[1]، وقد قضوا بأن العطف يقتضي المغايرة[2]، ولأهل العلم في التفريق بينهما كلام مداره على النظر في المعنى الفقهي لكل منهما، جاء في الزاهر قول ابن الأنباري : (وقولهم : رجل مسكين، معناه في كلام العرب الذي سكَّنه الفقر، أي قلل حركته، واشتقاقه من السكون، يقال : قد تمسكن الرجل، وتسكّن إذا صار مسكينا)[3]، لكن الذي يعنينا، في مثل مقامنا هذا، هو إشراك المسكين للفقير في صفة الضعف والحاجة بدليل استحقاق كليهما للصدقة.

ولست أدري على أي وجه يحمل مذهب ابن منظور بجعله المسكين هو كل مقهور مغلوب، ولو كان غنيا[4] ؟، إذ كيف يمكن الجمع بين الغنى واستحقاق الصدقة؟، اللهم إلا على وجه من الإغراب والتكلف، ولم يرد في القرآن مسكين إلا وهو في حاجة إلى صدقة وإطعام وعون، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾[5].

- وقوله : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾[1].

---

[1] التوبة : 60.

[2] انظر مثلا : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياس خضر الدوري، ص : 39.

[3] الزاهر في معاني كلمات الناس، 1/ 224.

[4] لسان العرب، 76/14.

[5] الإسراء : 26.

[6] الروم : 38.

- وقوله : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[2].

- وقوله : ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[6].

- وقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾[7].

- وقوله : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[8].

---

[1] المدثر : 44.

[2] الحاقة : 34.

[3] الفجر : 18.

[4] الماعون : 03.

[5] المجادلة : 04.

[6] الإنسان : 08.

[7] البلد : 16.

[8] البقرة : 177.

- وقوله : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

- وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[2].

- وقوله : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

- وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[4].

- وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[5].

---

[1] المائدة : 89.

[2] المائدة : 95.

[3] النور : 22.

[4] النساء : 08.

[5] البقرة : 83.

- وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾[2].

- وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[5].

وعلى هذا، بدا لبعضهم أن يسأل: كيف يكون أصحاب السفينة مساكين وهم يعملون في البحر ؟، فالتساؤل مبني على حصر المسكين في من لا مال له فحسب،

---

[1] البقرة : 215.

[2] النساء : 36.

[3] الأنفال : 41.

[4] التوبة : 60.

[5] الحشر : 07.

فلعل جوابه ما ذهب إليه ابن منظور من أن كل ذليل مقهور مسكين وإن يكن غنيا، كما سبق ذكره.

ويمكن أن يؤخذ به لتفسير المساكين مخففا في الآية الكريمة، أي أن الخضر، عليه السلام، قصد بما فعل في القصة إلى نصرة هؤلاء المساكين من ذل وقهر، ويدل عليه قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[1] فالقراءة، على هذا، تعين على إفهام سبب النصرة، وهو كونهم مساكين مقهورين مغلوبين، لا يقوون على دفع الشر عن أنفسهم فاحتاجوا إلى النصير.

أما قراءة : (مسَّاكين)، مضعفا فعلى أن اللفظ جمع مسَّاك، على وزن فعَّال، وهي مبالغة من المسك، وهو معروف، والمراد بالمساك هنا الصياد[2]، وبالمسَّاكين جمع المسَّاك، أي أن السفينة لصيادين، لأن عملهم الإمساك بالسمك.

وهذه القراءة، وإن بدا اللفظ فيها مراعى في استعماله سياق القصة، أي السفينة والبحر والعمل فيه، إلا أن ثمة ما قد يقال في شأن أدائها البياني، وموقعها الفني من نسيج التعبير، وذلك كأن يقال : إن التعبير بالصيادين يفوت المعنى الذي لأجله استحق هؤلاء المساكين النصرة والرفد وهو الغلبة والقهر، وإن أخذ هذا من قوله : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، هذا من جهة، ويفوت من جهة ثانية غرض التسوية بين كل من نصرهم الخضر في استحقاق ذلك، فكما أن أبوي الغلام وصفا بالإيمان، ووصف صاحبا كنز الجدار باليتم حسن معه، من باب المشاكلة، أن يوصف أصحاب السفينة بالمسكنة ليكون حال الجميع مما يستدعي الشفقة والإحسان.

---

[1] الكهف : 79.

[2] انظر : روح المعاني، 09/16.

فقراءة التشديد هذه تقلق بناء تماثليا بديعا وتترك به خرما لا يدرك سداده، حيث جاء مع كل موقف في قصة الخضر ذكر لمستحق العون مع مصدر الخوف عليه ووسيلة دفع الشر عنه مع تسبيب ذلك كله بما يدعو إلى نصرته :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ

أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾[1].

1- **أما الموقف الأول** : فمستحق العون : الأبوان، ومصدر الخوف عليهما : ولدهما، ووسيلة الدفع : قتله بأمر الله، وسبب نصرتهما : أنهما مؤمنان، أي الإيمان.

2- **وأما الموقف الثاني** : فمستحق العون : أصحاب السفينة، ومصدر الخوف عليهما: الملك الغاصب، ووسيلة الدفع : خرقها، وسبب نصرتهم : أنهم مساكين، أي المسكنة.

3- **وأما الموقف الثالث** : فمستحق العون: الغلامان، ومصدر الخوف عليهما : أهل قريتهما، ووسيلة الدفع : إقامته الجدار، وسبب النصرة : أنهما يتيمان، أي اليتم.

فحصل بذلك تماثل فيه من الروعة والجمال ما تهدر بعضه قراءة التشديد، لأن كونهم صيادين لا يصلح سببا لنصرتهم، ثم إن التماثل في القرآن الكريم مما كان لبعضهم فيه دراسات تكشف عن قيمته وجماليته[2].

---

[1] الكهف، الآيات : من 60 إلى 82.

[2] انظر مثلا : التقابل والتماثل في القرآن الكريم، د. فايز عارف القرعان، ص : 169.

ثانيا:

مخالفة المعنى مع التباعد الصوتي

1. التباعد الكلي :

نقصد بالتباعد الصوتي الكلي أن يحصل بين لفظي القراءتين المختلفتين معجميا اختلاف صوتي يرى في أكثر من حرف، وإن اتفقا في واحد، لأنا بهذا نقابل ذلك التباعد الذي لا يجاوز الحرف الواحد فسميناه جزئيا، وسيأتي :

فأما المتباعد كليا، فمنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[1].

فقد قرئ : (جدث)[2].

ومعنى الحدب في العربية المرتفع من الأرض، أو من كل شيء، ومنه سمي الأحدب من الرجال[3]، والحدبة ما أشرف من الأرض، وغلظ وارتفع، ومما جاء فيه قول كعب بن زهير :

يوما تظل حداب الأرض يرفعها   من اللوامع، تخليط وتزييل[4]

وأما ينسلون فمعناه يسرعون[5]، وأما الذين ينسلون من كل حدب فهم على قاعدة عود الضمير على أقرب مذكور يأجوج ومأجوج، فالآية بهذه القراءة تصوير لأحد علامات وأهوال قيام الساعة بخروج هذا الجنس من الخلق وقدومه مسرعا على الناس من كل مكان مرتفع، ويحتاج هذا المرتفع، في تحديده وتعيينه، إلى نظر في كتب التفسير، إنما الذي يعنينا هنا أن التعبير أنسب ليأجوج ومأجوج، لما ذكرت من عود الضمير على أقرب

---

[1] الأنبياء : 96.

[2] الكشاف، 584/2.

[3] لسان العرب، 51/4، وغريب ابن الهائم، ص : 234، وغريب ابن الجوزي، ص : 239، وغريب السجستاني، ص : 76.

[4] ديوانه، ص : 33.

[5] غريب السجستاني، ص : 220، وغريب اليماني، ص : 236، وغريب ابن الهائم، ص : 234، وغريب ابن الجوزي، ص : 239.

مذكور، وبعد عوده على الذين أهلكوا في قوله تعالى قبل ذلك : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[1].

لأن المهلكين هنا بشر، أي هم الأقوام الذين قص تعالى أمرهم في كتابه، كما يبعد أن ينسل هؤلاء من كل مرتفع، وقد نبه الرازي إلى أن العود بالضمير إلى البشر المهلكين مما يخل بالقاعدة في قانون الكلام، فقال : (قال أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج، وقال مجاهد: هو كناية عن جميع المكلفين، أي يخرجون من قبورهم من كل موضع، فيحشرون إلى موقف الحساب، والأول هو الأوجه، وإلا لتفكك النظم)[2]، وإلى مثله ذهب السمين الحلبي، إذ قال : (قوله : (وهم) يجوز أن يعود على يأجوج ومأجوج، وأن يعود على العالم بأسرهم، والأول أظهر)[3].

وعلى هذا، فإن جملة: (وهم من كل حدب ينسلون) حال من قوله : (يأجوج ومأجوج)[4].

إلا أن يراد بالحدب القبر[5]، لارتفاعه على الأرض، فيتعين رجوعه على المهلكين، لأنه يصح فيهم الإقبار، بخلاف يأجوج ومأجوج، لكنه مدفوع بقاعدة رجع الضمير دفعا يجعل استعمال الحدب هنا في معنى القبر مرجوحا، كما أن القرآن صرح في موضع آخر بلفظ الجدث، وهو القبر، ذلك في سياق الحديث عن خروج البشر في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي

---

[1] الأنبياء : 95-96.

[2] مفاتيح الغيب، 222/22.

[3] الدر المصون، 203/8.

[4] التحرير والتنوير، 147/17.

[5] انظر : غريب اليزيدي، ص : 256.

الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[1]، ولم يرد في هذا السياق حديث عن يأجوج ومأجوج فخلص الكلام للبشر المقبورين.

هذا، ولعل الذي يقضي براجحية قراءة الحدب بمعنى المرتفع غير القبر[2]، أو بمعنى الجانب، على بعض اللغات، قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[3]، لأن شخوص الأبصار كناية عن الاندهاش لما رأوه من أمر يأجوج ومأجوج، وبه يبين ضعف قراءة الجدث وهو القبر لا غير[4]، وهو ما حمل ابن عرفة على احتمال عود الضمير على أهل القرى المهلكة ليكون به وجه لقراءة الجدث[5]، وجوّد الزجاج قراءة الحدب على أختها وإن هو لم يكشف عن وجه تجويده لها[6].

واحتمل الشيخ الطاهر بن عاشور أن يكون المراد البشر المهلكين، وإنما شبههم بيأجوج ومأجوج تشبيها بليغا، كأنه يقول : (حتى إذا فتح عن الناس كيأجوج ومأجوج، وإنما خص هذا الجنس بالتشبيه لشهرتهما بالكثرة عند العرب، كما في قول ذي الرمة :

لو أن يأجوج ومأجوج معا ... وعاد عاد واستجاشوا تبعا

فكأن التشبيه بيأجوج ومأجوج هنا محمول على التشبيه بالجراد في قوله تعالى : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[7].

---

[1] يس : 51.
[2] انظر: الإتقان، للسيوطي، 176/1.
[3] الأنبياء : 97.
[4] لسان العرب، 88/3.
[5] تفسير ابن عرفة، 174/3.
[6] معاني الزجاج، 328/3.
[7] التحرير والتنوير، 149/17.

ولكني أرى ما ذهب إليه ابن عاشور هنا ملبسا، لأن إسقاط حرف التشبيه يجعل العبارة غير مفهمة للتشبيه، بل ويزيد احتمال الوصف بالفتح، والخروج من كل حدب في يأجوج ومأجوج، بعدا عن إدراك المعنى التشبيهي.

ويتباعد لفظا القراءتين صوتيا في قوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

---

[1] الشعراء : 227.

قرئ : (أي منفلت ينفلتون)[1].

فأما المنقلب، فمن مادة (قلب) التي بمعنى تحويل الشيء عن وجهه[2]، واللفظ من الميميات، أي أن الميم في أوله إما لإفادة اسم المكان أو المصدر الميمي، لذلك احتمل التفسير كليهما، وسيأتي، وهو على ذلك مصوغ من مطاوع قلبته فانقلب منقلبا، وانفعل من أوزان المطاوعة الرئيسة[3].

وفي التفسير نقول : إنه في الآية من الانقلاب، ومعناه الرجوع والعود والمصير[4]، فالمعنى سيعلمون الانقلاب الذي سينقلبونه أي المصير الذي سيلقونه على أنه الميمي من الانقلاب، أو سيعلمون المكان الذي يكون فيه انقلابهم، أي إليه مصيرهم، وهو اسم المكان من الانقلاب أيضا، والتفسير بكلا المعنيين مرضي.

وما قيل عن (منقلب)، يصح قوله عن (منفلت) في قاعدة صياغة الميمي منه واسم المكان، على أن بحثنا سيتعلق بمادتي اللفظين المعجمية لا بدلالة البناء، لاتحادهما في ذلك.

ثم إن الانقلاب، بما هو مصير، محتمل لحالين : مصير إلى الخير، ومصير إلى الشر، ولذلك صح استعماله في كليهما في القرآن الكريم، فمن الانقلاب إلى الخير قوله تعالى : ﴿ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾[5]، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

[1] الكشاف، 134/3.

[2] لسان العرب، 169/12.

[3] أفعال المطاوعة واستعمالاتها في القرآن الكريم، د. أيوب جرجيس عطية القيسي، ص : 37.

[4] لسان العرب، 169/12.

[5] آل عمران : 174.

بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾[1]، ومن الانقلاب إلى الشر، أو ما يستوجبه، قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[2]، لأنه بمعنى الردة الموجبة للعذاب.

فلما كان الانقلاب مما يصح فيه التفصيل، على النحو الذي مثلنا له، وافق التعبير استعمال الأداة (أي)، لأنها لمعنى الاختيار بين أمرين، أو التفضيل بين حالين يكون عليهما الشيء[3].

ويعلو أداء التعبير بالانقلاب بيانيا من جهة صلاح التصدير بـ (أي) فيه، كما سبق، وذلك يفيد معنى توعدهم بالمصير إلى الشر، وهم يرون النجاة منه، فيكون لقاؤهم العذاب أشد وأنكر، ففيه بهذا مخالفة ظنهم، ومجانبة توقعهم.

وليس يكون ذلك مع قراءة (منفلت) وهي من الانفلات، وهو التخلص من الشيء والنجاة منه[4]، وذلك لأنه يحتمل وجها واحدا فحسب، وهو المصير إلى الخير أو الأمر المحبوب، فلا يصلح معه التعبير بـ (أي) لما ذكرنا، كما أن قوله (سيعلم) مما يدفع التعبير بالانفلات لأنه معلوم على وجه واحد، أي أنه لا يفصل، بخلاف الانقلاب، فإنه يكون للمرء علم سابق بأحد حاليه : المحبوب والمكروه على وجه الظن أو اليقين.

---

[1] الانشقاق : 7-8-9.

[2] آل عمران : 144.

[3] انظر : تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي، للصيمري، ص : 313.

[4] لسان العرب، 213/11.

إلا أن يقال : إن منفلتا هنا اسم مكان للانفلات، والمعنى : سيعلمون أين يكون تخلصهم منا، كأنه محمول على قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[1].

أو على قول الإنسان نفسه : ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾[2]، فيجاب عنه بأمرين :

– أن اعتباره اسم مكان، يجعل المعنى : أيَّ أماكن النجاة يختارون، وأن الله تعالى سيريهم أيَّ ذلك يكون لهم، وهو معنى فاسد خال من غرض التهديد والوعيد، لأنه لا وجه لتكثير أماكن انفلاتهم.

– أن قوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾، في معنى غير الذي ندرسه في مقامنا هذا، ومثله : ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾، فالأول في التعجيز عن الطعن في القرآن الكريم، والثاني في الذهول من قيام الساعة، فاختلف التعبير باختلاف المقام.

---

[1] التكوير : 26.

[2] القيامة : 10.

ويلحق بهذه الآية، مما يتباعد صوتيا، قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾[1].

فقد قرئ : (غريما)[2]، وقرئ : (عديما)[3].

فأما العائل فهو الفقير المحتاج، وكذا كثير العيال، أي الأولاد، ومن يكون في كفالته[4]، ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[5]، قال أهل التفسير : أي فقرا [6]، ويدل عليه قوله : (يغنيكم)، وأنشدوا له قول الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يَعيلُ[7]

وقول الآخر :

الله نزّل في الكتاب فريضة   لابن السبيل وللفقير العائل[8]

والفعل منه عال يعول، والأمر عائل أي غالب، ومنه قول الفرزدق :

---

[1] الضحى : 08.

[2] معجم مكرم وعمر، 183/8، ومعجم الخطيب، 483/10.

[3] معجم مكرم وعمر، 182/8، ومعجم الخطيب، 483/10.

[4] لسان العرب، 356/10، والكشاف، 265/4.

[5] التوبة : 28.

[6] غريب ابن الهائم، ص : 180، والإتقان، للسيوطي، 93/2 وغريب اليزيدي، ص : 162، واللغات في القرآن، لابن عباس، ص : 27، وغريب السجستاني، ص : 139، وغريب ابن الجوزي، ص : 149، وغريب اليماني، ص : 146.

[7] انظر : جمهرة أشعار العرب، ص : 125، ومعاني الفرّاء، 255/1، وجمهرة ابن دريد، 193/2، والطبري، 549/7، ومجاز أبي عبيدة، 302/2، وجامع القرطبي، 99/20 .

[8] انظر : ديوانه، ص : 99، وروح المعاني، 163/30، والقرطبي، 99/20.

تــرى الغــرّ الغطــارف مــن قــريش إذا مــا الأمـر فــي الحــدثان عــالا[1]

وقول الآخر :

ففـــي قريهـــا برئـــي ولســـت بواجـــد أخـــا ســـقم إلا بمـــا عالـــه طبّـــا[2]

ويظهر، دون إمعان في التفصيل، أن هذه القراءة أنسب لسياق السورة ومقامها بدلالة أمرين :

– ما نعلمه من سيرته صلى الله عليه وسلم من أنه كان في صغره فقيرا.

– الجواب على قوله : (**عَائِلًا**) بقوله: (**فَأَغْنَى**).

أما قراءة (غريما) فمن الغرم، وهو الدين، ويقال للرجل غارم وغريم، فالغارم هو من عليه الدين، ويشمل الغريم من عليه الدين ومن له[3].

ولذلك كانت الصدقة للغارم لأنه المطلوب بالسداد، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[4].

---

[1] ديوانه، ص : 133، وانظر : الزاهر في معاني كلمات الناس، 238/1.

[2] انظر : الزاهر، 238/1

[3] لسان العرب، 41/11، وغريب السجستاني، ص : 147.

[4] التوبة : 60.

وجاء في الزاهر : (وقولهم فلان غريم فلان، إنما سميّ الغريم غريما لإدامته التقاضي وإلحاحه فيه، من ذلك قول الله عزّ وجل : (إن عذابها كان غراما)، معناه : ملحا دائما)[1].

ويدل على ضعف أداء هذا اللفظ في هذا الموضع أمران :

- عدم تصديق السيرة النبوية له.

- بُعد أن يكون الغنى جوابا للغرم، لأنه لا يلزم ممن كان غريما أن يكون فقيرا.

وأما قراءة (عديما) فمن العَدَم والعُدْم، وهو الفقر، وأَعْدَم الرجل يُعْدِم أي صار ذا عُدْم، وعديما أي فقيرا...، والعديم الذي لا شيء عنده[2]، ولم أقف في كتب الفروق على ما يفرق بين الفقر والعدم، أو بين الفقير والعديم، إلى أن بدا لي إمكان أن يكون الفقير صاحب قليل قد يقدر به على القيام بأمره، بخلاف العديم الذي لا قليل معه ولا كثير، قال أبو هلال : (الفرق بين الفقر والإعدام أن الإعدام أبلغ من الفقر وقال أهل اللغة : المعدم الذي لا يجد شيئا، وأصله من العدم خلاف الوجود، وقد أعدم كأنه صار ذا عدم)[3].

وقد تصيدت هذا الفرق من حديث لرسول الله ﷺ يسوي فيه بين القرض للعديم والظلوم، ورأيت أن الجامع بينهما هو عدم سداد القرض عند كليهما وذلك لفقده عند العديم ولإنكاره عند الظلوم، ذلك في قوله ﷺ : (وليس هذا المعنى مما يصح في حق النبي ﷺ فإن فقره لم يبلغ به أن يكون عديما، لا شيء في يده ألبته، والذي أراه، بعد هذا، جوابا

---

[1] الزاهر في معاني كلمات الناس، 340/1، وانظر : معاني الفراء، 272/2.

[2] لسان العرب، 64/10.

[3] الفروق اللغوية، ص : 178.

للعديم هو أعطى، لا أغنى، لأن غاية العديم أن يجد، وغاية الفقير أن يغتني، والله أعلم).

ومما يلحق بهذا الباب ما نراه في قوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[1].

فقد قرئ : (في غرة)[2].

فأما الوجه الأول، فمن أصل لغوي يدل على معاني الشدة والقوة والبأس، وما إليه، وهو يكون بعد ضعف وذل، لذا يقال : عزّ الرجل بعد ضعف، وأعززته أنا جعلته عزيزا، أي قوياً واعتز بي، وتعزز.

وفيه معنى الغلبة، فيقال : عزه على أمره يعزه، إذا غلبه على أمره[3]، وفي المثل: (من عزّ بزّ) أي : من غلب سلب[4].

والمُعازّة المغالبة، تقول : عازّني فلانٌ عزازاً، ومعازّةً فعززته، أي : غالبني فغلبته، ويقال : عززته وأعززته إذا قويته، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾[5]، أي : قوّينا.

وقال الخليل العزازة : أرض صلبة ليست بذات حجارة، لا يعلوها الماء، قال :

مـن الصّـفا العاسـي ويَدْعسـن الغـدر   عـــزازه ويهتمـــرن مـــا انهمـــر

ويقال: العزاز نحو من الجهاد، أرض غليظة لا تكاد تنبت وإن أمطرت، ثم اشتق العزاز من الأرض من قولهم : تعزّز لحم الناقة إذا صلب واشتد، ومن هذا الباب العزاء، وهي السنة الشديدة[6].

---

[1] ص : 1-2-3.

[2] معجم مكرم وعمر، 254/5، ومعجم الخطيب، 75/8.

[3] معجم مقاييس اللغة، 39/4، واللسان، 134/10.

[4] معجم الأمثال، للميداني، ص : 88.

[5] يس : 14.

[6] معجم مقاييس اللغة، 42/4.

فيصير معنى الآية : أنه، مع ما أظهره الله تعالى، لهؤلاء الكفار من الآيات البيّنات الدالة على صدق نبيّه فيما يدعوهم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، إلا أنهم اختاروا المُعازّة والمغالبة، زيادة في العِند والمكابرة، والتكبر عن الحق[1].

ويجمل التعبير بهذا اللفظ إذا روعي فيه معنى العزاز، وهي الأرض الغليظة التي لا تنبت وإن أمطرت، كما سبق، وهو ما عليه حال هؤلاء، فعلى ما جاءهم من القرآن ذي الذكر إلاّ أنّهم لم ينتفعوا به بأن لم يستجيبوا له، ولداعي آياته، وبراهينه ومعجزاته، فهم كأرض بور لا تنبت، وإن أمطرت، قال تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾ [2].

كما يَقْوى هذا المعنى بأن عطف عليه لفظ (الشقاق)، وهو الخلاف والعداوة[3]، بل وحتى المحاربة[4]، وقد جاء عن السّمين الحلبي أنّ حمّادا الراوية لما قرأ : (في غرّة) وردّت عليه، قال : (ما ظننت أنّ الكافرين في عزّة)، قال السّمين : (وهو وهم منه لأن العزّة المشار إليها حميّة الجاهلية)[5].

فأفاد بهذا أن العزة هنا ليست على معناها المحمود إنما هي على معنى الشدّة، والامتناع عن الحق.

---

[1] غريب ابن الجوزي، ص : 317.

[2] الفرقان : 18.

[3] لسان العرب، 112/8.

[4] غريب أبي حيان، ص : 90.

[5] انظر : الدر المصون، 346/9.

أما الغِرّة فالغفلة[1]، وفي المثل : (الغِرّة تجلب الدرة)[2]، أي الغفلة تجلب الرزق، واغتر بالشيء خدع به، وعيش غرير : أبله لا يفزع أهله[3].

وهذه القراءة تنعت الكافرين بالغفلة عن الحق واتباع النظر، كما عبر الزمخشري[4]، وصحيح أنّ القرآن الكريم وصفهم في غير ما موضع بالغرور والغفلة، قال تعالى : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[5]، وقال : ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[6].

- وقال : ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[7].
- وقال : ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[8].

---

[1] اللسان، 32/11.

[2] مجمع الأمثال، للميداني، 103.

[3] اللسان، 11/ 32.

[4] الكشاف، 359/3.

[5] الملك : 20.

[6] الجاثية : 35.

[7] الحديد : 14.

[8] الأنعام : 70.

- وقال : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾[1].
- وقال : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[2].
- وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[3].
- وقال : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[4].
- وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[5].
- وقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[6].
- وقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾[7].
- وقال : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[8].

---

[1] الأنعام : 130.
[2] الأعراف : 51.
[3] الأعراف : 179.
[4] يونس : 92.
[5] النحل : 108.
[6] الروم : 07.
[7] يس : 06.
[8] الأعراف : 136.

- وقال : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[1].
- وقال : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾[2].

إلا أن هذا السّياق من سورة (ص) لا يناسبه وصفهم بالغفلة لوجود معنى الشقاق فيه، وهو الخلاف والعداوة والمحاربة، وكل ذلك مما يلائمه معنى الشدّة والتكبر والتعنّت.

ثم لنا أن نرى أن في قراءة العزّة مزيد بيان على قراءة الغرة في حرف الإضراب (بَلْ)، وذلك أنه يصح أن يقال : إنّه بظهور آيات القرآن وبراهينه، كان الأولى بهم الإيمان، بل هم فعلوا العكس، فاختاروا العناد والخلاف، ولا يسوغ أن يقال: إنّه بظهور الحق اختاروا الغفلة لأنّ الغفلة هي حالهم التي كانوا عليها قبل ذلك.

---

[1] الأعراف : 146.

[2] الأعراف : 205.

2. التباعد الجزئي :

نقصد بالتباعد الجزئي أن يحصل بين وجهي القراءة في الموضع الواحد اختلاف صوتي لا يجاوز الحرف الواحد، أي يكون لفظا القراءة متفقين في جميع حروفهما مختلفين في حرف واحد يكون في الأولى بعيدا صوتيا عن الثانية.

فمن هذا السبيل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1].

فقد قرئ : (خليقة)[2].

فأما القراءة الأولى، فمن الخلافة، وهي من خلف فلان فلانا، إذا حل مكانه[3]، واختلف أهل التفسير في الخليفة من يكون، فقال فريق منهم : هو آدم عليه السلام[4]، والمراد جنس البشر كله، واستدلوا على إرادة الجنس، لا آدم عينا، قول الملائكة عليهم السلام : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[5]، لأنه مما لا يحسن قوله في آدم عليه السلام[6]، وذهب فريق منهم إلى أن الخليفة هم البشر يخلف بعضهم بعضا، أي يتعاقبون جيلا بعد جيل، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾[7].

- وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[8].

---

[1] البقرة : 30.

[2] معجم مكرم وعمر، 41/1، ومعجم الخطيب، 73/1.

[3] لسان العرب، 133/5.

[4] الكشاف، 271/1.

[5] البقرة : 30.

[6] انظر : من أسرار اللغة في القرآن والسنة، 554/2.

[7] الأنعام : 165.

[8] يونس : 14.

- وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾[2].

- وقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾[4].

- وقوله : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[6].

---

[1] يونس : 73.

[2] فاطر : 39.

[3] الأعراف: 169.

[4] مريم : 59.

[5] الأعراف : 69.

[6] الأعراف : 74.

- وقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

ويرى في هذه القراءة ثراء دلالي بتعدد وجوه الفهم عند المفسرين، هذه الوجوه التي قد يكون المقدم فيها استخلاف الإنسان في الأرض لما سبق في علم الله تعالى من الحكمة في ذلك، وأظهر ما يقال فيها استخلافه لعبادته، وإقامة حكمه في أرضه، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3]، وهذا معناه أن إيجاد الإنسان في الأرض مضمن في ما يريده الله تعالى في الأرض، وذلك معنى الخلافة، ولما كان الخليفة مقدرا بقدر إرادة من يستخلفه استحق التكريم بالتبعية لذلك، فجاء قوله : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[4].

ولو صح ما ذهب إليه بعضهم من أن الخليفة هم كل البشر في معنى خلافة الأجيال بعضها بعضا لما استقام أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود التكريم، كما هو معلوم، قال الشيخ ابن عاشور : (الخليفة آدم وخَلَفِيَّتُه قيامه بتنفيذ مراد الله من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي ومما

---

[1] النمل : 62.
[2] الأعراف : 150.
[3] الذاريات : 56.
[4] ص : 72.

يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم)[1].

ولعل قراءة (خليقة)، وهي من الخلق، ومعناه كذلك معروف، تصلح توكيدا لمعنى خلافة أجيال الخلق بعضهم بعضا، وبما سبق ذكره يبين ضعف هذه القراءة البياني وإخفاقها الفني، إذ في معنى الخلق من العموم ما يغيب معه بيان الحكمة من إيجاد الإنسان في الأرض، وهو معنى الاستخلاف لإقامة دين الله في أرضه مما يستحق معه المستخلَف، بفتح اللام، تكريما وإعظاما.

[1] التحرير والتنوير، 399/1.

ويقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

قرئ : (الصادفين)، بالفاء بدل القاف[2].

أما القراءة الأولى فمن الصدق، وأما الثانية فمن الصدوف، ومعناه الإعراض، والآية تذييل وخاتمة لقصة تخلف بعض أصحاب الرسول ﷺ عن القتال معه في غزوة تبوك، أو غزوة العسرة[3]، وفيها ذكر لقوم صدقوا الله تعالى ورسوله في إيمانهم وجهادهم، وآخرين اعتذروا إلى رسول الله بأعذار اختلقوها رغبة عن القتال معه وآخرين تخلفوا واعتذروا وصدقوا في الاعتراف بذنبهم حين تخلفوا، إذ لم يكن لهم عذر، فمدار القصة كله على الصدق في الدين وفي اتباع رسول الله ﷺ لذا تضمنت الآية الكريمة أمرا لمن اعتذروا عن القتال كاذبين بالتقوى والإخلاص في الموقف مع النبي ﷺ والصدق معه في ساعة العسر كما في ساعة اليسر[4].

وقيل : إن المأمور بالصدق قوم من أهل الكتاب أسلموا وآمنوا، فأمرهم، عز وجل، بأن يكونوا في الصدق وسائر الفضائل مع المهاجرين والأنصار[5].

والأمر بالصدق في الآية أشبه بمناسبة ما قبلها من ذكر لقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ معتذرين ثم ندموا وجزعوا مما بدر منهم فأقروا واعترفوا وصدقوا

---

[1] سورة التوبة : 118-119.

[2] معجم مكرم وعمر، 51/3، ومعجم الخطيب، 475/3.

[3] انظر قصة هذه الغزوة ودراستها في : الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب، ص : 410.

[4] التحرير والتنوير، 5-54/11، تفسير أبي السعود، 453/3.

[5] تفسير أبي السعود، 453/3.

في اعترافهم بذنبهم بمخالفة رسول الله ﷺ[1]، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وطهر قلوبهم مما شابها من الغش والكذب، فيكون المرء مستحقا لذلك كله بأن يصدق.

وأما قراءة الصدوف فتضمنت أمرا بالإعراض والميل والانصراف لأن وجوه الصدوف كلها تدور على هذه المعاني[2]، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[3]، أي يعرضون عنها ويميلون وينصرفون عنها فلا يأبهون بها، وفي قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾، أي أعرض وانصرف، ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾[4]، أي يعرضون[5].

وبالنظر إلى سياق الآية في القصة، فإنه لا استقامة لمعنى الصدوف فيها إلا أن يكون أمرا بالإعراض عن الهوى ووساوس النفس ومخالفة أوامر السوء منها، على أن هذا التأويل يضعف لعدة أسباب لعل أهمها :

– أن الأمر بالصدق هو الغالب في القرآن الكريم، ومواضعه كثيرة جدا، بينما لم يرد الأمر بالصدوف في أي موضع، فاللفظ غريب في استعماله.

– أن تأويل الصدوف بالإعراض عن النفس والهوى فيه تكلف وعسف مدفوع ببلاغة القرآن، ومعهود لغته وخطابه، فإنه لم يرد فيه أمر بالإعراض عن شيء إلا وهو متلو بذكر ما يتعلق به، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، 41/9.

[2] لسان العرب، 213/8.

[3] الأنعام : 46.

[4] الأنعام : 157.

[5] تفسير النسفي، 19/2، ومجاز القرآن، لأبي عبيدة، 192/1، وغريب اليزيدي، ص : 137.

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، إذ لم يقل : (كونوا من المجتنبين)، فإن قيل : إن متعلق الصدوف هنا محذوف كما حذف في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2]، أي عنهما، أي عن الخمر والميسر[3]، أجيب عنه بأن متعلق الانتهاء هنا ظاهر لسبق لذكره، أما متعلق الصدوف فغير ظاهر، وهو في تقديره بعيد، وفيه إغراب لا تحتمله فصاحة القرآن الكريم.

ومن التباعد الجزئي ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾[4].

---

[1] الحجرات : 12.

[2] المائدة : 91.

[3] التحرير والتنوير، 30/3.

[4] المزمل : 07.

فقد قرئ : (سبخا) بخاء معجمة[1].

فأما السبح بالحاء، غير المعجمة، فمداره الدلالي على الحركة والاضطراب، والجري والسعي[2]، ومعناه العوم في الماء لأنه حركة فيه واضطراب، وسبح الإنسان في النهار حركته فيه واضطرابه، وسعيه في معاشه وحوائجه، وتصرفه في أموره، وعلى هذا قال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة : إن السبح معناه الفراغ الطويل الذي يصلح لما ذكرنا من السعي والتصرف وطلب المصالح[3]، قال الآلوسي : (أي تقلبا وتصرفا في مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها في الليل)[4].

وقال القرطبي : (أي تصرفا في حوائجك وإقبالا وإدبارا، وذهابا ومجيئا، والسبح الجري والدوران، ومنه السابح في الماء، لتقلبه بيديه ورجليه، وفرس سابح شديد الجري، قال امرؤ القيس :

مسحّ إذا ما السابحات على الونى أثـرن الغبـار بالكديـد المركـل[5]

وقيل : السبح الفراغ، أي : إن لك فراغا للحاجات بالنهار)[6].

جاء من هذا في معنى الحركة والاضطراب قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[7].

---

[1] الكشاف، 176/4.

[2] انظر : لسان العرب، 103/7.

[3] انظر : غريب اليماني، ص : 379، وغريب اليزيدي، ص : 396، وغريب ابن الجوزي، ص : 401، وغريب ابن الهائم، ص : 326، وغريب السجستاني، ص : 111.

[4] روح المعاني، 105/29.

[5] ديوانه، ص : 67.

[6] الجامع، 19/ 42، وفتح القدير، 5/ 420.

[7] الأنبياء : 33.

- وقوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾[2].

ويُرى في هذه القراءة سمو بياني، ورفعة بلاغية، من خلال مقابلة اتخاذ النهار للسعي الدنيوي بجعل الليل ظرفا للعبادة، ووعاء للذكر، ذلك في قوله تعال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[3]، وهو مما يدل على إنعام الله تعالى على عبيده بأن جعل دنياهم بين ليل ونهار لما اقتضته حكمته تعالى من تهيئة كل منهما للمنفعة والصلاح :

- قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾[4].

- وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[5]، وغير ذلك.

وعلى هذا، فإن المعنيين يتقابلان على النحو التالي :

الوجه الأول : إن تكن، يا محمد، قد أمرت بقيام الليل وشغل النفس بالعبادة، فإنا لا نريد بذلك إلى إفساد دنياك، بل لك النهار بطوله للسعي والمعاش وابتغاء فضل الله.

الوجه الثاني : إن يكن لك النهار لما فيه من أسباب العيش فيجدر بك أن تقابل هذه النعمة بجعل الليل لذكر الله تعالى وشكره.

---

[1] يس : 40.
[2] النازعات : 03.
[3] المزمل : 1- 2- 3.
[4] النبأ : 10-11.
[5] - الإسراء : 12.

وقد عبّر عن هذا الشيخ الطاهر بن عاشور قائلا : (شغل النبي صلى الله عليه وسلم في النهار بالدعوة إلى الله، وإبلاغ القرآن الكريم، وتعليم الدين، ومحاجة المشركين وافتقاد المؤمنين المستضعفين، فعبّر عن جميع ذلك بالسبح الطويل وبيّن أن يكون تلطفا واعتذارا عن تكليفه بقيام الليل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيام الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه)[1].

أما السبخ بالخاء المعجمة فيدور على معنيين أساسيين :

أولهما : التخفيف[2]، فيقال في الدعاء : سبّخ الله عنه، أي خفف، وجاء فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة (رضي الله عنها) وقد دعت على سارق سرق من بيتها شيئا : (لا تُسَبِّخِي عنه بدعائك عليه)؛ أي : لا تخففي عنه إثمه الذي استحقه بالسرقة بدعائك عليه، وجاء منه قول الشاعر :

فَسَبِّخْ عليك الهم، واعلم بأنه   إذا قدر الرحمن شيئا فكائن

وثانيهما : السكون، والنوم[3]، وروي عن العرب قولهم : الحمد لله على نوم الليل وتسبيخ العروق؛ أي سكونها.

وقال صاحب اللوامح : (إن من قرأ بهذا الحرف فسّره فقال : سبخا معناه نوما، أي ينام بالنهار ليستعين به على قيام الليل)[4].

---

[1] التحرير والتنوير، 264/29.
[2] انظر : لسان العرب، 106/7.
[3] انظر : لسان العرب، 106/7.
[4] انظر : روح المعاني، 106/29.

ووجهوا القراءة بهذين المعنيين بأن جعلوا سبخ النهار تخفيفا وترويحا للنفس من قيام الليل بأن تصيب من النوم في النهار ما يريحها[1].

وظاهر هذا التوجيه سليم، لكن فيه ما قد ينزل بالقراءة عن مستوى أختها ذلك في وصف السبخ بالطول، إمعانا في الراحة والسكون بما يضيق على السعي والمعاش، وربما يستدل على أن في قراءة النوم الطويل هذه إجحافا بأمر الدنيا بورود الإشارة إلى نوم النهار مع عدم إغفال ابتغاء المعاش في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾[2].

ثم إن مقابلة قيام الليل وعبادته، بسعي النهار ومصالحه، مقابلة بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وذلك توسط مطلوب إلى المسلم مراعاته، ويدل عليه ما سبق من الآيات التي تقابل سكون الليل ومعاش النهار، وكذلك قوله تعالى في قصة قارون : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[3].

بينما تفوت قراءة السبخ والنوم الطويل القصد إلى مراعاة التوسط بين ما يجب لله من العبادة، وما يكون للعبد من الرزق والمصلحة، فإن قيام الليل لا يقابل بالنوم والسكون.

---

[1] انظر : غريب ابن الهائم، ص : 326، وغريب السجستاني، ص : 111.

[2] الروم : 23.

[3] القصص : 77.

ومما يستجيب للبحث ضمن ما يختلف معجميا مع تباعد صوتي جزئي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[1].

إذ قرئ : (ووضعنا عنك وقرك)[2].

ونحب أن نشق سبيلنا إلى التفريق بين أدائي القراءتين البلاغيين بالإشارة إلى أن شرح الصدر في السورة هو عبارة مجازية في معنى التفضل عليه، صلى الله عليه وسلم، بأن وعى صدره الإسلام وتعاليمه، وأحكامه وأخلاقه، فأقدره بذلك على الدعوة ومشاقها

[1] الانشراح : 1- 2- 3.

[2] معجم مكرم وعمر، 187/8، ومعجم الخطيب، 490/10.

لأن هذا التفضل الإلهي إنما جاء في سياق تسليته، صلى الله عليه وسلم، وتصبيره على الدعوة وعلى أذى الكفرة والمشركين[1]، وعلى هذا، فإن شرح الصدر معناه جعلناك تتسع لاستيعاب الإسلام بكل ما فيه ليرى فيك كمال الدين، ولتكون أقدر على الدعوة إليه والإغراء بالدخول فيه، وزيد إلى ذلك الكمال كمال صونك من التأثيم بغفران ما تقدم من ذنبك وما تأخر، لذا قال القرطبي في جامعه : (هذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾)[2].

والمعنى أنه لما كان الكلام في السورة على إقدار النبي على الدعوة الإسلامية صح أن يكون التعبير بوضع الوزر بمعنى العصمة منه، والصون عن ارتكاب ما يسيء إلى الدعوة، فإنه أسوة، وإنه قدوة.

والوزر الذنب حقيقة لا مجازا[3]، وإن يكن في أصل معناه الحمل الثقيل.

وبه يتضح أن التعبير بالوزر أوفق لإصابة معنى الكمال النبوي في الدعوة إلى دين الله بالجمع بين العلم بالإسلام وظهور الالتزام به بالعصمة عن مخالفته، فكان جمال التعبير بضم العمل إلى العلم به.

وأما الوقر فهو الثقل عامة، ويكون في التعبير به إيحاء بنقيض المبتغى به شرح الصدر، ذلك لأن شرح الصدر إقدار على الدعوة، ولكن وضع الثقل، وهو هنا ثقل الدعوة، إذ لا دليل على صرف اللفظ إلى معنى غيره مجازا، أقول، إن وضع الوقر أو الثقل معناه إعفاؤك من الدعوة، ورفع مشاقها عنك بالصرف وتخلية السبيل، وهو معنى

---

[1] انظر مثلا : الكشاف، 266/4.

[2] الجامع، 105/20.

[3] لسان العرب، 202/15.

فاسد، لأنه يهدم المراد من شرح الصدر، كما سبق، إذ لو وضع عنه وقر الإسلام وأعفاه لما كان في شرح الصدر غاية وغرض.

وصحيح أن الوقر معناه في كلامهم الوزر، لكنه إذا استعمل في ذلك احتاج إلى دليل استعماله فيه، ولا وجود له في السورة، ويدل على صحة هذا التفسير استعمال الثقل في معنى الوزر مع وجود الدال عليه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[1].

فقوله : (وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) يدل على أن الأثقال بعده معناها الآثام والذنوب[2]، ولسنا بواجدين ذلك في سورة الانشراح مع قراءة (الوقر)، فليس إلا الوزر لبراءتها من التعارض الحاصل مع قراءة الوقر، وذلك على هذا النحو :

أ- **شرح الصدر** (= الإقدار على الدعوة) + وضع الوزر (= الصون عن الخطأ)

⟷ [كمال الأسوة].

ب- **شرح الصدر** (= الإقدار على الدعوة) + وضع الوقر (= الإعفاء من الدعوة)

⟷ [فساد المعنى بالتعارض والتدافع بين الإقدار على الشيء مع الإعفاء منه].

ومن هذا المبحث ما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾[3].

فقرئ : (التنادّ)[1]، بشد الدال.

---

[1] العنكبوت : 12-13.

[2] انظر : تيسير الكريم الرحمن، ص202، وغريب ابن الجوزي، ص : 281.

[3] غافر : 32.

فأمّا الوجه الأول، فمن التنادي، وهو مصدر الفعل تنادى القوم يتنادَوْن، فهو التنادي من النداء، وهو معروف، وهذه القراءة إشارة إلى ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2]، وقال الشيخ الطاهر بن عاشور : (ويوم التنادي هو يوم الحساب والحشر، سمي يوم التنادي لأن الخلق يتنادون يومئذ، فمن مستشفع، ومن متضرع، ومن مسلم، ومن مهنئ، ومن موبخ، ومن معتذر، ومن آمر، ومن معلن بالطاعة، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾.

- وقال : ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
- وقال : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.
- وقال : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾.
- وقال : ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

---

[1] معجم مكرم وعمر، 44/6، ومعجم الخطيب، 221/8 .

[2] الأعراف : 44-45-46-47-48-49-50.

• وقال : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، ونحو ذلك)[1].

وإن احتمل أن يكون غير ذلك، كتصايُحهم بالويل والثبور، كما عند الزمخشري[2].

والتنادي على وزن التفاعل، لأنه مما يشتركون فيه، فينادي بعضهم بعضا، وكلام أهل النار وأهل الجنة، أو أهل النار إلى بعضهم وارد في القرآن الكريم.

وأما الوجه الثاني فمن التنادد، بفكّ المدغم، وهو من نادده ينادِده، من الندّ، وهو الفرار والهروب، والشرود والفراق، فيقال : ندَّ البعيرُ ندًّا ونُدودًا : ذهب على وجهه شاردا[3].

وعلى هذا الوجه يكون المعنى أنه يوم ينفر فيه الناس من بعضهم ويفرون، وهو معنى معروف في القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[4]، ومما يزيد في قوة هذه القراءة قوله بعده : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[5].

كما قد يكون من تقويتها أن يكون التنادّ، مشددا، من اللجوء إلى الجبال والمرتفعات طلبا للعصمة والمنعة، فإن النّدّ، كما عند ابن دريد، هو التل المرتفع في السماء[6]، ويدل عليه قوله : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[7]، وقد قال ابن نوح

---

[1] التحرير والتنوير، 24/ 136 .

[2] الكشاف، 426/3.

[3] معجم مقاييس اللغة، 355/5، واللسان، 222/14.

[4] عبس : 34-35-36-37.

[5] غافر : 33.

[6] جمهرة اللغة، 76/1، ومعجم مقاييس اللغة، 355/5، واللسان، 223/13.

[7] غافر : 33.

(عليه السلام) : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[1]، وكل ذلك مما يُرى سائغا غير مدفوع.

وقد بدا لي معنى لطيف قد يصلح لجعل قراءة التنادي في مرتبة أرفع من الثانية في إصابة الغرض من تصوير هول يوم القيامة، وذلك أن الجواب بقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾، يدل على أن فرارهم منه، عزّ وجل، خوفا من بطشه بهم، وهم إذ يفرون من الله تعالى فإلى بعضهم، وإلى أهليهم، لذا كان في القرآن إبطال لأن يغني بعضهم عن بعض، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2]، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[3].

وغيره مما لا يستقيم معناه إلا بأن يلجأ بعضهم إلى بعض طلبا للشفاعة والمجازاة، لذا يكون بعد ذلك فرار من بعضهم، فيفر المرء من أخيه وأمه وأبيه و...، لكن لم يرد في جملة البدل جواب على فرارهم من بعض، إنما هي جواب لفرارهم من الله تعالى، وذلك على ما نبينه هنا:

– إنه لو كان اللفظ من الفرار من بعضهم لما أجاب بأنه لا فرار من الله، وهو لم يرد أنه فرار من الله، لأنه عبر بصيغة الاشتراك، فقال : التنادد، ولو أريد إلى معنى الفرار من الله لقال: يوم النّد، لا التنادّ، بالتشديد، فدلّ بالصيغة على أنه فرار من بعضهم، ودلّ بالجواب على أنه فرار من الله، فتدافع التعبير، فضعفت القراءة.

---

[1] هود : 43.

[2] البقرة : 48.

[3] لقمان : 33.

- ولما كان اللفظ من النداء، وهو فرار إلى بعضهم طلبا للعصمة من الله، جاء الجواب بقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ ﴾، فاتحد طرفا التعبير وخلص لمعنى الآية صفاؤه، وإصابة الغرض منه.

الباب الثاني:

الفروق الأدائية البيانية

في القراءات المختلفة معجميا في الأفعال

الفصل الأول:

الفروق الأدائية في وجوه ما وافق المعنى

أولا:

فروق المعاني : أو الترادف

وعلى الأساس المنهجي الذي درسنا به وجوه التفاوت البياني بين القراءات المختلفة معجميا في الأسماء، ندرس ما يكون من ذلك في الأفعال، فمما نطلبه هنا للبحث ضمن ما سميناه افتراق المعاني :

1. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس اعتبار الحال :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

فقد قرئ : (وإذ قال ربكم)[2].

فمدار النظر هنا على التفريق بين فعل القول، وفعل التأذن، فأما الفعل (تأذَّن)، فمن أصلين لغويين متقاربين في المعنى، أحدهما الأذن، وهي الجارحة التي للسمع، والآخر العلم[3].

فالمعنى على هذا، (وإذ أعلم ربكم)، أي أوقع في علمكم، وأنهى إلى أفئدتكم وعقولكم العلم بما يكون مع الشكر من الزيادة في الأجر والمثوبة، وبما يكون مع الكفر من العذاب وسوء المصير، ويدل على معنى إنهاء العلم وإيصاله كون الأذان من هذا الأصل اللغوي لأنه إعلام بما يكون فيه[4]، كالأذان للصلاة، أي الإعلام بوجوب أدائها، ويظهر مع ذلك أن الأذان مع تضمنه معنى القول، يزيد عليه حصول إيصال مضمون القول ومحتواه، وكذا إبلاغه وإنهائه إلى الموجه إليه.

وعلى هذا يكون اختيار هذا اللفظ أحرى بمراعاة العدل في العبيد، إذ المعتبر معهم هو ما يقتضيه حال الممتحن فلا يستقيم امتحان يعقبه جزاء وحساب إلا بسبق إعلان وأذان، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[5].

---

[1] إبراهيم : 07.

[2] معجم مكرم وعمر، 229/3، ومعجم الخطيب، 456/4.

[3] انظر : لسان العرب، 78/1، ومعجم مقاييس اللغة، 75/1، وغريب اليماني، ص : 191.

[4] لسان العرب، 78/1.

[5] الإسراء : 15.

ولا يرى في القول لزوم الإيصال إلا أن يصحبه في السياق ما يدل على فعل التبليغ والإيصال، ولنا أن نمثل له بقوله تعالى، على لسان نبيه نوح عليه السلام، لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾[1]، ومضمون رسالات ربه قول سبق في سياق القصة، في قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2]، وبقي حديث عن مجيء الفعل في بناء (تَفَعّل) فيحمل على وجهين :

أولهما : جواز أن يكون في معنى (أفعل) أي آذن، قال الفراء : (معناه أعلم ربكم، وربما قالت العرب في معنى أفعلت تفعلت، فهذا من ذلك، والله أعلم، ومثله أوعدني وتوعدني، وهو كثير)[3].

وثانيهما : أن يكون مراعاة للدلالة على تكرار الحدث طلبا للتثبت والتيقن، وفيه قال سيبويه : (وأما تفهّم وتبصّر وتأمل فاستثبات بمنزلة تيقن)[4]، وبه يرجع إلى الدلالة على تحري اليقين في بلوغ محتوى القول إلى الموجه إليه، طلبا للعدل والإنصاف.

وبهذا يكون الفعل (تأذن) أولى بالتعبير عما يقصد إليه موسى عليه السلام من كلامه إلى قومه، فإنه يذكرهم بأن كلام الله، ووعده لهم، قد بلغهم، قصدا إلى التنبيه إلى ما أنعم الله عليهم به من العدل والإنصاف، وذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[5].

---

[1] الأعراف : 62.

[2] الأعراف : 59.

[3] معاني القرآن، 69/2، وانظر : أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، د. نجاة الكوفي، ص : 187.

[4] الكتاب، 72/4.

[5] إبراهيم : 6-7.

أما قراءة القول، فتخلو من معنى حصول البلوغ والوصول، فكأن موسى، عليه السلام، يخبرهم بما قال ربهم لوقته، لا لما سبق إليهم من قوله، وهذا الإخبار بقول الله لهم صالح في غير هذا السياق، فقد جاء في القرآن : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[1].

والإخبار بالقول لا يصلح في سياق الآية التي ندرسها هنا، لأن السياق نفسه جاء في قوله تعالى، على لسان موسى (عليه السلام) : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[2]، والاستفهام فيه لغرض الإنكار والتوبيخ والتقريع، أي أنه ينكر عليهم تجاهل ما كان بلغهم من قول الله تعالى إليهم[3]، ففي (تأذن) إفادة بسبق كلام الله إليهم مع الأنبياء المرسلين إليهم بخلاف (قال) فإنه لعمومه لا يفيد سبق البلوغ، والله أعلم.

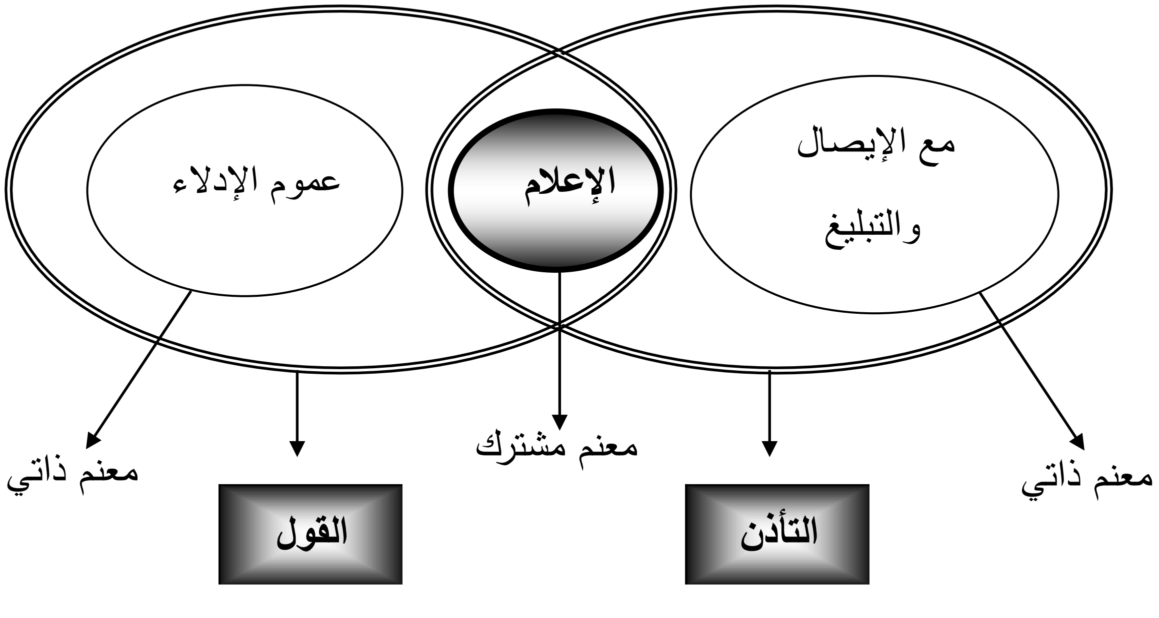

[1] النحل : 51.

[2] إبراهيم : 09.

[3] انظر : معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، د. محمد صالح مخيمر، ص : 34.

2. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الإطلاق والتقييد:

ومما قرئ بمرادف له ونطلبه هنا، لبحث افتراق المعنيين فيه، قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾[1].

قرئ : (أفظن)[2].

تفيد كتب اللغة أن كلا الفعلين في معنى الشك واضطراب الفكر بين حالين لا يستقر على أحدهما، على أن النظر في وجوه الاستعمال القرآني للفعلين، وما يكون من مادتهما يؤول إلى أن بين الظن والحسبان أو الفعلين (ظن) و (حسب)، فرقا يتضح من جهة تطبيق مقياس الإطلاق والتقييد، لكن الفعلين في هاتين القراءتين مقيدان مطلقهما الشك[3].

فالشك مطلق لعدم ارتباطه بزيادة على معنى الاضطراب، ولذلك يعرفه الراغب الأصفهاني بأنه اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وهذا ينتج عن عدم وجود أمارة مرجحة لأحد الطرفين أو لوجود أمارتين متساويتين[4].

فأما الظن، فهو ما يتقيد من الشك بغلبة اليقين فيه، لذا قيل : إن غالب الظن في القرآن الكريم يقين[5]، ولنا أن نتتبع ورود الظن في كلام الله لنقف على إمكان حصول اليقين في جميع مواضع الظن، فمنها :

---

[1] الكهف : 102.

[2] معجم مكرم وعمر، 18/4، ومعجم الخطيب، 313/5.

[3] لا نستحب في هذا الموضع إغفال الريب، فإنه كذلك من مقيد الشك، لذا قيل : إن الريب شك وزيادة تهمة، أي هو شك الاتهام، انظر : فروق الجزائري، ص : 110، وفروق العسكري، ص : 92.

[4] مفردات الراغب، ص : 388، وانظر : الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 227.

[5] انظر : الكشاف، 489/2.

- ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[1] أي : أيقنوا[2].
- ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ﴾[3]؛ أي : أيقنت[4].
- ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[5]؛ أي : أنه أيقن أن لا يكون ذلك لذا اطمأن إلى الدنيا وأنكر البعث... الخ.

ذلك الظن، أما الحسبان فعلى ما أدى بنا النظر في استعمال القرآن له فإن قيده الاختصاص بالتوهم والاعتقاد الخطأ، ويدل عليه أن القرآن يورده في سياق التهكم بصاحبه والسخرية منه، فمن ذلك :

- ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[6]، لأنه اعتقاد خاطئ.
- ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[7] لأنهم واهمون مخطئون.
- ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾[8]، وهو اعتقاد منه خطأ.
- ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[9].

---

[1] الكهف : 53.
[2] انظر : الكشاف، 489/2.
[3] الحاقة : 20.
[4] انظر : الكشاف، 153/4.
[5] الكهف : 36.
[6] العنكبوت : 02.
[7] الكهف : 104.
[8] الهمزة : 03.
[9] المؤمنون : 115.

- ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[1].
- ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2]، ينهاه عن أن يتوهم ذلك فيخطأ.
- إلى غيره من مواضع كثيرة، ويدل عليه ورود الحسبان في بعض المواضع مع الرد عليه وإظهار خطئه، ومن ذلك :
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3] فرده بقوله : (بل أحياء).
- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[4]، فرد عليهم بزيادة الإثم والعذاب المهين.
- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[5]، فرد عليهم بكونه شرا لا خيرا.
- ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[6]، فرد بقوله : (وما هو من الكتاب).

وعلى هذا تكون قراءة (حسب) وضعا للآية في واديها الدلالي حيث يقصد إلى تخطئة اعتقاد الكفار، والكشف عن بطلانه، لذا صرح بما يدل على وهمهم قال :

---

[1] المائدة : 71.
[2] آل عمران : 188.
[3] آل عمران : 169.
[4] آل عمران : 178.
[5] آل عمران : 180.
[6] آل عمران : 78.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾[1] ثم رد على ذلك قائلا : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾[2].

أما قراءة : (ظن)، فخروج بالآية عن غرضها بأن جعلت الكفار على يقين من ولاية غير الله، ثم يكون استفهام عن حصول ذلك منهم، ففيه بعد عن المراد.

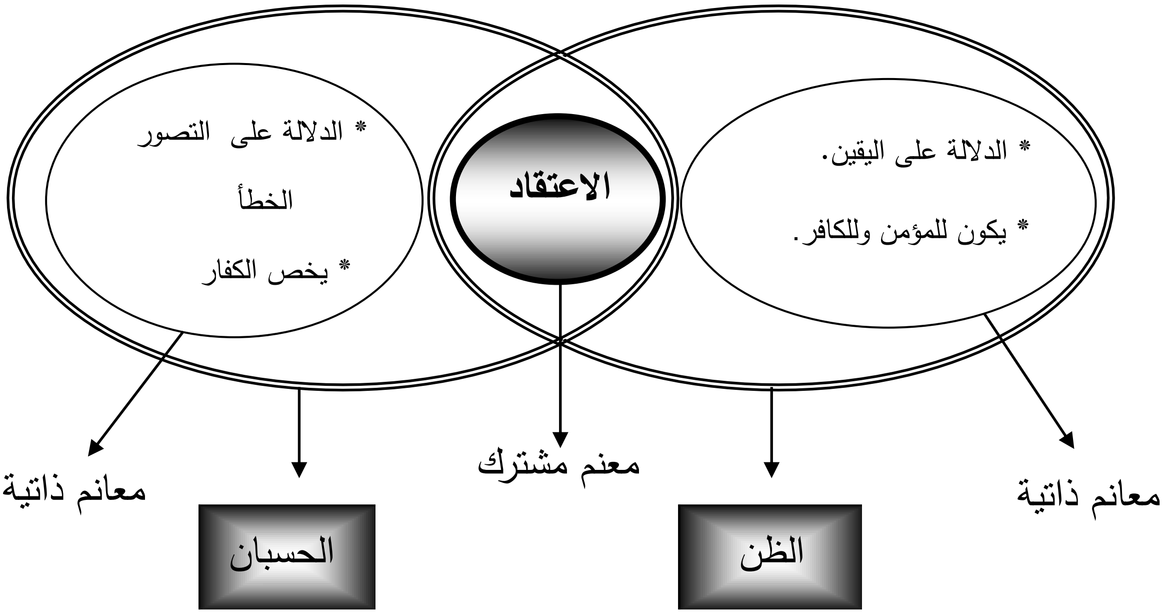

[1] الكهف : 102.
[2] الكهف : 102.

3 . **الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس العموم والخصوص :**

جاء من هذا قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

إذ قرئ : (يقسمون)[2].

وكلاهما الحلف واليمين، فأما (يولون) فمن آلى وائتلى، إذا حلف[3]، ومصدره الألية والائتلاء، وصيغ أخرى غير هذين.

ومدار هذا الأصل على معنيين، هما : الحلف والتقصير، وفي دلالته على التقصير بيان لخصوص الإيلاء، دون اليمين والحلف والقسم، وذلك لأنه حلف على تقصير، أي ترك وامتناع[4].

وقد جاء في القرآن الكريم من (آلى) بمعنى التقصير قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]، فقوله : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يعني : لا يقصّرون في إفساد أموركم، ولا يبقون غاية في إلقائكم في الخبال، وهو الفساد[6].

وورد اللفظ بمعنى الحلف في موضعين :

---

[1] البقرة : 226.

[2] معجم مكرم وعمر، 173/1، ومعجم الخطيب، 311/1.

[3] معاني الزجاج، 257/1، وغريب السجستاني، ص : 226، وغريب اليماني، ص : 76، وغريب ابن الجوزي، ص : 60، وغريب ابن الهائم، ص : 108، وغريب اليزيدي، ص : 93، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 93/1.

[4] انظر : معجم مقاييس اللغة، 128/1، ومفردات الراغب، ص : 103، والترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 172.

[5] آل عمران : 118.

[6] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 93/1.

– **الأول** : قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]،

فيأتلي مضارع ائتلى، وهو افتعل من الآلية، وهي الحلف[2].

– **الثاني** : قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، وهي الآية التي تحت نظرنا هنا.

وخصوصية الإيلاء تعلقه بالامتناع عن الشيء والتقصير فيه، وهو ما يصلح لهذا الموضع من القرآن، إذ الإيلاء هو الحلف على الامتناع عن إتيان الزوجة، والتقصير دونه، حتى إن أبا حيان جعل الإيلاء خاصا بهذا دون سواه، فقال : (كل يمين منعت جماعا فهي إيلاء)[4].

وعلى المنع والتقصير يخرج ائتلاء آية النور : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾، فقد نزلت في أبي بكر الصديق وقد كان أقسم أن يمنع ابن خالته مسطحا نفقته عليه لخوضه في الإفك[5]، فعلى هذا يكون الإيلاء أنسب بيانا بالآية وأوفى بالمراد منها.

وأما القسم فهو الحلف كذلك، وقد اجتهد العسكري في التفريق بينه وبين الحلف بما لا مقنع فيه[6]، وإن كان يعنينا هنا البحث في مناسبته البلاغية لمقام الآية فيقع التفريق بينه وبين الإيلاء، لكن بدا لبعضهم التفريق بين الحلف والقسم بغير ما رأى أبو هلال العسكري، فجعلوا الحلف ما يكون كاذبا[7]، كالذي في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا

---

[1] النور : 22.

[2] البحر المحيط، 440/6.

[3] البقرة : 226.

[4] البحر المحيط، 181/2.

[5] انظر : لباب النقول، للسيوطي، ص : 47، وأسباب النزول، للواحدي، ص : 185.

[6] انظر : فروق العسكري، ص : 47.

[7] انظر مثلا : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 220، والفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص : 238.

وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[1]، وقوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[2]، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[3].

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾[5].

لذا ذم النبي صلى الله عليه وسلم الحلف لاقترانه بالكذب والتزوير، وقال : (إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب فشوبوه بالصدقة)[6].

وأما القسم فجعلوه للأيمان الصادقة، بخلاف الحلف، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[7]، لأنه من قسم الله تعالى.

وقوله : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[8]، حيث لا يحل الحنث في اليمين.

---

[1] التوبة : 42.

[2] التوبة : 74.

[3] التوبة : 107.

[4] المجادلة : 14.

[5] القلم : 10

[6] انظر : مسند أحمد، 06/4، وسنن ابن ماجة، 726/2، وسنن أبي داود، 108/2.

[7] الواقعة : 76.

[8] المائدة : 107.

وأما القسم مسندا في القرآن إلى المجرمين والكفار فلأنهم عند أنفسهم صادقون غير كاذبين، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[1]، وغير ذلك مما يتضح به أن خصوص الحلف كذبه، وأن خصوص القسم صدقه[2]، كما أن خصوص الإيلاء منعه، وكل ذلك يمين.

وعلى هذا يظهر أن لا وجه للتعبير بالقسم في هذه الآية لأنه لا اعتبار لصدق أو كذب في الامتناع عن إتيان الزوجة، ولو أنا أخذنا بالتفسير الذي يجعل القسم من أخذ النصيب من الشيء، أي بالنظر إلى مادة القسم، ومنها القسمة والاقتسام[3]، أقول : لو أخذنا على هذا لارتد إلى ضد معناه لأن الزوج يمتنع عما له من زوجته امتناعا لا نصيب له من بعده.

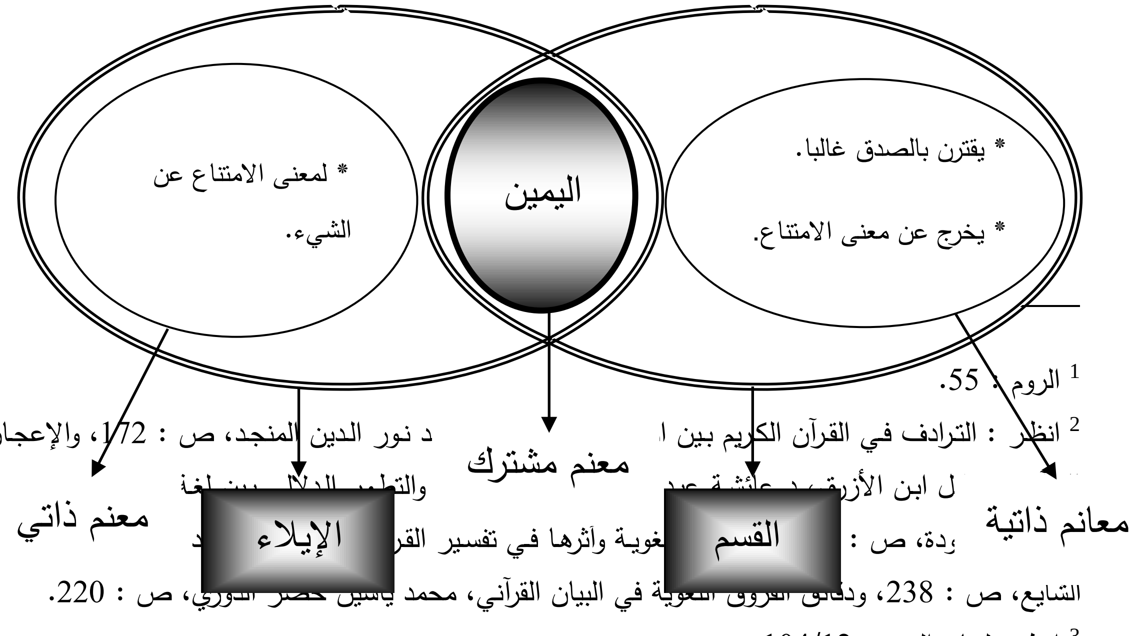

[1] الروم : 55.

[2] انظر : الترادف في القرآن الكريم بين ا[illegible] د نور الدين المنجد، ص : 172، والإعجاز البياني [illegible] ل ابن الأزرق، د عائشة عبد [illegible] والتطور الدلالي بين لغة [illegible]، عودة [illegible] ودة، ص : [illegible] لغوية وأثرها في تفسير القرآن [illegible] صالح الشايع، ص : 238، ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسين خضر الدوري، ص : 220.

[3] انظر: لسان العرب، 104/12.

4 . الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس القوة والضعف:

هذا أحد المقاييس التي يُتوسل بها إلى التفريق بين ما يظن به الترادف، ومما جاء منه قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1].

فقد قرئ : (جئنا بها)[2].

وهذا مبحث قد نطيل فيه النظر والاستقصاء، ذلك لأن التفريق بين الإتيان والمجيء مما شغل غير واحد من اللغويين، قدماء ومتأخرين، ولقد كشفوا عن صعوبة بالغة في ابتغاء هذا الفرق بينهما، يدل على ذلك اضطراب آرائهم ونزوعها إلى التمحل أحيانا :

ذهب تاج القراء الكرماني إلى أن لا فرق دلاليا بين الفعلين (جاء) و(أتى)، وهو عزّ وجلّ، إنما قال في سورة طه (فلما أتاها)، فلكثرة دوران لفظ (أتى) فيها، وذلك في : ﴿فَأْتِيَاهُ﴾[3]، وفي ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾[4]، وفي ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾[5]، وفي ﴿ ثُمَّ ائْتُوا ﴾[6]، وفي قوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾[7]، وقال في سورة النمل : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾[8]، لأن لفظ (جاء) في النمل أكثر، كقوله فيها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾[9] وقوله : ﴿ وَجِئْتُكَ ﴾[10].

---

[1] الأنبياء : 47.

[2] معجم مكرم وعمر، 139/4، ومعجم الخطيب، 28/6.

[3] طه : 47.

[4] طه : 58.

[5] طه : 60.

[6] طه : 64.

[7] طه : 69.

[8] النمل : 08.

[9] النمل : 13.

[10] النمل : 22.

وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾[1]، ثم رأى الكرماني أنه أوثر في القصص التعبير بـ (أتى) إلحاقا لها بسورة طه لقرب ما بينهما[2]، وعلى هذا المذهب نجد زكريا الأنصاري أيضا[3].

وهو تفسير لا يكاد يظفر معه الدارس بشيء لأنه يقوم على ملاحظة شيء من المشاكلة اللفظية في التعبير باللفظ الواحد في عموم السورة، وهذا يحيل على سؤال قد يرجع بالبحث إلى مبدئه هو :

– ما الغرض من إيثار تعميم الإتيان في طه وتعميم المجيء في النمل ؟.

وقد اجتهد محمد نور الدين المنجد في رد تعليل الكرماني القائم على كثرة ورود الفعل، بأن الأَوْلى في ذلك مجانبة التكرار في لفظ الفعل دفعا للملل[4]، ولا أرى هذا اعتراضا قد يظفر بشيء، أو قد ينال من تعليل الكرماني شيئا، لأن تباعد ما بين مواضع اللفظ (أتى) في طه، واللفظ (جاء) في النمل، يجعل احتمال حصول الملل غير وارد ألبته، إذ من المعلوم أن الملل إنما يكون من تقارب الذكر، لا من تباعده.

كما رد عليه تعليل التعبير بـ (أتى) في القصص، لقرب ما بينها وبين طه، بأن النمل أقرب إلى طه من القصص[5]، ولا أرى في تعليل الكرماني ولا في رد المنجد شيئا ذا بال، إذ لا أكاد أجد وجه صلة بين النظر في التفريق بين (جاء) و(أتى) وقرب السور من بعضها، وبعده تلاوة كان ذلك، أم نزولا.

لكن الذي اشتط فيه المنجد هو إقامة مناقشته للكرماني في بعض تفسيره على ما لم يجنح إليه، فقد علل الكرماني قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ في النمل، بأنه لما قال قبلها: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

---

[1] النمل : 36.

[2] انظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ص : 174.

[3] انظر : فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص : 193.

[4] الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 147.

[5] الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 147.

﴿تَصْطَلُونَ﴾[1]، وفيه تكرار لفعل الإتيان، عدل لأجله إلى (جاءها) إيثارا للخفة ودفعا لثقل التكرار.

والذي سوغ العدول، عند الكرماني، أن (أتاها) و (جاءها) بمعنى واحد[2]، فبدا، من ثم، للمنجد أن الكرماني وقع في أمرين يوشكان أن ينقضا تعليله الأول القائم على مراعاة المجانسة اللفظية في سورتي طه والنمل، وفي والقصص، بعد ذلك، إلحاقا لها بطه.

فأما الأول، فإن مراعاة المشاكلة اللفظية التي علل بها التعبير بـ (أتى) في طه، وبـ (جاء) في النمل، تنتقض في النمل ذاتها بالعدول عن كثرة (أتى) إلى التعبير بـ (جاءها) كما سبق، فكأني بالمنجد يواجه الكرماني بقوله: لم لم يراع كثرة الورود في النمل نفسها فعدل إلى المجيء كما تقول أنت ؟.

وأما الثاني، فإن الكرماني لما علل العدول عن الإتيان إلى المجيء في النمل بكونهما بمعنى واحد فإنه، حسب المنجد، يكون قد أقر بالترادف بينهما، وأنه ما روعي في هذا العدول غير الخفة والثقل[3].

ووجه الشطط في مناقشة المنجد هذه هو أن الكرماني حين علل التعبير بـ (أتاها) في طه وبـ (جاءها) في النمل بكثرة الدوران في السورة، فإنه عبر بذلك عن تفريق دقيق بين الدوران والتكرار، فالدوران الذي عبر به الكرماني يدل على تباعد الذكر، لأنه يقتضي ذلك ليصح معنى الدورة، أي أن الابتعاد عن اللفظ ثم الرجوع إليه هو الدوران، بخلاف التكرار الذي معناه الخروج عن اللفظ إليه والرجوع إليه عن قرب، وهو ما لم ينتبه إليه المنجد فجعل كلام الكرماني قائما على معنى التكرار لا الدوران، ثم إن الكرماني لم يذكر في تعليل التعبير بـ (أتى) في طه وبـ (جاء) في النمل لفظ التكرار إنما عبر بكثرة الدوران، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن المنجد دفع تعليل الكرماني

---

[1] النمل : 07.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص : 191.

[3] انظر : الترادف في القرآن الكريم، ص : 147.

بالتكرار في النمل بأنه مناقض لتعليله في طه وبأنه أقر في النمل بترادف اللفظين وفي هذا شطط من وجهين :

- **الأول** : أن الكرماني علل في طه بالدوران وفي النمل بالتكرار وهما مختلفان في ما يحسبهما المنجد واحدا.

- **والثاني** : أن الكرماني صرح في تعليل (طه) بقوله بترادفهما[1]، فلا داعي للقول بأنه أقر بذلك في تعليل النمل.

وعلى هذا، فإن الكرماني يجعل من ترادف الفعلين مسوغا للعدول عن أحدها إلى الآخر لعدم إهدار المعنى، ولتجنب تكرار المبنى لا لتجنب الدوران الذي لم يتبين المنجد معناه الدقيق، إذ إن الذي في النمل تكرار لا دوران والذي في طه دوران لا تكرار.

وجملة القول أن الكرماني ناجٍ من التناقض فيما ذهب إليه، وإن لم يصب به الغاية من بحث وجه التفريق بين (أتى) و(جاء).

ذهب أبو هلال العسكري إلى أن التعبير بـ (جاء) لا يحتاج إلى صلة، أي تكملة للكلام، لتمامه، كقولنا : جاء فلان، أما التعبير بـ (أتى)، فغير تام يحتاج إلى تكملة، كقولنا : أتى فلان بماله، واستدل على صحة هذا بجواز توكيد (جاء) وعدم جواز توكيد (أتى) فيقال : جاء فلان نفسه، ولا يقال : أتى فلان نفسه، ثم كان أن كثر استعمال أحدهما في موضع الآخر[2].

وإنما استدل العسكري بجواز التوكيد لأنه لا توكيد إلا بعد تمام الكلام، وقد رد المنجد تفريق العسكري بأمرين :

- **أولهما** : أنه لم يستشهد لصحة ما ذهب إليه بشيء.

---

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص : 174.

[2] فروق العسكري، ص : 305.

– **ثانيهما** : أنه جاء في القرآن ما يدل على استواء اللفظين في الاستغناء عن الصلة كقوله تعالى : ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1]، كما جاء فيه ما يدل على استوائهما في الاحتياج إلى الصلة، كقوله تعالى : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾[2] ورد فيه توفيق واعتدال في إثبات عدم إصابة العسكري وجه الفرق بين التعبير بـ (جاء) والتعبير بـ (أتى)[3].

ذهب الراغب الأصفهاني إلى إمكان التفريق بينهما بأن يكون الإتيان باعتبار القصد وأن يكون المجيء باعتبار الحصول[4]، ويمكن نقضه بقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5]، لأن هذا المجيء لم يحصل بعد إذ هو مما يكون يوم القيامة[6].

وأضاف الراغب أن المجيء مما يقال في الأعيان والمعاني ولما يجيء بالذات وبالأمر ولمن قصد مكانا أو عملا أو زمانا[7].

وقد رد المنجد هذا بأنه مما يشترك فيه المجيء والإتيان، فلا اعتبار له[8]، كما يلاحظ أن في ربط المجيء بجميع هذه الاعتبارات فضفضة وتوسيعا يوشك أن لا ينضبط بقانون محكم.

---

[1] الأعراف : 129.

[2] الأعراف : 106.

[3] الترادف في القرآن الكريم، ص : 145.

[4] مفردات الراغب، ص : 97.

[5] الفجر : 22.

[6] الترادف في القرآن الكريم، ص : 145.

[7] مفردات الراغب، ص : 96.

[8] الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 145.

كما رأى الأصفهاني أن الإتيان يكون بسهولة[1]، لما التمسه في لفظه من ضعف صوتي، ونقضه المنجد بورود اللفظ في سياقين متشابهين، هما قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وقوله : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، ولكن في هذا النقض نظرا لأنه مبني على التسليم بتشابه السياقين[4].

ذهب بدر الدين الزركشي إلى إمكان اعتماد الفارق الصوتي، حيث قد يرى في النطق بـ (أتى) خفة وسرعة، وفي النطق بالمد في جاء ثقلا وبطأ[5]، ففي الإتيان، من ثم، سمة ضعف، وفي المجيء سمة قوة.

وقد بدا للمنجد أن هذا مما لا يصلح فارقا لعدم تجاوزه بنية اللفظ إلى الدلالة التي يقوم على أساس منها التفريق بين اللفظين[6]، وفي هذا نظر كذلك، إذ إن للبناء الصوتي قيمة تعبيرية ودورا أدائيا لا يمكن إغفاله بحال.

ذهب الدكتور فاضل صالح السامرائي إلى ما يقرب من فكرة الزركشي، إذ رأى استعمال المجيء لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو أشق وأصعب مما يستعمل له (أتى)، وقد كان له في هذا تطويل على القدر الذي بدا له معه تحقق التفريق بين اللفظين باعتماد هذا الفارق، فالله تعالى يقول : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[7]، ويقول :

---

[1] مفردات الراغب، ص : 97.

[2] الشعراء : 89.

[3] الصافات : 84.

[4] الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 145.

[5] البرهان في علوم القرآن، 80/4.

[6] الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ص : 145.

[7] المؤمنون : 27.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1]، ويقول : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾[2]، و﴿نُكْرًا ﴾[3]، ويقول : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[4]، وغير ذلك، وكله مشقة وشدة.

ويقول السامرائي إنه تعالى آثر التعبير بـ (أتى) في : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[5]، رغم ما في الغاشية من شدة، لأن الذي أتى هنا هو الحديث وليس الغاشية، ثم يمضي في بيان إمكان تعميم هذا الفارق على كل ما جاء من (أتى) و (جاء) في القرآن الكريم[6]، وقد مضى معه في هذا التفسير بعضهم[7].

وذهب محمد نور الدين المنجد إلى وضع أساس للتفريق بين اللفظين قوامه النظر في إحاطة معاني الغموض والشك، والجهل والتكذيب، والغيب وعدم القصد بالإتيان، وكذا إحاطة معاني الجلاء واليقين، والعلم والتصديق، وتحقق الوقوع بالمجيء، وهو ما يقضي بعدم اعتقاد الترادف بين (أتى) و (جاء) في القرآن الكريم[8].

وأقل ما يقال للمنجد إنه وقع فيما وقع فيه الراغب من الإكثار في رصد ما يكون به التفريق بين اللفظين في الوقت الذي يقوم فيه الضبط العلمي على مراعاة الاقتصاد ما أمكن في رد الظاهرة اللغوية إلى قوانينها المتحكمة فيها، وهو ما يعبر عنه لدى المشتغلين بالهيكل العلمي للعمل اللغوي بالتعميم : (وهو القواعد العامة التي تنطبق على كثير من الجزئيات والأفراد، وهي بذلك تختزل المادة اللغوية التي تكون نهائية في مجموعة نهائية وقليلة من القواعد والأنظمة)[9].

---

[1] ق : 19.

[2] الكهف : 71.

[3] الكهف : 74.

[4] مريم : 27.

[5] الغاشية : 01.

[6] انظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص : 74.

[7] انظر مثلا : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسين خضر الدوري، ص : 229، وظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، التركيب والرسم والإيقاع، د. عمر عبد الهادي عتيق، ص : 72.

[8] الترادف في القرآن الكريم. ص : 146.

[9] النظرية اللغوية في التراث العربي، أ. د. محمد عبد العزيز عبد الدايم، ص : 37.

وعلى هذا فإن الذي يعيب محاولة المنجد هو افتقارها للاختزال الذي يهب قاعدة عمله اقتصادا يرد فوارقه إلى أقل مما عرض.

وعليه، فإنا نعرض رأيا نحب له أن يتأسس على ملاحظة هامة هي أن الفارق الصوتي الذي قال به الزركشي يكاد يكون المدخل الحقيقي لبلوغ الغاية من هذا المبحث، فإن القول بالخفة والسرعة في (أتى) والثقل في (جاء) هو الذي أوحى للسامرائي بربط الإتيان بالسهولة واليسر وربط المجيء بالمشقة والصعوبة على ما فصله في كتابه المحال عليه آنفا[1].

لكن اجتهاد السامرائي في رد كل ما في القرآن إلى هذين الفارقين أوقعه في غير قليل من العسف والتمحل، وقد نكتفي بالتدليل على ذلك بتعليل الإتيان في آية الغاشية بأنه للحديث لا للغاشية، وأنه أوفق للسهولة واليسر، وهو بعيد لأن الحديث عن الغاشية يصب في غرض الإشعار بهولها وصعوبتها وترهيب النفس من لقائها، ولا يتصور أن في حديث ما صعوبة أو سهولة إلا بالغرض الذي يساق له، فالحديث في الشاق شاق وفي السهل سهل، ولا يكون حديث سهل في غرض تهويلي.

ثم هو يفرق بين ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾[2] في النحل، وبين ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾[3] في غافر بأنه لقوله في الثانية: ﴿ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾، وأن في ذلك مشقة وصعوبة ليست في آية النحل[4]، وهي مشقة الخسران، ولكن هذا يصح بافتراض أن القضاء بالحق، وخسار المبطلين ليسا يكونان مع إتيان أمر الله الذي في النحل، وهو ظاهر الفساد، لأنه يقوم على اعتبار اللفظ الدال لا على المعنى المدلول، فكأن أمر الله الثاني غير أمر الله الأول، وهو انحراف عن أساس التفسير الذي هو العلم بمدلول القرآن[5]، كما أن من أسس التفسير وجوب حمل بعضه على بعض، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : إن أعلى مراتب

---

[1] لمسات بيانية، ص : 74.

[2] النحل : 01.

[3] غافر : 78.

[4] لمسات بيانية، ص : 74.

[5] انظر : تفسير ابن عرفة، 19/1.

تفسير القرآن هي تفسير القرآن بالقرآن، يقول في هذا محمد حسين الذهبي : (لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب تعالى أن ينظر في القرآن أولا، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزا، وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملا، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله)[1].

ويرى السامرائي أن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ في النمل دعا إليه قطع موسى عليه السلام على نفسه بإحضار النار أو الخبر بقوله: (سآتيكم منه بخبر أو آتيكم بشهاب قبس)، وأنه قال : (فلما أتاها) في القصص، لأنه عليه السلام، ترجى ذلك ولم يقطع به، أي في قوله : (لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار)، والقطع أشق على النفس من الترجي، حسب السامرائي، وهنا يقال له: ما الأساس المعتمد في التفريق بين القطع والترجي ؟ ثم أليس يمكن ردّ الأمر إلى الضدّ من ذلك بأن نقول : إنه لما استسهل إحضار الخبر والقبس قطع، ولما استصعب ذلك ترجى ؟، ومن عادة المرء أن إذا رأى الأمر ميسورا عليه قطع بتحصيله، وإذا هو رآه عسيرا تمنى ودعا وتوسل، وبهذا يثبت أن تفريق السامرائي لا أساس دلاليا له.

على أننا نقدم ما نراه أبرأ من التمحل والشطط مما ذهب إليه السامرائي، وإن يكن قوله بالسهولة والمشقة يمس جانبا مهما مما سنعرضه في التفريق بين (أتى) و(جاء)، ونسارع إلى القول :

إن الأساس الذي نقيم عليه التفريق هو اقتران ما يتراخى ويتطاول في الزمن بالمجيء، واقتران ما يكون فوريا بالإتيان، ويحصل ذلك ضمن وجود قرائن معنوية ولفظية تشي باحتواء المجيء للزمن وخلو الإتيان منه :

أولا : المجيء :

ولا يقترن إلا بما يكون حصوله في زمن، يطول أم يقصر، وذلك على هذا البيان.

---

[1] علم التفسير، ضمن كتاب : بحوث في علوم التفسير، ص : 392.

– يتلبس المجيء في القرآن الكريم بما يأتي :

أ– **بلوغ الأجل** : وذلك لأن الموت هو انقضاء زمن العمر، والعمر مما يتراخى ويتطاول، ويخرج عليه الآيات :

- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

وغيره، وخلاصته : كل مقام أريد فيه إلى بلوغ الأجل استعمل فيه المجيء.

ب– **قيام الساعة** : وذلك لأن الساعة هي انقضاء زمن الدنيا، وهي كذلك للتراخي والتطاول، ويخرج عليه الآيات :

- ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾[2].

وغير ذلك، وخلاصته : كل مقام أريد فيه إلى قيام الساعة استعمل فيه المجيء.

جـ– **الدعوة والرسل والرسالات** : وذلك لأنه لا دعوة ولا رسالة إلا في زمن، يطول أم يقصر، فالدعوة إذن مما يتراخى ويتطاول، ويخرج عليه الآيات :

- ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾[3].

وغير ذلك، وخلاصته : كل مقام قصد فيه إلى الحديث عن الدعوة والرسل والرسالات، وذلك يتراخى ويتطاول، أوثر فيه استعمال المجيء.

د– **التنقل والحركة في المكان** : وذلك لاقتضائه الزمن ليصح حصوله فيه، فهو، من ثم، يتراخى، ويخرج عليه الآيات :

- ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾[4].

---

[1] الأعراف : 34.

[2] الإسراء : 07.

[3] الأنعام : 91.

[4] المائدة : 06.

وهو كثير، وخلاصته : كل مقام قُصد فيه إلى التنقل والحركة أوثر فيه التعبير بالمجيء.

فهذه أربعة محاور تدل على أحداث تتلبس بالمجيء إذ لا تقع إلا في زمن يحتويها، يطول أم يقصر، كما سبق.

ثانيا : الإتيان :

ويقترن بمحاور وسياقات لا يرى فيها استغراق زمن، إنما يقصد فيها إلى معنى الفور، وهي :

أ . **التأثير في النفس** : وذلك لقصد الإسراع إلى صنع استجابتها، ويكون ترغيبا وترهيبا وتسكينا وتسلية، ومنه قوله تعالى :

- ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[1].

وغير ذلك، وملخصه : كل سياق تضمن تأثيرا في النفس بالترغيب أو الترهيب أو التسلية أوثر في الإتيان.

ب . **مقام الإنعام والإفضال** : وذلك لأنه يستحب فيهما الفور قصدا إلى الكمال فيهما، ومنه قوله تعالى :

- ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[2].

وغيره كثير، وملخصه : كل سياق أريد فيه إلى الإنعام والإفضال وما إليهما حسن التعبير فيه بالإتيان.

جـ . **مقام الحرص والحث والتعجيل والتحدي** : وذلك ظاهر معنى الفورية فيه، ومنه قوله تعالى :

---

[1] النحل : 01.
[2] طه : 36.

• ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

وغيره مما يدخل في معناه، وملخصه : كل ما كان من قبيل التحريض والتعجيل والتحدي وغيره أوثر معه التعبير بالإتيان.

د. **مقام العدم والزوال والانقضاء** : وذلك لأن معنى الانقضاء هو انتفاء التطاول والتراخي، ومنه قوله تعالى :

• ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ﴾[2].

وغيره مما يدخل في معنى من المعاني التي ينعدم فيها الزمن ويزول.

فكل ما جاء في القرآن من الإتيان داخل في مقام من الأربعة مما يقصد فيه إلى الفور، وعدم التطاول في الزمن، لوجه من الوجوه كما سبق.

وبه يمكن الرجوع بكل ما في القرآن الكريم، من مجيء وإتيان، إلى فارق الزمن على وجهي التراخي والفور، بالاندراج ضمن محور من محاورهما، وهو تخريج يصون هذين الفعلين من كثير من التمحل الذي وقع فيه السامرائي والمنجد، وغيرهما.

وعلى أساس من إعمال الفارق الزمني يمكن تخريج طائفتين من الآيات القرآنية:

الأولى : الآيات المتشابهات : وهي التي تفترق بالتعبير بـ (جاء) في آية، وبـ (أتى) في أخرى، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3]، وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[4].

فـ (أتى) في الآية الأولى يدخل في محور العدم والزوال والانقضاء لأنه من شأن يوم البعث.

---

[1] الشعراء : 10.

[2] الإنسان : 01.

[3] الشعراء : 89.

[4] الصافات : 84.

و(جاء) في الآية الثانية يدخل في محور الدعوة وإرسال الرسل، لأنه من شان إبراهيم مع قومه في هذه الحياة الدنيا.

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾[1]، من قصة سيدنا موسى في النمل، وقوله : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾[2]، من قصته في القصص وطه، فالمجيء داخل في محور التنقل لأنه مضى إلى النار يطلب مراده منها، والإتيان داخل في العجلة لأنه حريص على الرجوع إلى أهله بما به يصطلون، واختلف التعبير في الآيتين لتحصيل المعنيين معا، فإنه لا تدافع بينهما بل إن المحصل بجمعهما أنه كان من موسى تنقل إلى النار حثيث، كأنه يقول بهما جمعا : (فلما تنقل إلى النار مسرعا)، وهو عين ما حدث في القصة، كما أوثر في المواضع كلها من هذا المشهد القصصي قول موسى لأهله (آتيكم) في طه و(آتيكم) في القصص، و(آتيكم) و(سآتيكم) معا في النمل، لدخول ذلك كله في محور التأثير في النفس بالتسكين، فإن موسى يخبر أهله أنه عائد إليهم فورا، تسكينا ودفعا لخوف محتمل.

ومنه ما جاء في قوله تعالى في سورة الذاريات من قصة إبراهيم مع الملائكة : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾، وفي سورة هود : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾، والحنيذ المشوي، فيكون الجمع بين الموضعين أنه عليه السلام جاء بعجل سمين مشوي.

وأما قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[3]، وقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[4].

فإنه لما كان الأول إخبارا عن حال أوثر معه التعبير بـ (جاءتهم الساعة) لدخوله في محور قيام الساعة بعد انقضاء فترة الحياة الدنيا.

---

[1] النمل : 08.

[2] القصص : 30، طه : 11.

[3] الأنعام : 31.

[4] الأنعام : 40.

ولما كان الثاني تخويفا وترهيبا عبر بـ (أتتكم الساعة) لدخوله في محور التأثير في النفس.

الثانية : الآيات الجامعات :

أي التي تجمع بين الفعلين، ومنها قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[1].

فيدخل (جاءهم) في محور الدعوة وإرسال الرسل ويدخل (يأت) في محور العدم والزوال لأن آباءهم زالوا.

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[2]، فعبر بـ (تأتيهم) لدخوله في محور التأثير في النفس بإنذارها بقيام الساعة، وعبر بـ (جاء) لأن الأشراط تظهر بتطاول الزمن، وتعرف بالدعوة والرسالات.

وأما قوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا)، فقوله (أتت) محمول على معنى عجلتها وحرصها على الرجوع بمولودها إلى أهلها، وقوله : (جئت) محمول على البعد المجازي، أي أنه رأوا ما تقول لهم بعيدا تصديقه.

وبعد: فإني قد وجدتني بمحل اضطرار لبسط القول فيما قد يفي بالتفريق بين المجيء والإتيان في لغة القرآن الكريم على ما قد ينأى عن التمحل والتعسف ليبلغني ذلك القول بأن قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[3].

داخل في محور الحرص والتعجيل تحديا وإظهارا للقدرة، مما يجعل من قراءة (جئنا بها) غير ذات وجه ألبته، لخروج الآية بها إلى التطاول والتراخي الزمني وهو يتدافع مع غرض التحدي في إظهار القدرة.

---

[1] المؤمنون : 68.

[2] محمد : 18.

[3] الإسراء : 104.

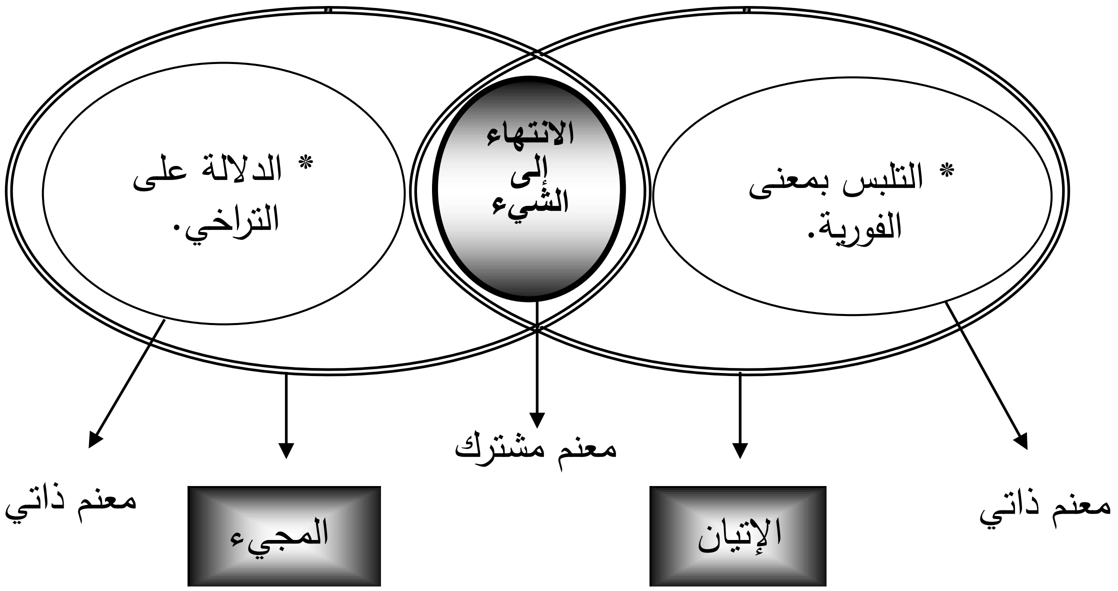

5 . الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الضّدّ : يراد به أن الفرق بين ما يظن بهما الترادف قد يدل عليه الإتيان بضد كل منهما، وقد نرى تمثيلا له بالذي نطلبه للبحث هنا، فيقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

فقد قرئ : (فامضوا)[2].

---

[1] الجمعة : 09.

[2] معجم مكرم وعمر، 147/7، ومعجم الخطيب، 461/9.

فمدار النظر في الآية على التفريق بين السعي والمضي، والسعي في كلام العرب يراد به العدو دون الشد، أو العدو مطلقا[1]، وجاء من هذا قول النبي ﷺ : (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة)[2].

ويطلق في معنى القصد وفي معنى العمل والتصرف[3]، وعلى معنى القصد ارتضى ابن مسعود أن يقرأ (فامضوا) معللا، فيما يعزى إليه، بأن السعي لا يكون معناه في هذه الآية العدو، يقول : (لو كانت من السعي لسعيت حتى يسقط ردائي)[4]، ويلاحظ بذلك أن أهل اللغة والتفسير استبعدوا أن يكون السعي هنا عدوا تخليصا للفظ لمعنى النية والقصد، ويحسن التعبير بهذا المعنى من جهة وروده في سياق الحديث عن البيع والكسب وطلب الدنيا، ذلك لأجل إخلاء الفؤاد من الدنيا وجعل القصد فيه خالصا لعبادة الله، ويؤيده أنه أطلق حاله بعد الصلاة للكسب والبيع، فقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5]، وذلك يرمي إلى أن يوازن بين عيشه للدنيا ووجوده لعبادة ربه، وتلك حكمة بالغة.

ومن معاني السعي الكسب[6]، وبه يكون في التعبير بالسعي مقابلة بين كسب وكسب، أي كسب الدنيا وكسب الآخرة، فيحصل الخير في تحصيل كليهما، إلا أن سعي الدنيا حقيقة، وسعي الآخرة مجاز لاقتضائه الجد والقصد[7]، وهي الدلالة التي رأى بعض الدارسين أن القرآن الكريم ضمنها لفظ السعي بعد أن كان في معنى المشي والانتقال من مكان إلى مكان[8].

---

[1] لسان العرب، 192/7.

[2] صحيح البخاري، 218/1.

[3] لسان العرب، 192/7، ومعاني الزجاج، 135/5.

[4] لسان العرب، 192/7. ومعاني الزجاج، 135/5، وغريب ابن الهائم، ص : 317، وغريب اليزيدي، ص : 377.

[5] الجمعة : 10.

[6] لسان العرب، 192/7.

[7] دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسين خضر الدوري، ص : 228.

[8] التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة، ص : 528.

وعلى هذا، فإنه يمكن القول بأن العبث والتضييع هما ما يصلح ضدا للسعي لأن الاشتغال بالبيع وطلب الدنيا هو تضييع لما هو خير منهما، وهو عمل الآخرة، وذلك عبث مبين وخسران مشين، لأنه دليل السفه وغياب الرشد بأن يصرف المرء قصده وغرضه إلى استبدال الأدنى بالذي هو خير، فيخلص الكلام إلى أن الساعي هو ضد العابث السفيه لا ضد الماشي، ومن ثم فالسعي إلى ذكر الله من يوم الجمعة هو الرشد والكمال في التدبير.

وأما قراءة المضي فبمعنى الذهاب لا غير، ويدل عليه التعدية بـ (إلى)، لكن المضي والذهاب على إطلاقهما يخلوان من معنى القصد والجد في طلب الشيء الذي يطلب المضي إليه، وذلك رجوع باللفظ إلى الأصل من معنى السعي في اقتصاره على الانتقال من مكان إلى آخر دون مراعاة القصد والجد، وبهذا يبين ضعف أداء هذه القراءة البياني لخروجها باللفظ عن المعنى الذي ضمنه القرآن الكريم إياه على ما سبق ذكره.

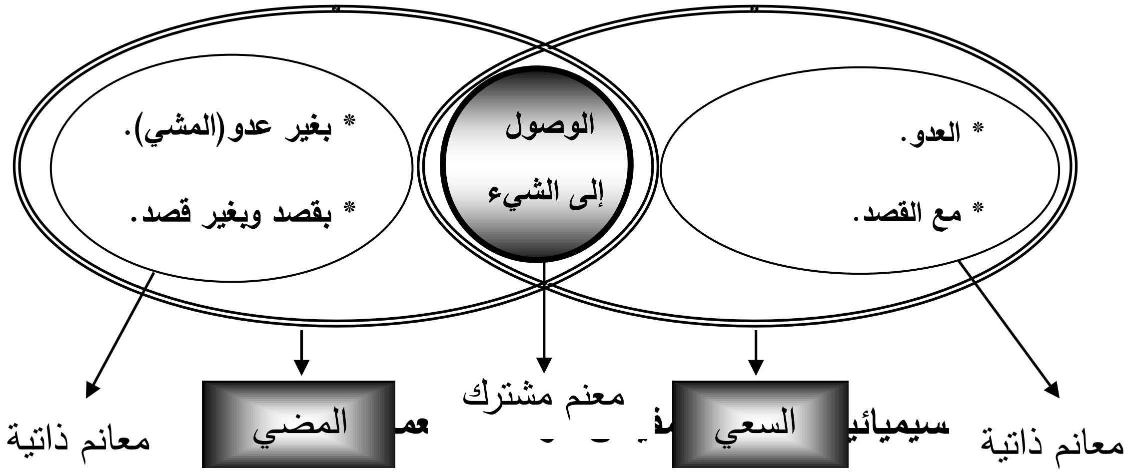

إذا قصد إلى كشف الفرق بين مترادفين يمكن بحث ذلك في وجوه استعمال كل منهما باستقراء المواضع التي يردان فيها ونطلب للتدليل على اعتماد هذا المقياس قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[1].

فقد قرئ : (فرددناك)[2].

---

[1] طه : 40.

[2] معجم مكرم وعمر، 82/4، ومعجم الخطيب، 434/5.

فمدار البحث على طلب الفرق بين التعبير بالرجع تارة وبالرد أخرى، ونحب أن نشير بدءا بأن غالب اللغويين وأهل التفسير يفسرون الرد بالرجع ويفسرون الرجع بالرد، ويرى ذلك في مواضعه من كتبهم[1].

ومنهم من اجتهد في ربط كل منهما بمعنى مغاير، فأبو هلال العسكري جعل الرد لما يكون مكروها، ولا يلزم ذلك في الرجع[2]، والعرب تسمي كل بهرج من الأشياء، أي المكروه المرفوض مردودا[3]، ومنه سمي الرجوع عن الإسلام ردة لكراهة ذلك.

وإلى هذا ذهب الخطيب الإسكافي في تفريقه بين قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[4] وبين قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾[5]، فلما كان الأول كارها لخروجه عن جنتيه قال : (رُدِدْت)، وأما الثاني فلم يتضمن حاله ما فيه كراهة فقال : (رُجِعْت)[6].

وإلى مثله ذهب الكرماني[7]، وكذا الغرناطي[8] حين حمل عليه تفريقه بين قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾[9] في طه، وقوله : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾[10] في القصص.

فإنه أثنى على موسى في طه فكان مقام حب فأوثر، من ثم، التعبير بقوله : (رجعناك) ولكنه خيف على موسى في القصص من بطش فرعون فكان مقام كره

---

[1] انظر: لسان العرب، 107/6، و132/6، وزاد المسير، 83/9، والتوقيف على مهمات التعاريف، ص : 357.

[2] الفروق في اللغة، ص : 92.

[3] لسان العرب، 166/2.

[4] الكهف : 35-36.

[5] فصلت : 50.

[6] درة التنزيل وغرة التأويل، ص : 197.

[7] البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص : 169.

[8] ملاك التأويل، 781/2.

[9] طه : 40.

[10] القصص : 13.

فاختير (رددناه)[1]، وقد جاراهم في هذا بعض المتأخرين فحمل كل ما في القرآن الكريم من رد ورجع على ما يكون مكروها، وعلى ما لا كره فيه[2].

لكن بدا لنا إمكان مناقشة هذا الفارق بعد أن لم نجد فيه كفاية ومقنعا بعرضه على ما استعمل فيه اللفظان من سياقات ومواضع، فحمل (رددت) في كلام صاحب الجنتين في الكهف على الكراهة غير سائغ لأنه مدفوع بقول الرجل نفسه ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ وهو ما يجعل خروجه عن جنتيه إلى ما هو خير منهما مرغوبا فيه لديه لا مكروها، ففي حمله على الكره عسف تأباه الآية نفسها.

وحمل التفريق بين آيتي (طه) و (القصص) من قصة موسى عليه السلام على الكره مدفوع كذلك عن عسف وتمحل لأن الخوف على موسى وارد في كلا السورتين لأنه الداعي إلى إلقائه في اليم، قال في طه : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾[3]، وقال في القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[4]، فاتضح أنه تفريق لا يقوم على أساس، ويدل على عدم تأسيسه اضطراب بعض القائلين به في عدهم قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ تصديقا لقوله قبل ذلك : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[5]، إذ يتعين عليهم البحث في داعي قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ في الأول كي نفهم وندرك سبب اختياره (فرددناه) في الثاني.

ولقد عجبت من تمسكهم بالقول بأن الرد يكون للمكروه وهم يفسرون به قوله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾، وهل في الدنيا أحب إلى المرء من أمه ؟ خاصة وهو أحوج إليها كحال موسى هنا، وهو طفل رضيع !.

---

[1] انظر : ملاك التأويل، 782/2.

[2] انظر مثلا : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسين خضر الدوري، ص : 189.

[3] طه : 37-38-39.

[4] القصص : 07.

[5] انظر : البرهان في بيان متشابه القرآن، ص : 174 وبصائر ذوي التمييز، 314/1.

فإن هم قالوا إن المكروه هو المردود إليه لا المردود نفسه، قيل : هذا معناه أن الكره واقع من الله تعالى على نبيه موسى، وهو أغرب ما يكون !، وقد قال تعالى له : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾[1]، ثم إنه كيف تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾، فعلى أي وجه يسوغ حمل رد البصر مكروها ؟!.

وعلى هذا، فقد وجدتني مدفوعا إلى استقراء مواضع التعبير بالرد، وبالرجع في القرآن الكريم، وتقصي الغرض من توظيف كل منهما، فكشف لي الفارق الاستعمالي والاختلاف التوظيفي عن ارتباط الرد بمعنى تأرجح الأمر بين جهتين ومصيره بعد ذلك إلى الأحق به، واتضح أن المردود من الأشياء هو الصائر إلى مستحقه من بعد تأرجح، وهذا بيانه :

- يقول تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ﴾[2]، لأن أمرهم في القتال بين نصر وهزيمة فردوا إلى ما يستحقونه، أي استحقوا الغيظ ولن يستحقوا نوال الخير.
- ويقول : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾[3]، فلأنها من حقهم.
- ويقول : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾[4]، لأنهم مستحقوها كذلك.
- ويقول : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾[5]، لأنهم استحقوها بما قضى الله ذلك لهم.
- ويقول : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾[6]، وفيه تصريح بالاستحقاق.

---

[1] طه : 39.
[2] الأحزاب : 25.
[3] يوسف : 65.
[4] يوسف : 65.
[5] الإسراء : 06.
[6] البقرة : 228.

- ويقول : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[1]، لأنهما أحق بالحكم فيه.

- ويقول : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[2]، لأن للتحية حق ردها.

وغير ذلك، وما لم يكن من الرد في معنى الاستحقاق فإنه مضمن معنى فعل غيره، يحتمله السياق وتدل عليه قرينة، فخرج عن أن ينظر في افتراقه عن الرجع، وبيان ذلك:

- قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾[3]، أي دفعها عنهم.

- وقوله : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[4]، أي لا يدفع.

- وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾[5]، أي يعش.

إلى غير ذلك، وجملة القول أن كل رد في القرآن الكريم فإلى استحقاق إلا أن يكون مضمنا، فلا كلام فيه حينئذ.

بقي أن نشير إلى أن الرجوع عن الإسلام إنما أوثر فيه الرِدة والارتداد فلأن المرتد يرى العودة إلى الكفر أحق عند نفسه من البقاء في الإسلام، وإلا ما فعل، وأما قوله تعالى : ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾[6]، رغم أنهم بعولتهن فلأن إيمان الزوجات وكفر الأزواج أسقط حق الرد فلم يعد ردا، فقال : (ترجعوهن).

ومن هذا ننقل النظر إلى ما يتشابه من الآيات في الرد والرجع، فنقول:

---

[1] النساء : 59.

[2] النساء : 59.

[3] الأنبياء : 40.

[4] الأنعام : 147، ويوسف : 110.

[5] الحج : 05.

[6] الممتحنة : 10.

إنه قال في (طه) : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾، لأنه لما كان المقام مقام من وإفضال لم يحسن معه التعبير بالرد لتضمنه معنى الاستحقاق، إذ لا اجتماع بين المن والاستحقاق، فلو قال هنا : (رددناك) لاستحقه موسى ولتعارض مع قوله : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ قبل ذلك، فلا اجتماع لمن مع استحقاق، وهو ظاهر، أي لا يقال : لقد مننت عليك بما هو حق لك.

وهو قال في (القصص) : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ ﴾، فلأن الحديث فيها عن أم موسى فاستحقت عوده إليها من بعد تحريم المراضع عليه، فإن أم الوليد هي أحق النساء بإرضاعه، ولقد تفطن يحي عبد الفتاح الزواوي إلى اختلاف السياقين بين المن في الأول على موسى والقصّ عنه في الثاني[1].

وأما قوله في الكهف : ﴿ رُدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي ﴾، فإنه يرى نفسه لغروره الذي استوجب عقابه أحق بأن يلقى خيرا من جنتيه إذا هو خرج عنهما.

وقوله في فصلت : ﴿ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ فعن طمع لا عن غرور باستحقاق فهو من باب : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2].

وبعد : فإن ما قدمنا من القول يصلح أساسا لدفع قراءة ﴿فَرَدَدْنَاكَ﴾ في موضع (فرجعناك) في آية طه، لأن الأولى فيها هو استعمال مالا دلالة فيه على معنى الاستحقاق تحاشيا للتدافع بين المن والإفضال، وبين جعل العود إلى الأم حقا واجبا أداؤه.

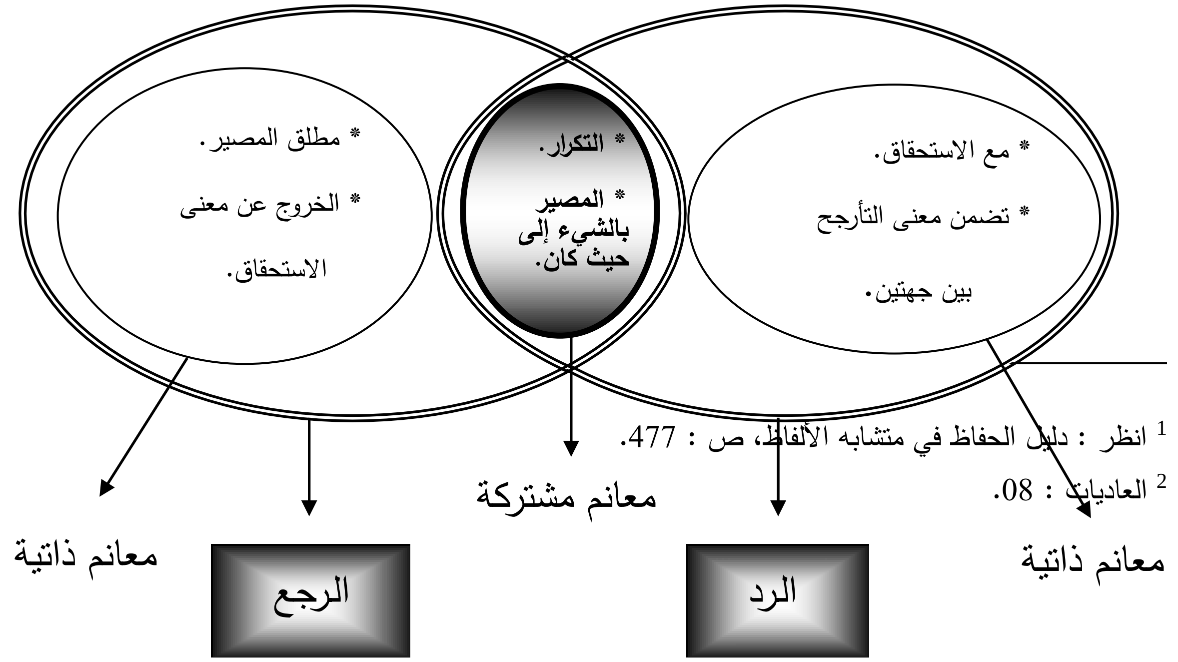

[1] انظر : دليل الحفاظ في متشابه الألفاظ، ص : 477.

[2] العاديات : 08.

7. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الاستحسان والاستهجان :

مما يصلح مقياسا للتفريق بين مترادفين في لغة القرآن الكريم وكلام العرب جواز أن يكون أحد اللفظين مستحسنا في التعبير عن أخيه مع تقاربهما الشديد في المعنى، فيكون حسن أحدهما على الآخر فارقا بينهما، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[1].

فقد قرئ : (وحططنا عنك وزرك)[2].

ولا يكاد الناظر في كتب اللغة يظفر بتفريق صريح من مصنفيها بين الوضع والحط، بل إن دأبهم على شرح أحدهما بالآخر مما يجعل الفرق بينهما عزيزا[3].

ولكن شيئا من الإمعان في ما جاء من الشواهد والنصوص متضمنا للفظين ربما أفضى إلى أن ثمة استحسانا لاستعمال الوضع في مقابل التعبير بالحط، وذلك لظهور الكمال في الأول على ما سيأتي بيانه :

---

[1] الشرح : 02.

[2] معجم مكرم وعمر، 187/8، ومعجم الخطيب، 489/10.

[3] انظر : لسان العرب، 230/15.

فأما الحط، فليس منه في القرآن الكريم غير ما جاء في موضعين اثنين، وذلك لفظ واحد هو (حِطة) في قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾[1].

وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا ﴾[2].

وقد قيل في تفسيره غير ما وجه أكثرها شيوعا عندهم أنه مصدر من قول القائل (اللهم حط عني ذنوبي) وأن توجيهه في الموضعين من الآيتين هو : قولوا اللهم حط عنا ذنوبنا[3].

وبقليل من إعمال الفكر يتضح أن الحط من الذنوب يختص بما تقدم منها دون ما يتأخر، ويدل عليه ورود الآيتين في سياق الاستغفار مما تقدم من الذنوب، إذ هو من أمر موسى، عليه السلام، لقومه بالاستغفار من اتخاذهم العجل، وطلب رؤية الله جهرة.

ويرى هذا المعنى في مواضع وروده في سياقات أخرى كذلك، وبحمل القراءة على هذا ينصرف المعنى إلى أنه تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه، وليس بلازم ذلك مع ما يتأخر منه، وهذا المعنى مستهجن في حق مقام النبوة، إذ هو يصلح لمن دون النبي مقاما، فالله يغفر للعبد يتوب إليه، وإن لم يكن نبيا مرسلا، فاستهجان اللفظ في هذا الموضع من جهة عدم وفائه بحق النبوة في وجوب رفعها وإعلائها.

وأما الوضع فإنه في تلبسه بالذنب دال على الصرف عن التعرض إليه، والصون من الوقوع فيه، مما يدل على معنى العصمة، وهو ما يفي بحق النبوة والرسالة، إذ فيه كمال الإنعام على نبيه بأن جاوز مغفرة ما تقدم إلى العصمة من الوقوع فيما تأخر.

وأما قوله : ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[4]، فعلى معنى لو لم ننعم عليك بالعصمة لكان ذلك.

[1] البقرة : 58.

[2] الأعراف : 161.

[3] انظر مثلا : غريب السجستاني، ص : 81، وغريب ابن الهائم، ص : 75، وغريب ابن الجوزي، ص : 47، وغريب اليزيدي، ص : 70، وغريب اليماني، ص : 65.

[4] الشرح : 03.

والذي نستدل عليه بصحة حمل الوضع على معنى الصرف عن الشيء لا إزالته من بعد ملابسته بقول النبي ﷺ : (وإن كل ربا موضوع) فإن المراد، ولا ريب، صرف الناس عن مخالطته وإتيانه في قابل أيامهم، وذلك معنى تحريمه، قال تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1]، ولا يتصور أن مراده إلغاء ما سلف منه بينهم دون الإعلام بوجوب الانصراف عنه في قابل الأيام، فالحاصل، إذن، أن وضع الربا إيذان في قابل، مما يبني عليه أن وضع الوزر هو إعلام بمنعه في قابل كذلك.

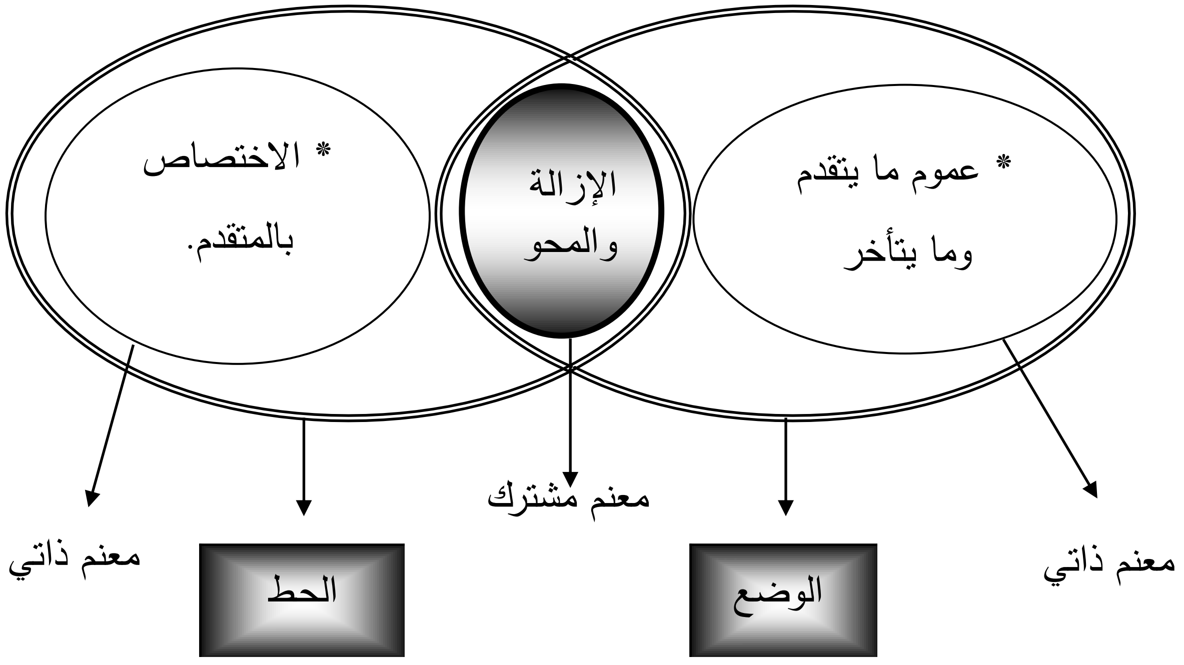

[1] البقرة : 275.

8. الوظيفة السيميائية المعنمية لمقياس الاقتران اللغوي : وهذا مقياس له خطره في الفصل بين ما قد يظن بهما الترادف وهو مقياس سياقي تركيبي لأنه من مقتضى الاقتران، ومنه ما ندرسه في قوله تعالى : ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[1].

فقد قرئ : (أرشدنا)[2].

فأما الفعل (اهدنا)، فمن الهداية والهدى، ضد الضلال، وهو رديف للرشاد، وهذه هي دلالته المركزية[3]، كما أنهم دأبوا على شرح الرشد بالهدى[4]، ويلتقيان على معنى إصابة وجه الحق أو الطريق وتبينه، ولكن النظر في كتب اللغة والمعاجم بحثا عما يتلبس بالهدى دون الرشاد، وما يرتبط بالرشاد دون الهدى، قد يبلغ بالباحث إلى وجه تفريق بين اللفظين، وهو ما سأسعى في عرضه على ما يأتي :

يتميز الهدى عن الرشد بتضمنه معنى الإيصال والتبليغ، أي السعي بالشيء إلى منتهى المراد له، وهو ما يرى في تلبسه ببعض ما لا يقوم معناه إلا بالإيصال والتبليغ، وفحوى هذا الكلام أن الهدى لا يكتفى فيه بتبيين وجه الحق والسبيل، أو الرأي القويم، بل

---

[1] الفاتحة : 05.

[2] معجم مكرم وعمر، 1/ 11، ومعجم الخطيب، 17/1.

[3] لسان العرب، 41/15.

[4] لسان العرب، 157/6.

يتجاوز معه إلى الإيصال إليه، وهو ما لا يكون في الإرشاد، إذ يقتصر فيه على مجرد بيان المدلول عليه، ونسارع إلى القول إن من باب الهدى قولهم :

– هديت العروس إلى زوجها، إذا أوصلتها إليه، ومنه سموا العروس هدية[1].

– وأهديته هدية وأهديت له، لأنها تبلغه وتصل إليه، وقال على لسان بلقيس : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[2]، وقد يحمل على هذا بعض ما في كتاب الله تعالى منه : كقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾[3]؛ أي : أولم يبلغهم ذلك.

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[4]؛ أي: أولم يصلهم العلم بذلك ويبلغهم، وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[5]؛ أي : أوصلوهم، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ﴾[6]، أي : لا يقدر أن ينتقل إلا أن ينقلوه ومما جاء على التصريح بلفظ البلوغ والوصول قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾[7].

وعلى هذا، فإن الهداية إلى الصراط المستقيم لا تنقص عن دلالة الإيصال إليه وذلك كمال في البيان والإرشاد، يفرقه عمن يكتفي بأن يدل على الشيء دون زيادة الفضل بأن يوصل إليه، فيكون دعاء المؤمنين في الفاتحة طلبا للكمال في نعمة الهدى ويؤيده أن قال بعدها : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[8].

---

[1] لسان العرب، 44/15.
[2] النمل : 35.
[3] طه : 128، والسجدة : 26.
[4] الأعراف : 100.
[5] الصافات : 23.
[6] يونس : 35.
[7] البقرة : 196.
[8] الفاتحة : 07.

فلما كان الهدى مما يتضمن وجها من الكمال وميزة الزيادة على الإرشاد اقترن بالمعنى الديني ليناسب ما في الدين من الكمال والتميز، وهذا الاقتران هو ما يمنحه إمكان التفريق بينه وبين الرشد مثلا، فإن غالب ما في القرآن، مما يدل على الاستقامة والبلوغ إلى وجه الحق، إنما كان التعبير فيه بالهدى، وهو ظاهر.

وبه يظهر أن التعبير بالهدى أولى بالأداء البياني الأكمل في آية الفاتحة.

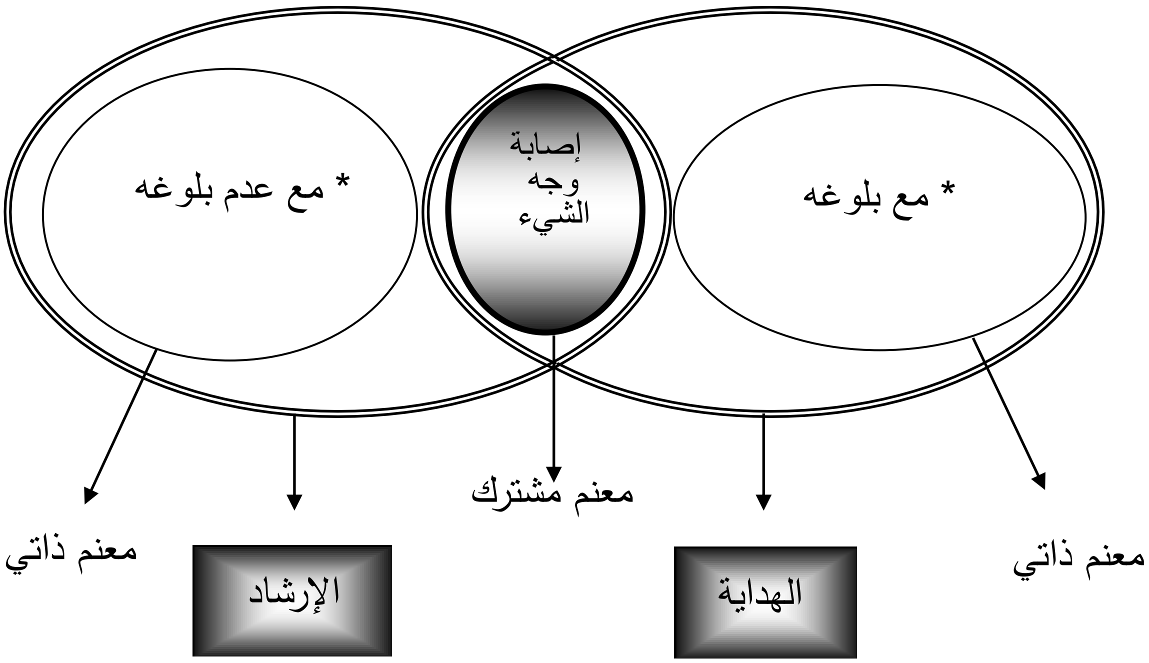

ثانيا :

فروق المباني : أو الصيغ والأبنية .

ونبحث في هذا المقام افتراق مباني الألفاظ التي ترد في اختلاف وجوه القراءات القرآنية تأسيسا، كما سبق مع الأسماء، على أن العدول من مبنى إلى مبنى يفسره إرادة الخروج عن معنى إلى معنى.

1. العدول عن (فَعَلَ) إلى (فَاعَلَ) :

ونطلب للبحث هنا قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فقد قرئ : (دَارَسْتَ)[2].

وظاهر أن اللفظين من أصل واحد، وإنما اختلفا في الصيغة والبناء، فذاك من (فَعَلَ) وهذا من (فَاعَلَ)، ومعلوم أن البناء الثاني مزيد بألف المشاركة التي تفيد وقوع الفعل من اثنين، وإن يكن هذا البناء صالحا لأداء معان وظيفية أخرى[3]، ربما احتملها هذا المقام الذي يقع في طائلة بحثنا هنا.

فأما (دَرَسَ) فهو أصل يدور على معالجة الشيء ورياضته، ومنه قولهم: درس الناقة يدرسها درسا : راضها، ثم استعير للكتاب فقيل : درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ودارسه، كأنه عانده حتى انقاد لحفظه، ودرس الكتاب بعد هذا معروف[4].

ومعنى الآية على هذا هو إنكار المشركين لأن يكون ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات، ومن أخبار الأولين، ومن الإعلام بالمغيبات، من وحي الله تعالى إليه، ومن تعليم الله تعالى إياه، بل ليس له شيء من ذلك إلا بأن يكون درس كتبا وبحث في آثار لأهل الكتاب، إمعانا منهم في الكفر والعناد.

وأما (دَارَسَ)، فمن الأول ولكن تضمنه معنى المشاركة قد يؤخذ منه من المعاني ما ليس في (دَرَسْت)، ذلك أن فيه اتهاما له بأنه جالس غيره من أهل الكتاب

---

[1] الأنعام : 105.

[2] معجم مكرم وعمر، 305/2، ومعجم الخطيب، 511/2.

[3] انظر : أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، د. نجاة عبد العظيم الكوفي، ص : 54.

[4] لسان العرب، 244/5.

وشاركهم النظر في كتبهم حتى أتيح له من ذلك نصيب من العلم[1]، قال القيسي : (من قرأه : دارست بالألف فمعناه : دارست أهل الكتاب ودارسوك)[2].

فهو من ثم، يحدث به مدعيا أنه مما أوحي به إليه، ولعل صيغة المشاركة أن تدل على تأكيد أخذه ذلك عن غيره لأنه من مقتضى المشاركة التي تدل على أكثر من طرف يجمع بينهما درس وبحث، وتعليم وتعلم، في حين لا تقتضي قراءة (دَرَسْتَ) وجود المعلم لجواز الانفراد بالنظر في الكتب، وأيّدوه بقراءة : (وليقولوا درس)[3].

ولكن قراءة (درست) قد تدل على وجود المعلم لتضمن (درست) معنى (أخذت) و (تعلمت)[4] لكن دلالتها على المعلم ضمنية، والقول بانفراد النبي في دراسة الكتب مدفوع بما علم من سيرته عن أميته، إذ لا ينظر في الكتب أمي.

والقول بمشاركة النبي غيره في الدراسة مدفوع بضرورة أن ينتقل إلى من يبتغي عنده الدرس والبحث، وهو مدفوع كذلك، لأنه لم يعلم من سيرته صلى الله عليه وسلم أي رحيل له في طلب علم أو دراسة.

وعلى هذا، فإن وجهي القراءة في الآية الكريمة صالح للتعبير عن بطلان ادعائهم بما يقتضي الانفراد في الدرس، أو بما يفهم المشاركة فيه، فلم يكن من النبي درس ولا مدارسة، إنما هو وحي يوحى، علمه شديد القوى .

وقد ظهر للطبري أن قراءة (درست) أولى بالبيان عن المراد من (دارست) من جهة اتفاقها ودعواهم من أن النبيّ (ص) أخذ وتعلّم ، لا خاصم وجادل وناظر، لأن الذي يبدو من كلامه أنه فهم من المدارسة معنى المجادلة والمخاصمة والمناظرة، وهو ما لم يدّعوه عليه لعلمهم أنه غير قادر على ذلك، قال في جامعه : (وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب : قراءة من قرأه : (وليقولوا درست)، بتأويل : قرأت وتعلمت، لأن

---

[1] انظر : معاني الأزهري، ص : 171.

[2] مشكل إعراب القرآن، ص : 248 و حجّة ابن زنجلة، ص : 264 .

[3] حجة ابن زنجلة، ص : 264، والمصاحف، ص : 322، وجامع الطبري، 206/7، والبحر المحيط، 197/4، والمحتسب، 225/1.

[4] انظر : جامع الطبري، 472/9.

المشركين كذلك كانوا يقولون للنبيّ (ﷺ) وقد أخبر الله عن قيلهم بقوله : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فهذا خبر من الله ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون : إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره، فإذا كان ذلك كذلك؛ فقراءة : (وليقولوا درست) يا محمد بمعنى : تعلمت من أهل الكتاب، أشبه بالحق، وأولى بالصواب من قراءة من قرأه : (دارست) بمعنى : قارأتهم وخاصمتهم وغير ذلك من القراءات)[1].

ولكن اختيار الطبري هنا مبني على قصر صيغة (دارس) على معنى المشاركة فحسب، إذ قد يقال له : من الجائز أن تكون (دارست) بمعنى (درست)، وإنما زيدت ألفه للدلالة على التكثير، مثل : ضاعفت الشيء أي : كثّرت أضعافه، وناعمه الله بمعنى نعّمه أي كثّر نعمه[2].

فالفعل ههنا لا يقتضي المشاركة ، فيبطل به تخريج الطبري، قال سيبويه : (وقد يجيئ فاعلت لا تريد بها عمل اثنين ولكنهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت، وذلك قولهم : ناولته وعاقبته وعافاه الله وسافرت وظاهرت عليه)[3].

وعلى كل، فأيا ما ادعوا فإن محصّل الكلام أنه مدفوع عن النبي (ﷺ) سواء أدرس أم دارس أم غيره، لأن الغاية هي تبرئة النبي من تهمة افتراء القرآن الكريم وادعائه على أي نحو من الأنحاء التي ترجع إلى معنى التعلم والتحصيل.

---

[1] الجامع، 472/9.

[2] انظر : شرح شافية ابن الحاجب، 99/1، وأبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، ص : 54.

[3] الكتاب، 68/4.

2. العدول عن (فَعَّلَ) إلى (فَعَل َ) :

ومما ينظر في اختلاف معناه باتحاد مادته، وافتراق بنائه، ما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَّقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾[1].

فقد قرئ : (خَرَقُوا)[2]؛ أي بتخفيف الراء.

وكلاهما من مادة لغوية واحدة هي : خرق واخترق، بمعنى خلق واختلق، أي ادعى وكذب وافترى[3]، لكن المدار في التفريق على زيادة التشديد في الفعل، ودلالته عند أئمة اللغة ترتبط غالبا بالتكثير وتكرار وقوع الفعل[4]، قال ابن جنّي : (ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل ، فقالوا : كسّر وقطّع وفتّح وغلّق، وذلك أنهم لمّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام)[5].

فأما قراءة التخفيف، فكأنها في معنى افتروا على الله فرية عظيمة لا يهم معها ما إذا تكرر ذلك لأن هوله لذاته، ولو قل لا لكثرة إتيانه، وكثيرا ما جاء في القرآن نعت للفرية بما يفيد تعظيمها وتهويلها، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾[6]؛ أي : عظيما[7].

وعلى هذا، فإنه ليس من شرط الكفر أن يتكرر حتى يدفع، إنما أقل الكفر أحق بأن يدفع فيه لأنه لا اجتراء على ذات الله تعالى بأدنى ما يكون من ذلك.

وأما قراءة (خرقوا) بالتشديد، فإن إفادة التشديد فيه معنى وقوع ذلك منهم مرارا فإنها لا تستنكر وقوع ذلك لمرة واحدة لجواز أن تكون المرة الواحدة غير ذات قصد لعجلة

---

[1] الأنعام : 100.

[2] معجم مكرم وعمر، 303/2، ومعجم الخطيب، 506/2.

[3] لسان العرب، 54/5.

[4] انظر : أبنية الأفعال، د. نجاة الكوفي، ص : 48، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 489/2.

[5] الخصائص، 2/ 155 .

[6] مريم : 88–89.

[7] انظر: غريب ابن الهائم، ص : 225، وغريب ابن الجوزي، ص : 227، وغريب اليزيدي، ص : 241.

أو توهم، أو غير ذلك، إنما لتكرر وقوع هذا الافتراء ولكثرة ما يديمون به افتراءهم على الله تعالى، ووجه التعبير البلاغي به إيحاؤه بمعنى الإصرار على الكفر والإلحاح على الاجتراء على الله بما يختلقون ويفترون، وسوق الاستنكار للإصرار وارد في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾[1] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

ويمكن الجمع بين القراءتين دلاليا بأن يقال : إن الافتراء على الله تعالى عظيم، وهو عظيم في أقل ما يكون منه، وعظيم في أكثر ما يكون منه، وتكامل المعنى بالقراءتين مما يدل على ثبوت قرآنية كل منهما.

3. العدول عن (أَفْعَلَ) إلى (فَعَلَ) :

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾[3].

فقد قرئ : (فاجْمَعُوا)[4].

فأما قوله : (أَجْمِعُوا) فصيغة الأمر من (أَجْمَعَ) (يُجْمِعُ)، فهو من الإجماع.

وأما قوله : (اجْمَعُوا) فصيغة الأمر كذلك من (جَمَعَ) (يَجْمَعُ)، فهو من الجمع.

ويلتقي الفعلان، ضمن البناءين، على معنى ضم الشيء عن تفرقة[1]، وبهذا يكون توجيه قراءة الإجماع على معنى ضموا كيدكم بعضه إلى بعض، إحكاما له،

---

[1] الواقعة : 46.

[2] آل عمران : 135.

[3] طه : 63-64.

[4] معجم مكرم وعمر، 91/4، ومعجم الخطيب، 454/5.

وتقوية للعزيمة[2]، وعلى هذا جاء عندهم أن أجمع الأمر معناه أحكمه وعزم عليه، وكذا أزمع، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[3] :

ذكـــــر الـــــــورود بهـــــا وأجمـــــــع أمـــــره

شـــــؤما وأقبــــــل حينـــــه يتنبــــــع[4]

ويقال في الأمر والكيد (جمع) كذلك، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾[5].

ويبدو أن القوم لا يقال فيهم : (أَجْمَعَ) إنما يقال : جَمَعْتُهُم، وقرر هذا الفارسي[6].

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾[7]، فمحمول على تقدير عامل مناسب للشركاء، كأنه يقول : ﴿ وَادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ كنحو قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[8]، وقوله : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾[9]، فهو من قبيل قول الشاعر :

---

[1] لسان العرب، 196/3.

[2] معاني القراءات، ص : 312.

[3] ديوانه، ص : 67.

[4] انظر : مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص : 275، وفعلت وأفعلت، للسجستاني، ص : 183، وفعلت وأفعلت، للزجاج، ص : 21.

[5] طه : 60.

[6] المخصص، لابن سيده، 232/14، وأبنية الأفعال، د. نجاة الكوفي، ص : 226.

[7] يونس : 71.

[8] الأعراف : 195.

[9] القصص : 64.

يـــا ليـــت زوجـــك قـــد غـــدا متقلـــدا ســـيفا ورمحـــا[1]

أي : وحاملا رمحا، لأن الرمح لا يتقلد.

وقول الآخر :

علفتهـــا تبنـــا ومـــاء بـــاردا حتـــى غـــدت همالـــة عيناهـــا[2]

أي : وسقيتها ماء، لأن الماء لا يعلف.

وبعد فإن كلا وجهي القراءة يتميزان بأدائين بيانيين نكشف عنهما بأن نقول : إن قراءة الإجماع تعبر عن معنى العزيمة والإحكام والجد، وكل ذلك مراد لفرعون في مواجهة موسى وهارون لأنه من مقتضى دفع خطرهما بالإخراج من الأرض بسحرهما.

وقراءة الجمع تدل على الحرص والجد من خلال الدعوة إلى الإتيان بكل السحرة من أماكن متفرقة ومتباعدة، على أن دلالة (جمع) على الحرص والعزم إنما تتصيد من السياق فيما تدل (أجمع) على ذلك بإيماء الصيغة إليه، دون توسل بالسياق ومراعاته.

4 . العدول عن (تَفَاعَلَ) إلى (تَفَعَّلَ) :

ونبحث فيه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾[3].

فقد قرئ : فيه بوجوه كثيرة منها : (تَشَبَّهَ)[4].

فأما الشبه فمعروف، ولكنا ننظر في دلالة البناءين وما يحصل مع كل منهما من قيمة فنية وأداء بياني، فصيغة (تشابه) من (تفاعل) الذي يدل على المشاركة في الحدث أو الوصف[5]، والاشتراك هنا واقع في الاتصاف بالهيئة الواحدة على نحو يجعل

---

[1] انظر : الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، 218/1، وتأويل مشكل القرآن، ص : 214، والخصائص، 431/2.

[2] انظر : تأويل مشكل القرآن، ص : 213، والخصائص، 431/2، وخزانة الأدب، للبغدادي، 139/3.

[3] البقرة : 70.

[4] معجم مكرم وعمر، 70/1، ومعجم الخطيب، 124/1.

[5] انظر : أبنية الأفعال، د نجاة الكوفي، ص : 55، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 164، ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص : 273.

البقر غير متمايز للرائي، مما يجعل الوصول إلى المطلوب من بينها عزيزا، وهو ما اعتذروا به لموسى عليه السلام فاحتيج، من ثم، إلى مزيد صفة تكون فارقا للمبتغى عن سواه، فجاء بعدها قوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾[1]، ليكون ذلك كله مميزا للبقرة المطلوبة ومبينا لها من بعد تشابه.

والذي يظهر من استعمالات التشابه في القرآن الكريم أنه يصلح للدلالة على معنى الاستواء والاشتراك بين متعدد، أي ما يكون كثيرا، لأن الكثرة في ما يتشابه أدعى لزيادة الالتباس، ويدل على هذا ما يأتي :

- ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾[2]، والبقر هنا كثير.

- ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾[3]، وآيات القرآن الكريم كثيرة.

- ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾[4]، والخلق ظاهر الكثرة.

- ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾[5]، وذلك بادي الكثرة.

فإذا بان هذا واتضح، بدا معه أن الأَوْلى فيما يكون عن البقر أن يقال : (تشابه) للجمع بين الدلالة على المشاركة والاستواء، وكثرة ما يكون منه ذلك، فيصيب اللفظ المعنى إصابة قد لا يوفق سواه إليها، وهي إصابة جاء بها هذا البناء أي بناء: (تفاعل).

وأما صيغة (تَشَبّه)، أي (تفعَّل)، فتأتي للدلالة على عدة معان لعل أنسبها بسياق الآية هو تكلف الفعل[6] ، أي تعمد أن يكون من أهله كما يعبر سيبويه[1]، كتشجع

---

[1] البقرة : 71.

[2] البقرة : 70.

[3] آل عمران : 07.

[4] الرعد : 16.

[5] الأنعام : 141.

[6] انظر : أبنية الأفعال، د. نجاة الكوفي، ص : 56.

لمن تكلف الشجاعة، وتصبَّر لمن تكلف الصبر، وغيره، فمعنى (تشبه) تكلف الشبه، أي الاجتهاد في أن يكون شبيها بالشيء، ومنه قولنا مثلا : تشبه الولد بوالده، أو التلميذ بأستاذه، إذا اجتهد وكلف نفسه أن يكون شبيها به ويظهر من معناه أن الغالب وقوعه بين اثنين : مُتَشَبِّهٍ ومُتَشَبَّهٍ به.

وهذا المعنى ظاهر جلي، لكن فيه أمرا نحسب أنه يفصل في التمييز بين أدائي القراءتين البيانيين، ذلك أن التفعل يكون من فاعل يتكلف الاتصاف بما ليس فيه، أو يجتهد في الدخول فيما التفاعل ليس منه، قال سيبويه : (وإذا أراد الرجل أن يُدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون من أهله، فإنك تقول : (تفعَّل))[2].

وبهذا يكون معنى تشبه البقر سعيه في الدخول في صفة جنس غيره، أو حال مخلوق آخر غيره، وهو معنى بعيد جدا عن مراد الآية، ودلالة قصتها وسياقها، كما أن دلالة التفعل على التكلف تكاد تربطه بالعاقل، لأن التشبه يتضمن بذلك معنى القصد إلى أن يكون الفاعل شبيها بغيره، مما يزيده بعدا عن الآية، لأن التشبه فيها متلبس بغير العاقل، كما هو ظاهر.

وبعد، فإن الأمر يخلص، بما سبق عرضه، إلى أن التعبير بـ (تشابه) أوفق لتأدية المراد، وأخلق بإصابة المعنى والمقصود.

5. العدول عن (تَفَاعَلَ) إلى (افْتَعَلَ) :

---

[1] الكتاب، 4/71.

[2] الكتاب، 4/71.

جاء من هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

فقد قرئ : (فلا تَنْتَجُوا)[2].

وكلا القراءتين بمعنى واحد، هو الإسرار بالكلام، أي أن يكلم الرجل الرجلَ بحديث يخفيه عمن سواهما، لا يريد أن يطلعوا عليه[3]، هذا ما يجمع وجهي القراءة لكن ما يفرقهما هو البناء.

فـ (تَتَنَاجَوْا)، هو من تناجى، على وزن (تَفَاعَلَ)، و(تَنْتَجُوا)، هو من انْتَجَى على وزن (افْتَعَلَ)، ومصدر (تناجى) التناجي، أو المناجاة، أي التفاعل والمفاعلة، ومصدر (انتجى) الانتجاء، أي الافتعال، فأما (تناجى)، فهو بناء المشاركة من النجوى، وذلك لأن السر أو الإسرار في الكلام لا يقع إلا من اثنين أو أكثر.

وتوجه قراءة المشاركة على النهي عن إسرار الكلام فيما بينهم بما فيه إثم وعدوان ومعصية، وإنما إذا هم أسروا القول إلى بعضهم فبالبر والتقوى، فدل بذلك على أن الضير في المناجاة أن تكون للإثم، وعلى إجازتها في ما فيه طاعة وتقوى.

وقراءة (تَنْتَجُوا)، يدل على بناء (افتعل) فيها على الجد والاجتهاد في الحدث مثل استرق واكتسب وغيرهما[4]، فانتجى الرجل ينتجي إذا عمل على ذلك، وجد وحمل النفس واجتهد فيه فكأن النهي في الآية متعلق بالجد في النجوى وعقد القصد فيها، أي : لا تقصدوا بنجواكم إلى ما فيه معصية وجدوا واقصدوا إلى ما فيه بر وتقوى.

وهذا الوجه يرى علوه البلاغي من جهة تعليق الطاعة والمعصية بالجد فيهما، وإحكام القصد إليهما.

---

[1] المجادلة : 09.

[2] معجم مكرم وعمر، 103/7، ومعجم الخطيب، 372/9.

[3] لسان العرب، 205/14.

[4] انظر : الكتاب، 74/4، وأبنية الأفعال، ص : 59.

والوجه البياني في قراءة المشاركة يظهر في ربط النجوى بالطاعة والتقوى في كل حال يوقعها الإنسان عليه، جادا مجتهدا أم غير ذلك، أي أن معنى الاجتهاد لا يغير من وجوب جعل النجوى في ما فيه رضا الله وطاعته.

ثم إن قراءة المناجاة يؤيدها تشاكلها مع ما جاء منها في السورة[1]، أي أنه حاذى في اللفظ ما كثر دورانه منه في سياقه، والحق أن كل ما في القرآن الكريم هو مناجاة وتناج لا انتجاء، ولكن قراءة الانتجاء هذه تجد ما يؤيدها في السورة نفسها، وذلك في دلالة قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[2] على الإصرار والجد في إتيان النجوى، فالحق كذلك أن هؤلاء أنتجوا لا تناجوا.

6. العدول عن (فَعَّلَ) إلى (فَاعَلَ) :

ومن وجوه افتراق المباني ما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

قرئ : (فَارَقُوا)[4].

فأمّا (فرّقوا)، فمن التفريق، وهو معروف، وأما (فارقوا) فمن المفارقة أي الترك، وهو معروف كذلك.

وبالنظر في سياق الآية فإن كلا المعنيين مستنكر مذموم، سواء من فرّق دينه وشتّته، أو من فارقه وتركه، لذا برّأ الله تعالى نبيه من هذا وذاك، إذ قال : ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

ومع هذا، فإنه قد يقال: إن قراءة التفريق تبدو أدنى إلى المراد من جهة ملاءمتها لسياق الحديث عن الفرق والشيع والأحزاب، فقوله : (وكانوا شيعا) يقوي إرادة معنى

---

[1] حجة القراءات، لابن زنجلة، ص : 704.

[2] المجادلة : 08.

[3] الأنعام : 159.

[4] معجم مكرم وعمر، 338/2، ومعجم الخطيب، 596/2.

التفريق والتشتيت، والشيع الفرق[1]، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2]، فجمع بين معنى الفرق ومعنى الأحزاب.

وقد يقال إنّ قراءة المفارقة تتضمن حكما على من يسعى في تفريق الدين بأنه بذلك قد فارق الدين، أي تركه، وخرج منه، وزال عنه، فكأن التعبير بالمفارقة أدل على الكفر من التفريق، إذ قد يحمل على اختلاف الآراء والفهوم، وهو مشروع، ولعلّ هذا هوما بنى عليه علي بن أبي طالب تمييزه بين المعنيين، فقد روي أن رجلا قرأ عنده : (إنّ الذين فرّقوا دينهم)، فقال علي : (لا والله ما فرّقوه ولكن فارقوه)، ثم قرأ : (إن الذين فارقوا دينهم)[3].

ولكن في هذا نظرا، فالسياق يأبى أن يسوق العبارة في الآية إلى معنى الاختلاف المشروع، والتمذهب المرخص فيه، إذ في قوله : (لست منهم في شيء) دلالة على سوق العبارة إلى معنى مذموم، غير مشروع، ولا مأذون فيه، وهو تفريق أهل الملّة الواحدة بجعلهم فرقا متعادية متناحرة يضرب بعضهم أعناق بعض.

ولا ضير في أن يقال : إن كلا وجهي القراءة محتمل للمسة بيانية تعلو بهما إلى سمو البلاغة القرآنية :

– فقراءة (فرّقوا) مباشرة للمعنى الذي سيق الكلام في الآية له، وهو الانقسام إلى شيع وفرق وأحزاب، ومعلوم ما في الانقسام والفرقة من الشر، وما في الاتحاد والتآلف من الخير، كما أنها مؤيدة بالتصريح بألفاظ الشيع والأحزاب.

– وقراءة (فارقوا) تصير معها متضمنة لمعنى الفرقة والانقسام مع الحكم عليه بأنه كفر، فكأن قوله : (وكانوا شيعا) تفسير لقوله : (فارقوا دينهم)، أو هو تعليل له، أي: إنّ الذين كفروا بأن انقسموا، فكانت القراءة بهذا من الروعة بمكان، لتضمنها المعنى وما يترتب عنه، أي التفريق والكفر، ولعل هذا ما دعا بعض العلماء إلى أن رأى بين القراءتين

---

[1] انظر : غريب ابن الجوزي، ص : 123.

[2] الروم : 32، وانظر : حجة ابن زنجلة، ص : 278.

[3] حجة ابن زنجلة، ص : 278.

تكاملا في المعنى، قال ابن زنجلة : (والمعنيان متقاربان لأنهم إذا فرّقوا فقد فارقوه)[1]، وهو تكامل التعليل، فيما فهمناه، أي أنّ التفريق علّة في الكفر، وهو ظاهر.

7. العدول عن (أفْعَلَ) إلى (فَعَّلَ) :

ولنا أن ندرس من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَأَوصَى بِهَا إِبرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

فقد قرئ : (ووصّى بها)[3].

والحقيقة أن في الإمكان أن نبحث هنا ما قرئ فيه بـ (أَنْزَلَ) و (نَزَّلَ) و (أَنْجَى) و (نَجَّى) و (أبْلَغَ) و (بَلَّغَ)، وغيره، وهو بحث في ما نرى خليق بإطالة الكلام فيه إلى ما ينتهي الباحث معه إلى تفسير متماسك، فأقول : إن بحث الفرق بين التعبير بـ (أوصى) وبـ (وصّى) يرتد إلى بحث الفرق بين التعبير بمصدريهما : (الإفعال) و (التفعيل)، أو (الإيصاء) و (التوصية)، وكذا بحث الوجوه الاستعمالية في كل منهما.

❖ فرق ما بين (الإفعال) و (التفعيل) في لغة القرآن الكريم :

أ- الإفعال :

يجيء هذا البناء مصدرا قياسيا لكل فعل ثلاثي زيد في أوله همزة للتعدية، كنحو (جلس) و(أجلس)، و(خرج) و(أخرج)، ويكون مدخول ما عُدِّي بزيادة همزة في أوله مفعولا لمعنى الجعل، ففي قول القائل : (أجلس زيد عمرا) يعرب (عمرا) مفعولا به لمعنى الجعل، أي : جعل زيد عمرا يجلس.

---

[1] الحجة : 278.

[2] البقرة : 132.

[3] معجم مكرم وعمر، 116/1، ومعجم الخطيب، 197/1.

قال ابن الحاجب : (وهي أن يجعل ما كان فاعلا للازم مفعولا لمعنى الجعل فاعلا لأصل على ما كان، فمعنى : (أذهبت زيدا) : (جعلت زيدا ذاهبا)، فزيد مفعول لمعنى الجعل الذي استفيد من الهمزة)[1].

وعبر ابن مالك عن هذا المصدر في قوله :

وزكه تزكية وأجملا إجمال من تجملا تجملا

أي أن الإجمال هو مصدر للفعل (أجمل)[2]، وعلى هذا قيل في أحسن الإحسان، وفي أخرج الإخراج، وفي أسلم الإسلام، وغيره كثير، فلا يكاد يحصر[3].

ويلاحظ أن ليست الهمزة في كل ذلك للتعدية فحسب، إنما التعدية هي أشهر المعاني التي تزاد لها.

ومنها أيضا : التعريض والسلب والدخول في الزمان أو المكان والصيرورة وغيرها[4].

ولا يعنينا في هذا البحث استقصاء ذلك كله إنما يتعلق مرادنا بالبحث في ما يجيء معدى بالهمزة تارة، فيقال في مصدره : الإفعال، وبالتضعيف أخرى، فيقال في مصدره : التفعيل، وكل ذلك ضمن المادة اللغوية الواحدة، ثم بحث الفرق الاستعمالي بينهما.

ولقد ظهر لي بعد تتبع فحص للسياقات الدلالية التي يرد فيها الإفعال أنه يتلبس بمفعوله ضمن دلالة الميل إلى ذلك والرغبة فيه، ونوضحه بأن إذا قيل : أخرج زيد عمرا، فإن عمرا هنا يرغب في هذا الخروج، أو أن إخراجه لا تمنع فيه منه، كأن يكون ضعيفا مثلا.

---

[1] شرح شافية ابن الحاجب، ص : 86، وانظر : أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، د. نجاة عبد العظيم الكوفي، ص : 31 .

[2] انظر : توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للمرادي، 25/2.

[3] المقتضب، للمبرد، 72/1، والكتاب، 78/4.

[4] انظر : أبنية الأفعال، نجاة الكوفي، ص : 35، ما بعدها، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص : 142.

ويمكن التعبير عند ذلك بأن الإفعال لا يتلبس بمفعوله إلا عن طواعية ورغبة وميل، أو سهولة وعدم امتناع، وذلك بخلاف التفعيل.

ب- **التفعيل** : يجئ بناء التفعيل مصدرا قياسيا لكل فعل ثلاثي مضعف العين، كنحو (دمر) (التدمير) و(فسر) (التفسير)، وغير ذلك.

ويفيد بناء (فعّل) هذا معنى التعدية كذلك، وإن قرر العلماء أن التكثير هو أشهر معانيه كما أن التعدية هي أشهر معاني (أفعل)[1].

ومعنى التكثير هنا هو تكرير وقوع الفعل مرة بعد مرة، فدلوا بتقوية اللفظ، بتضعيف عينه، على تقوية المعنى بتكريره، وفيه قال ابن جني : (ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل، فقالوا : كسّر وقطّع وفتّح وغلّق، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل)[2].

والذي ينبغي الوقوف عنده هو اشتراك البناءين في معنى التعدية، ومجيء المنصوب بعدهما مفعولا لمعنى الجعل، فقولنا : نزّلت الشيء من عل معناه : جعلته ينزل.

لكن الذي نرمي إلى البحث فيه هو تحديد السياق الدلالي الذي يرد فيه التعبير بالتفعيل الذي يصح معه مجيء الإفعال، ضمن المادة اللغوية الواحدة ، كما أسلفنا القول.

وعلى خلاف الإفعال ظهر لي أن التفعيل إنما يتلبس بكل مفعول لمعنى الجعل فيه من جهة حمله على ذلك من بعد تمنع وإباء، فإذا قيل : سلّم زيدا عمرا، فإنه فعل ذلك به على كره منه وتمنع، وسيأتي لهذا مزيد بيان.

وخلاصة ما قدمنا هنا أن نقول : إن الإفعال يكون لما فيه رغبة وميل إلى مفهوم معناه، وإن التفعيل يكون لما فيه تمنع وإباء، وجهد ومعالجة ورياضة.

جـ- ما يكون منه (الإفعال) و (التفعيل) معا في لغة القرآن الكريم :

---

[1] أبنية الإفعال، نجاة الكوفي، ص : 51.

[2] الخصائص، 155/2.

نحب في البدء أن ننبه إلى أن عملنا هنا مبني على رد ربط التفعيل بمعنى التكثير مطلقا، على ما ذهب إليه غير واحد من أئمة اللغة[1]، و ذلك لاضطراب عباراتهم، وتدافع مذاهبهم في أخذ معنى التكثير من التفعيل بين اختصاصه باللازم أو بالمتعدي، أو بأخذه من كليهما معا، وقد دل على اضطرابهم كذلك عدم صدق معنى التكثير على كل تفعيل جاء ضمن شواهد قرآنية، وسنعرض له في المبحث الذي أفردناه لطلب التفريق بين الإنزال والتنزيل في لغة القرآن الكريم.

وعلى هذا، يعن لنا هنا وجوب عرض الأساس التداولي، والبعد الاستعمالي الذي أقمنا عليه التفريق بين الإفعال والتفعيل، فنقول : إن (فعّل) اللازم يكون للتكثير كموّتت الإبل، وبرّكت، إذا كثر منها ذلك، وربما خرّجوا عليه قراءة (يكذّبون)[2]، بتشديد الذال، حيث احتملوا كونه لازما، وإنما جاء التضعيف فيه للدلالة على معنى كثرة كذبهم[3].

كما يدل (فعّل) على التكثير في كل فعل متعد لا يصح أن يجيء منه الإفعال، ككسر وكسّر، وجرح وجرّح، وغيرهما، فإن منهما (التكسير) و(التجريح)، وليس منهما (الإكسار) و(الإجراح).

أما (فعّل) المتعدي، مما يجيء منه البناءان معا، كنحو (أغلق) و(غلّق) فإن (الإفعال) منه للطواعية والميل، و(التفعيل) منه للتمنع والإباء.

وهذا بيانه في لغة القرآن الكريم :

1 – الإسلام والتسليم :

---

[1] انظر : الكتاب 65/4، البحر المحيط، 103/1.

[2] انظر : معجم مكرم وعمر، 20/1، ومعجم الخطيب، 56/1.

[3] ولم نقف على من نبه عليه من بحث في الفرق بين البناءين غير سيبويه في باب دخول فعلت على فعلت لإشراكه في ذلك أفعلت، انظر : الكتاب 64/4.

أ. **الإسلام** : هو مصدر أسلم يُسلم، إذا خضع و انقاد، ومنه سمي هذا الدين، لأن معتنقه ينقاد لموجب أوامره ونواهيه، ومعلوم أن ذلك إنما يكون عن رغبة وميل، لاعن تمنع وإباء، إذ لو كان كذلك لاحتمل الإكراه، ولا إكراه في الدين[1].

ولم يرد هذا البناء في لغة القرآن الكريم إلا مقترنا بما يدل على معنى الرغبة و الاختيار:

قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2]، فقوله (رضيت) دليل على الميل والاختيار لأن معناه : اخترت لكم الإسلام دينا.

- وقال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[3]، دل على الاختيار قوله بعده : ﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[4] أي في قوله : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾، إذ ليس هو عليهم بمسيطر.
- وقال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5]، دل على الرغبة والاختيار بقوله : (يبتغ)، فإن معناه : ابتغوا الإسلام دينا.
- وقال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[6]، دل عليه بقوله : (شرح الله صدره).
- وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]، دل عليه بقوله : (وهو يدعى).

---

[1] انظر : لسان العرب، 243/7.

[2] المائدة : 03.

[3] آل عمران : 19.

[4] آل عمران : 20.

[5] آل عمران : 85.

[6] الزمر : 22.

- وقوله تعالى : ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾[2]، دل على الاختيار بقوله : (لا تمنوا) لأن المرء لا يمن بالشيء إلا وهو منه بمحل الميل والرضا.
- وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[3]، فهو يعيب عليهم الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام، وهو دليل اختيارهم الأسوأ، فدل بذلك على انتفاء الإكراه.
- وقوله تعالى : ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[4]، فتلبيس الإسلام بالوجه دال على الإقبال والرضا.
- وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[5]، محمول على ذلك أيضا.
- وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[6]، ليس الأمر فيه للإكراه، إنما للأولية في الإسلام لمناسبة النبوة، والدعوة إلى الله بأن يكون القدوة في ذلك.
- وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[7]، محمول عليه أيضا.
- وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾[8]، فالتحري دليل الاختيار.

---

[1] الصف : 07.
[2] الحجرات : 17.
[3] التوبة : 74.
[4] البقرة : 112.
[5] النساء : 125.
[6] الأنعام : 14.
[7] غافر : 66.
[8] الجن : 14.

- وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾[1]، وهو صريح في أنه دعي فاستجاب، وقوله : ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صريح في الإيمان بما أسلم له، فلا إكراه.
- وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[2]، فإنهما، عليهما السلام، ما فعلا إلا من بعد تشاور فاختيار عن طاعة ورضا.
- وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[3]، فدل بالوجه على الإقبال.
- وقوله تعالى : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، فإنها ما فعلت إلا من بعد ما رأت الآيات، ودلت عليه بإقرارها بالربوبية، فارتفع الإكراه.
- وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[5]، فجعل الإسلام موطئا للإيمان، وهو التصديق، ولا تصديق مع إكراه لأنه فعل قلبي.
- وقوله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[6]، فقوله : (فيها هدى ونور دليل الطوع والميل).
- وقوله تعالى : ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[7]، فقوله : (وجلت قلوبهم) دليل الاختيار القلبي وانتفاء الإكراه.
- وقوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[8].

---

[1] البقرة : 131.
[2] الصافات : 103.
[3] آل عمران : 20.
[4] النمل : 44.
[5] الحجرات : 14.
[6] المائدة : 44.
[7] الحج : 34-35.
[8] الزمر : 54.

ب. التسليم : ومع التسليم يتعين أن نشير إلى أن تضمنه معنى التمنع والعند والإباء اقتضى وروده في سياقات الجدل والخلاف، والدعوة إلى إعمال الفكر والنظر، قصدا إلى التأثير، والخروج بالشيء عن حاله إلى حال أخرى، كمواضع محاورة الكفار والمشركين، أو اليهود والنصارى، ومجادلتهم، في سبيل التأثير في نفوسهم، ودعوتهم إلى عقيدة الإسلام وحكمه، فمن ذلك :

قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1]، واحتمال الآية لمعنى الخلاف والجدل ظاهر.

- وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[2]، فهذا التسليم جاء في سياق الجدل الذي كان في غزوة الأحزاب بين المؤمنين والمنافقين، حتى إن حال المؤمنين لكما وصفه القرآن : ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[3]، فلما هزم الله الأحزاب، ونصر عبده، كان فيه ما حملهم على الإيمان والتسليم، فهذا تسليم جاء من بعد اضطراب وامتناع ناجم عن فتنة الأحزاب تلك.
- وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[4]، أي: إن صلاة الله عليه، وصلاة الملائكة، تحمل نفوسكم على أن تسلموا عليه كذلك، فافعلوا، ويدل توكيده بالمفعول المطلق على معنى الحمل والإيجاب[5].

---

[1] النساء : 65.

[2] الأحزاب : 22.

[3] الأحزاب : 10-11.

[4] الأحزاب : 56.

[5] ينبغي أن نلاحظ مجيء المفعول المطلق عن سلم المضعف العين كآيتي الأحزاب : 22-56، وآية النساء : 65، ولو كان مما يحدث طوقا وميلا لما احتاج إلى توكيد ولم يرد الإسلام مفعولا مطلقا أبدا، بل الأفعال كله إلا ما لا تفعيل فيه كنحو ما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾، نوح : 09.

- وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[1]، جاء ضمن سياق التنازع والخلاف، ففي الآية نفسها قوله : (ولتنازعتم في الأمر).
- وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2]، لأنه على الحمل والإيجاب.
- وقوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾[3]، لأنه حمل على دفع ما يجب للمسترضعة من أجر.
- وقوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾[4]، معناه محمولة على خلاف غير الأصل من حال البقر في مثل ذلك، أي : إثارة الأرض وسقي الحرث.
- وقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾[5]، فلأن ذلك على الإيجاب.
- هذا عن الإسلام والتسليم.

2- الإيصاء والتوصية :

أ . **الإيصاء** : ومع شيء من التأمل كذلك يمكن رد ما جاء في لغة القرآن الكريم معبرا فيه بـ (أوصى) تارة، وبـ (وصى) أخرى، إلى ما أسلفنا من اختصاص التفعيل فيه بالحمل على موجب معناه، وخروج الإفعال عن ذلك إلى معنى الميل والرغبة :

فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[6]، فإنه لما كان بنوه أنبياء ما احتيج معهم إلى حمل، وليس السياق متضمنا جدلا، ولا هم ذوو امتناع وعناد، ويدل عليه أنه لما سألهم : (ما تعبدون من

---

[1] الأنفال : 43.

[2] النور : 61.

[3] البقرة : 233.

[4] البقرة : 71.

[5] النساء : 92.

[6] البقرة : 132.

بعدي قالوا نعبد إلهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون)[1]، هذا تخريج قراءة الإيصاء فيها.

- وقال تعالى : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[2]، فأوثر التعبير بالإيصاء رعيا لمقام النبوة الذي لا يحتمل امتناعا عن هذا، ومعاندة فيه.
- وقال تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[3]، لأن الوالد لا يحمل على فعل الخير بولده، إنما هو يأتيه عن رغبة وميل، ومثله كل ما جاء في المواريث من الإيصاء[4].

ب . **التوصية** : ويرتبط هذا البناء بمعنى الحمل على موجب معناه ومقتضاه :

- فقال الله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[5]، لأنه محمول على ذلك، فقد يعاند فيه ويمتنع بأن يعقهما.
- وقال تعالى : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[6]، فإنه لما كان ما يوصي به واجبا، وهو عبادة الله تعالى، والإسلام له، ساغ التعبير بالتوصية في قراءة من قرأ بها.

فلما احتمل السياق النظر إلى الموصى مرة، وإلى الموصى به أخرى، جاء هذا الحرف بوجهين في القراءة، هما الإيصاء والتوصية، لذلك سوى بينهما العلماء[7].

- وقال تعالى : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[8].

---

[1] البقرة : 133.

[2] مريم : 31.

[3] النساء : 11.

[4] قد يقال : إن مضمون الوصية واجب التنفيذ فلم عدل في قوله : (من بعد وصية يوصي بها أودين) عن التوصية إلى الإيصاء ؟ فجوابه : إن إيجاب تنفيذ الوصية ليس للموصى إنما هو موافقتها لأحكام الشرع، فرجع بهذا المعنى حكم الإيجاب للشارع الحكيم لا للموصي الذي هو نفسه محكوم بالشرع الحنيف، والله تعالى أعلم.

[5] العنكبوت : 08.

[6] البقرة : 132.

[7] انظر : معاني القراءات للأزهري، ص : 64.

[8] الأنعام : 151.

و : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

و : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

- وقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ﴾[3].

كل ذلك مما حملوا عليه، إذ هو مما أوجبه الله تعالى، كما أن وروده ضمن سياق محاججة بني إسرائيل، في تشريع ذلك، أوثر معه التعبير بالتوصية، على ما سبق بيانه.

- وقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾[4]، فتصريحه بلفظ التشريع دليل على الإيجاب والإلزام بأحكامه.

وما لم نذكره هنا محمول على ذلك أيضا.

3- الإنجاء والتنجية :

أ. الإنجاء : ولما كان الإفعال مما يرتبط بالدلالة على الميل والاختيار والرغبة في ما يتلبس به، جاء في لغة القرآن الكريم ضمن سياقات اليسر والسهولة، وذلك مما ترغب النفس فيه، ولم يرد الإنجاء متلبسا بالشدة والمشقة والمكروه أبدا، وما جاء في ظاهره على ذلك، فقد أمكن رده، بغير كلفة، أو عسف، إلى معنى اليسر والسهولة على ما نجتهد فيه هنا :

- **إظهار قدرة الله** : وذلك إذا تعلق الغرض بإظهار فضل الله تعالى على عبيده بما لا يعجزه، وإن أعجزهم :

كقوله تعالى : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[1]، فهو تفضل بما لا يقدرون عليه.

---

[1] الأنعام : 152.

[2] الأنعام : 153.

[3] الأنعام : 144.

[4] الشورى : 13.

- وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[2]، فهو تفضل بما يسر عليهم النجاة.
- وقوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[3]، فهو تمن لأن يسهل عليهم النجاة بفضله ومحمول على هذا كل ما جاء في هذه المواضع :

(يونس : 22، الأعراف : 165، هود : 116، الشعراء : 65، النمل : 53، البقرة : 50، الأعراف : 141، طه : 80، الأعراف : 72، الأعراف : 83، الشعراء : 119، النمل : 57، العنكبوت : 15، الأنبياء : 9، العنكبوت : 24، المعارج : 14، يونس : 103، الأنبياء : 88، الصف : 10).

– **تمني تيسير النجاة** : وجاء منه :

- قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾، وهو ظاهر التمني.
- وقوله : ﴿ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾، لأنه مما يوده المجرم.
- وقوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾، لأنه من دعائهم بتيسير النجاة.

ب . التنجية : وتظهر دلالة التنجية، إذا هي قوبلت بالإنجاء، فإنه لما تعلق الفعل (أنجى) بالدلالة على اليسر والسهولة، رغبة في ذلك، وميلا إليه، جعل الفعل (نجّى) للدلالة على ما فيه مشقة وصعوبة، رغبة عن ذلك، وكرها له، وقد اقترن بناء التنجية بما فيه سوء وأذى كالعذاب والظلم، ونحوه، على خلاف الإنجاء، وذلك على هذا البيان :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾[4]، فلما ذكر (الضر) عبر بـ (نجاكم).

---

[1] إبراهيم : 06.

[2] يونس : 22.

[3] الأنعام : 63.

[4] الإسراء : 67.

- وقال : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]، فدل بقوله (إلى البر) على القصد إلى هول البحر، فعبر بـ (نجاهم).
- وقال : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[2]، فلما ذكر غشيان الموج عبر بـ (نجاهم).
- وقال : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾[3]، فإنه ذكر الغم فقال (نجيناك).
- وقال : ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[4]، فلما قال (الكرب العظيم) عبر بـ (نجيناه).
- وقال : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[5]، فناسب قوله (سوء العذاب) قوله (نجيناكم).
- وقال : ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[6]، فناسب قوله (عذاب غليظ) قوله (نجيناهم).
- وقال : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[7]، حملا على جميع ما سبق، ومثله ما جاء في : (الزمر : 61، الأنعام : 63، الأنعام : 64).

ويحمل على هذا ما جاء في محور :

– **تنجية الأنبياء** : وذلك لأجل تهويل ما سيصيب أقوامهم، وجاء في ذلك في المواضع التالية :

(هود : 58، هود : 66، هود : 94، فصلت : 18، يونس: 73،الأنبياء : 71، الأنبياء : 74، الشعراء : 170، الصافات : 134، القمر : 34).

---

[1] العنكبوت : 65.
[2] لقمان : 32.
[3] طه : 40.
[4] الأنبياء : 76.
[5] البقرة : 49.
[6] هود : 58.
[7] الدخان : 30.

– **الدعاء :** وهو لإظهار العجز عن دفع الأذى والسوء، وذلك في المواضع التالية :

(يونس : 86، الشعراء : 118، الشعراء : 169، القصص : 21، التحريم : 11).

جـ . اجتماع الإنجاء والتنجية :

وقد اجتمع البناءان في مواضع قليلة، يمكن بقليل من التأمل، رد ذلك إلى ما قدمنا القول فيه، فمن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، فعبر بـ (نجينا) لاقترانه بالغم، وعبر بـ (ننجي) لإظهار قدرته تعالى على نصر أنبيائه، وعباده المؤمنين، وليس هذا من تنجية الأنبياء، كما سبق، لأنه غير مقترن بتعذيب أقوامهم.

• وقوله تعالى : على لسان سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[2]، فدخل الأول في غرض الدعاء فقال (نجني)، إظهارا للجزع من أذى الكفرة، والخوف من أن يناله، ومن معه، انتقام الله من قومه، ودخل الثاني في غرض إظهار قدرة الله تعالى على ذلك فإنه مما لا يعجزه.

ويتعين في هذا الموضع الإشارة إلى قوله هنا : (نجني... فأنجيناه)، ثم إلى قوله بعد ذلك، في قصة سيدنا لوط عليه السلام : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾[3]، فإن قوم نوح اقتصر ذنبهم على التكذيب فحسب، حتى إنه دعا ربه بالحكم بينه وبينهم، فقال : (فافتح بيني وبينهم فتحا) أوثر التعبير بالإنجاء، فإنه لما اتحد حال النبيين نوح ولوط عليهما السلام في الدعاء، وإظهار الحاجة إلى نصر الله، اتحد اللفظان عندهما، فقال كلاهما (نجني) مؤثرا التنجية، ولكن افترق حال قوم لوط عن قوم نوح

---

[1] الأنبياء : 87–88.

[2] الشعراء : 118–119.

[3] الشعراء : 169–170.

بأن زادوا على التكذيب إتيان الفاحشة، فجعل للذنب الأخف اللفظ الأخف، فقال عن نوح (فأنجيناه)، وزاد في لفظ قصة لوط للزيادة في السوء، فقال عن لوط (فنجيناه)، فاختلف اللفظان لاختلاف حالي النبيين حتى إن نوحا ما قلى قومه فدعا بالفتح بينه وبينهم، في حين كان ذلك من لوط لشدة قبح ذنب قومه، فقال : (إني لعملكم من القالين)، وموجزه أنه لما كان من قوم نوح تكذيب قال (أنجيناه)، ولما كان من قوم لوط تكذيب وفاحشة قال (نجيناه).

- وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[1]، فقوله : (من ينجّيكم) من التنجية لمناسبة ظلمات البر والبحر، وذلك شدة وهول، وقوله : (لئن أنجيتنا) لمناسبة تمني التيسير، وقوله (ينجيكم)، من الإنجاء، لمناسبة غرض إظهار القدرة، فقد قال بعده : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾[2].

4- توجيه القراءات بين التنجية والإنجاء : ويدخل ذلك ضمن الحكمة من تنويع وجوه القراءة بالقصد إلى تكثير المعاني بإمكان دخول كل قراءة في غرض من الأغراض المختلفة التي ذكرت، فمن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وقراءة : ﴿مَن يُنَجِّيكُم ﴾[3]، أي بالتنجية في قراءة، وبالإنجاء في أخرى.

فأما التنجية فلهول ظلمات البر والبحر، كما سبق، وأما الإنجاء فلإظهار القدرة، فمعناه : من يقدر على ذلك غير الله ؟.

---

[1] الأنعام : 63-64.

[2] الأنعام : 65.

[3] معاني القراءات للأزهري، ص : 162.

• وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾، وقراءة : (ينجيكم)[1]، مثل ما سبق، فالإنجاء للقدرة، والتنجية لمناسبة قوله : (من كل كرب)، وهو شدة وسوء.

• وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[2].

فقد قرئ في (لننجيه) و (منجوك) بوجهين : بالتخفيف مرة، وبالتشديد أخرى، أي بالإنجاء في وجه، وبالتنجية في آخر[3]، فيدخل التخفيف في كليهما في غرض إظهار قدرة الله تعالى على نصرة نبيه، ويدخل التشديد في مناسبة مقام الخوف و الحزن على سوء صنيع قومه وإتيانهم الفاحشة.

5- الإكبار والتكبير : وعلى قياس ما سبق :

أ. الإكبار :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾[4]، فإنه لما كان حسن سيدنا يوسف، عليه السلام، مما تميل إليه النفس دون حاجة إلى تمعن فيه لإدراكه، حتى إنه اكتفي فيه بالرؤية، فقال (فلما رأينه) جاء التعبير بالإكبار لأجل الميل إلى حسنه، واليسر في إدراك حسنه.

ب. التكبير :

قال تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾[5].

---

[1] معاني القراءات، الأزهري، ص : 162.
[2] العنكبوت : 32-33.
[3] معاني القراءات، ص : 387، السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص : 500، والنشر في القراءات العشر، 258/2.
[4] يوسف : 31.
[5] البقرة : 185.

- وقال : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾[1].
- وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾[2].
- وقال : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[3].

فإنه لما كان الأولى بالنفس، عند مقام الإنعام والإفضال، حملها على شكر الله، وحمده، ولو على كره منها، فإنها أمارة بالسوء، جاء لأجل ذلك التعبير بالتكبير، فإن عبادة الله تعالى مما يجتهد المؤمن فيه، ويلزم النفس به.

6- الإعظام والتعظيم:

أ. الإعظام :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾[4]، بضم الياء وتسكين العين، وذلك لخروج الأجر والثواب عن معنى الإلزام والإيجاب، وما تحمل النفس عليه، ودخوله فيما ترغب فيه وتميل إليه، كذا هو ليس مما يتضمن معنى الامتناع والإباء.

ب. التعظيم : وقد جاء في القرآن الكريم داخلا ضمن الإلزام والإيجاب فارتبط بالعبادات والمناسك لوجوبها :

- قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[5].
- وقال : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[6].

وحرمات الله وشعائره هي مناسك الحج وواجباته.

---

[1] الحج : 37.
[2] الإسراء : 111.
[3] المدثر : 03.
[4] الطلاق : 05.
[5] الحج : 30.
[6] الحج : 32.

6- الإنباء والتنبئة :

أ . الإنباء:

ويرد مقترنا باليسر والسهولة قياسا على ما سبق :

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

فقد عبر في كل ذلك بالإنباء من أجل الدلالة على تيسير الإعلام بالأسماء على آدم وتمكينه منه، وتسهيله عليه، إظهارا لتكريمه وإنعامه عليه، وجعل ذلك عصيا على الملائكة غير ممكنين منه.

- وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2].

فإنه في سياق الحديث عن السر، والأصل فيه التمنع على الإفشاء، ولكراهة النفس ذلك أوثر التعبير بالمشدد : (نبّأت، ونبّأها، ونبّأني) مناسبة لما يليق بالسر من التمنع والإباء وكراهة الإفشاء، ولما كان السؤال في : (من أنبأك هذا) في غرض التعجب مما يسر له الاطلاع على السر وسهله عليه، رغم ما كانت تحسبه من التكتم والتحوط، جاء التعبير بالإنباء لارتباطه بالدلالة على اليسر والسهولة كما سبق.

ب . التنبئة :

---

[1] البقرة : 31–33.

[2] التحريم : 03.

وكما أسلفنا القول في ذلك فإن الفعل (نبّأ) يرد دائما مقترنا بما فيه معنى من معاني المشقة والصعوبة وما يحتاج إلى جهد ورياضة، لتمنعه وإباءه، لذلك تلبس بالغيب والسر، وما إليه :

قال تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1].

وذلك لخفاء التأويل وتمنعه على الفهم إلا بتفسير وتفهيم، ولذلك خصّ الله به نبيه يوسف.

- وقال : ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[2]، فهذا كذلك.
- وقال : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[3]، لأنها كانت خفية عنهم ممنوعة عن علمهم إلا بإعلام الله تعالى وإطلاعهم عليها.
- وقال : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾[4]، لأنه إعلام بممتنع عنهم لولا ما يوحى إليه منه.

ومثله ما في : (القمر : 28، الأنعام : 143، الكهف : 78، آل عمران : 49، المائدة : 60، الحج : 72، الشعراء : 221، العنكبوت : 08، لقمان : 15).

7- ما جاء منفردا أو قليلا :

وذلك مثل : العدول عن التحطيم، والإمهال والتمهيل، والإنعام والتنعيم :

---

[1] يوسف : 36–37.
[2] الكهف : 78.
[3] التوبة : 94.
[4] الحجر : 51.

قال تعالى : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

فعدل عن التحطيم إلى الحطم في قراءة من فتحها، مراعاة لضعف النمل وسهولة إفنائه إذ لا امتناع فيه ولا إباء.

- وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾[2]، فقال : (اجنبني)، ولم يقل : (جنّبني)، لأنه لم يجد ترك عبادة الأصنام مما يشق على نفسه، فهذا مما يدفعه مقام النبوة.
- وقال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾[3]، فجعل الأول تمهيلا لمناسبة اقترانه بالكفر لفظا، ولمراعاة معنى الامتناع والعناد فيه، وعدل في الثاني إلى الإمهال لمناسبة اقترانه بالضمير العائد على الكفار، ومراعاة معنى الرويد، وهو من اليسر والسهولة، فروعي في كل بناء ما سيق اللفظ لأجله.
- وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾[4]، فإنه عدل عما فيه حمل وإلزام، وهو كرّمه، من التكريم، إلى ما لا إلزام ولا إيجاب فيه فقال : أكرمه، لأنه من المعاني التي لا تجوز في حق الله تعالى.

ولما كان أمر الله تعالى ملائكته بالسجود أمر إيجاب وإلزام، ثم كان من إبليس أنه امتنع وأبى، جاء تعبيره باللفظ المتضمن معنى الإلزام، فقال : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[5]، ثم ورد في السياق نفسه قوله

[1] النمل : 18.
[2] إبراهيم : 35.
[3] الطارق : 17.
[4] الفجر : 15.
[5] الإسراء : 62.

تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

وكذا نقول : إنه لما آثر عزيز مصر استمالة زوجه إلى يوسف، وترغيبها فيه، وجعلها تقبل عليه عن حب وإشفاق، قال : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، فناسب أسلوب الترغيب التعبير بالإكرام، ولو أنه قصد إلى إلزامها به لكان يقول : (كرّمي مثواه)، أو : (كرّميه).

ولما كانت الإهانة والإساءة مما ينجم عن الكره والبغض جعل ما يقابله من الحب والرغبة والميل إكراما لا تكريما، فكانت الإهانة نقيض الإكرام لا التكريم، ويستدل عليه بقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[3]، فقابل بين الإهانة والإكرام.

- وبقوله تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[4]، وهو ظاهر.
- وبقوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[5]، إذ جعل الإكرام من معنى الجلال، وهو العظمة والعز والمجد، وكل ذلك نقيض الهوان والمهانة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

[1] الإسراء : 70.
[2] يوسف : 21.
[3] الفجر : 15-16.
[4] الحج : 18.
[5] الرحمن : 78.

وبقوله تعالى : ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[1]، لأنه قصد إلى عدم الإهانة، ودليله قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[2]، لأن القهر الإهانة والإذلال، وقوله تعالى : ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[3]، والدع الدفع بقوة وخشونة وذلك إهانة وأذى.

هذا عن قوله : (أكرمه) في آية الفجر، وأما قوله : (نعّمه)، فآثر فيه التنعيم على الإنعام إذ لم يقل (أكرمه وأنعم عليه)، لأنه في معنى تسخير النعم له.

8- الإنزال والتنزيل :

ومن حق هذا المبحث أن يكون مستقلا، فيفرد له كتاب لكثرة ما جاء منه، لكنا سنقتصر فيه على شواهد للتمثيل، ونحيل على مواضع وروده في القرآن الكريم :

أ. الإنزال :

ولما كان خارجا عن معنى الحمل عن الشيء والإلزام به جاء مقترنا بالنعم والخيرات، كالماء والمنافع، والقرآن والملائكة، وغير ذلك، وذلك جميعه مما لا تأباه النفس، بل ترغب فيه وتميل :

- إنزال الماء وغيره من المنافع والخيرات : وجاء في قوله : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[4].

ومواضعه : (الأنعام : 99، الرعد : 17، إبراهيم : 32، النحل : 10، النحل : 65، طه : 53، الحج : 63، المائدة : 114، النمل : 60، فاطر : 27، الزمر : 21، الجاثية : 05، الواقعة : 69، الأعراف : 57، الحجر : 22، القصص : 24، الحج : 05، المؤمنون : 18، الفرقان : 48، لقمان : 10، فصلت : 39، النبأ : 14، يونس :

---

[1] الفجر : 17.

[2] الضحى : 09.

[3] الماعون : 02.

[4] البقرة : 22.

24-59، يوسف : 59، الكهف : 45، الزمر : 06، هود : 12، البقرة : 57، الأعراف : 26- 160، الحديد : 25).

- إنزال القرآن الكريم والكتب السماوية : وجاء منه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ﴾[1]، وقوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[2].

ومواضــــعه : (البقــرة : 90-91-170-164-213-231-04-136-185-285-41-99-159، آل عمـران : 03-04-72-84-199-53-65، النســاء : 61-113-136-166-60-162-105-174، المائـدة : 59-64-66-67-68-81-83، الأنعام : 156-157-93-92-155، الأعراف : 02-03-157، الأنفال : 41، التوبة : 86-97-124-127، يـونس: 20-94، هـود : 14، يوسـف : 02، الرعـد : 1-7-19-27-36-37، إبراهيم : 01، النحل : 24-30-44-64، الإسراء : 105، الكهف: 01، طه : 02-113، الأنبياء : 10-50، الحج : 16، النور : 01-34-46، الفرقان : 06، القصـص : 87، العنكبـوت : 46-47-50-51، لقمـان : 21، سبأ : 06، يـس : 15، ص : 08-29، الزمر : 02-41-55، الشورى : 15-17، الدخان: 03، الأحقاف : 30، محمـد : 09-20، الحديـد : 25، المجادلـة : 05، الحشـر : 21، التغـابن : 08، الطلاق : 10، القدر : 01).

- إنزال العذاب : وذلك لإقامته مقام النعيم والخير قصدا إلى مزيد التبكيت والإيلام، لأن العذاب إذا جاء من حيث يتوقع الخير كان أكثر إيلاما وأشد وقعا، كما أن الجامع بين العذاب والنعيم هو المجازاة.

وجاء منه : قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[4].

---

[1] آل عمران : 07.

[2] البقرة : 185.

[3] البقرة : 59.

[4] العنكبوت : 34.

– إنزال السكينة والملائكة نصرا وتأييدا : لأن ذلك مما ترغب فيه النفس وتطلبه وتميل إليه، وجاء منه : قوله تعالى : ﴿أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[1]، وقوله : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2].

ومواضعه : (آل عمران : 154، التوبة : 26، المؤمنون : 24–29، فصلت : 14، الفتح : 04–18–26، الأنعام : 08، يس : 28، الأحزاب : 26).

ب. التنزيل : ويرد مقترنا بما يحتمل معنى حمل النفس على الالتزام بموجب معناه من جهة الإغراء به، لا الإكراه والقسر، ولذا اقترن بالآتي :

– تنزيل القرآن : وذلك ضمن غرض حمل النفس على الإيمان به، إغراءا ودفعا إليه في سياق التمكين له في النفوس، وجاء من ذلك :

- قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[3]، فدل على الإغراء بالكتاب ذكره الاختلاف والشقاق.
- وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[4]، فدل بالمقارنة بين من يتولى الله ومن يدعو غيره على القصد إلى الإغراء بالكتاب وبالذي نزل الكتاب، وجاء من هذا : (النساء : 47–140، الفرقان : 01، الزمر : 23، محمد : 02–20–26، الملك : 09، الأنعام : 07–37، الحجر : 06–08–09–21، الفرقان : 32، الزخرف : 31، البقرة : 23–97، النحل : 89–102، الإنسان : 23، الإسراء : 82–106، الشعراء : 04–198، الروم : 49، المائدة : 101، الحديد : 09).

---

[1] آل عمران : 124.

[2] التوبة : 26.

[3] البقرة : 176.

[4] الأعراف : 196–197.

فذلك جميعه إنما قصد فيه إلى الإغراء بالقرآن الكريم والدفع بالنفوس إليه في سياق الجدل والمحاورة، وذكر الخلاف والعناد، وما في معناه.

– تنزيل السلطان والبرهان والتأييد : وذلك لما يتضمنه من الالتزام بموجب ما يدل عليه، إذ لا معنى لبرهان ما لم يكن ملزما، ومنه :

قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1]، أي دليلا واجب الإتباع، ويحمل عليه مثله من الآيات.

- وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، لأن المائدة هنا في معنى المعجزة والبرهان.

– تنزيل الماء والنعم والخيرات : وهو مشترك بين البناءين لكن باختلاف السياقين، وافتراق الغرضين، فهو هنا خارج عن معنى الإنعام داخل في معنى الاعتبار والتدبر حملا للنفس على الإذعان للمنعم به وإغراءا لها بالإيمان بالمتفضل به، فإنزال الماء للشكر، وتنزيله للاعتبار والاستدلال، وجاء منه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

- وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[4]، وجاء منه : (ق : 09، البقرة : 105، الأنفال : 11، النور : 43، الروم : 24، لقمان: 34، غافر : 13، الشورى : 28).

❖ **توجيه المتشابهات بالإنزال والتنزيل** : وذلك قوله تعالى في الأعراف : ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن

---

[1] الحج : 71.

[2] المائدة : 112.

[3] العنكبوت : 63.

[4] الزخرف : 11.

سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[1]، وقوله تعالى في النجم : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[2]، فإنه لما كان الكلام في الأعراف لنوح عليه السلام جاء التعبير بـ (نزّل) لمناسبة نفي نوح عليه السلام أن يكون ومن معه ملزمين بعبادة تلك الأسماء التي سموها هم وأباؤهم، فنفي التنزيل نفي للالتزام بعبادة آلهتهم المزعومة، ويحمل عليه قوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

على غير ما في النجم فإنه لما كان الكلام فيها لله تعالى ارتفع الإلزام، لأنه مما لا يليق لله في حقه تعالى، فجاء التعبير بـ (أنزل)، فتضمنت، من ثم، آية الأعراف نفي النزول والإلزام بالعبادة، وتضمنت آية النجم نفي النزول فحسب، وارتفع الإلزام فيها لعدم جوازه على الله.

وأما قوله تعالى في يوسف : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[5]، فإنه وإن كان من كلام يوسف عليه السلام لا من كلام الله تعالى إلا أن الإلزام هنا انتفى لأنه خارج عن سياق الجدال كالذي بين نوح وقومه إنما هو حديث إلى صاحبيه في السجن، ولا يستقيم أن يكون بينه وبينهم أي إلزام بشيء، وهو ظاهر.

---

[1] الأعراف : 71.

[2] النجم : 23.

[3] الأنعام : 81.

[4] الأعراف : 33.

[5] يوسف : 40.

وأما قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾[1]، فإنه وإن كان من كلام الله تعالى، كالذي في النجم، إلا أن اللفظين افترقا لافتراق الحالين، فإن الكلام في النجم إنما سيق لإفهام المشركين فساد اعتقادهم، ويدل عليه صرف الكلام للخطاب.

أما الكلام في آل عمران فليس هو لمحاورة الكفار، وصرفهم عن ضلالهم، إنما هو حكم عليه بالعذاب ودخول نار جهنم، فتعين لأجله الإيحاء بالسبب الذي استحقوا به ذلك، وهو جعلهم الشرك دينا واجبا فجاء باللفظ المناسب لذلك، فقال : (ينزّل)، من التنزيل، فكأن المعنى : بما أشركوا بالله ما لم يلزمهم بعبادته أو يظهر برهان ملزم بعبادته، إنما اتخذوه إلها واجب العبادة من عند أنفسهم، أو : بما عبدوا مع الله ما لا يجب عليهم عبادته، ويحمل على آية آل عمران قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[2].

ومن المتشابهات قوله تعالى في طه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[3]، وفي الأعراف : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[4]، وفي البقرة : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[5].

فإنه لما كان الكلام في طه مصروفا للخطاب، على معنى تنبيه بني إسرائيل إلى فضل الله عليه، اقتضى السياق اللفظ الموحي بوجوب الشكر، ولما كان الكلام في الأعراف مصروفا للغيبة، على معنى الحكاية عنهم، عدل لأجله إلى اللفظ الذي لا إلزام فيه، فقال : (أنزلنا عليهم)، هنا، بعد أن قال : (نزلنا عليكم)، هناك.

أما آية البقرة، فإنه على اتفاقها مع آية طه في صرف الكلام إلى الخطاب إلا أن اللفظين افترقا لافتراق المقالين والحالين، فإن الكلام في طه مساقه للتذكير بموجب الشكر

---

[1] آل عمران : 151.

[2] الحج : 71.

[3] طه : 81.

[4] الأعراف : 160.

[5] البقرة : 57.

والثناء، فقال : (نزلنا عليكم)، من التنزيل، لكنه في البقرة سيق للتوبيخ على عدم الشكر، فلم يعد للفظ الإيجاب داع، فقال : (أنزلنا عليكم)، من الإنزال.

❖ **توجيه الجامعات بين البناءين** : وجاء من هذا :

- قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فقد جعل كل بناء من البنائين لما يناسبه من المقام والحال، فإنه لما لم يكن من النبي ﷺ امتناع عن الإيمان بالكتاب جاء التعبير معه بالإنزال مراعاة لمكان النبوة منه، ولما كان في الناس امتناع عن ذلك وإعراض ناسب ذلك التعبير بالتنزيل لما فيه من معنى الحمل على الشيء، ويدل عليه قوله : (ولعلهم يتفكرون)، ليكون بتفكرهم فيه ما يدفعهم إلى الإيمان به.

- وقوله تعالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[2]، فإنه لما قصد إلى أن يجعل القرآن آية واجبة التصديق عبر بالتنزيل، وقد أردف عليه قوله : (مصدقا لما بين يديه)، أي دليلا عليه وبرهانا يلزم التسليم له، ولما تعلق القصد بجعله نعمة ورحمة، لتفريقه بين الحق والباطل والظلمات والنور آثر معه التعبير بالإنزال من أجل ذلك، فقال : (وأنزل الفرقان)، وكذلك التوراة والإنجيل فإن ذكرهما داخل ضمن غرض الإنعام والإفضال، ويدل عليه قوله : (هدى للناس)، فقال، من ثم، : (وأنزل التوراة والإنجيل)، والله أعلم.

وبعد، فإن الذي اتضح لي، من بعد تأمل في مواضع استعمال هذين البناءين، في لغة القرآن الكريم، على انفراد فيهما، أو على جمع بينهما، هو ما أوجزه بهذه العبارة : **يستعمل الإنزال عند اقتضاء السياق معنى الميل والرغبة، ويستعمل التنزيل عند اقتضاء السياق معنى الحمل والإلزام.**

---

[1] النحل : 44.

[2] آل عمران : 3-4.

الفصل الثاني:

الفروق الأدائية في وجوه ما خالف المعنى

أولا:

مخالفة المعنى مع التقارب الصوت

1. وضع صوت موضع صوت قريب منه :

وقد يتفق وجها القراءة في الرسم يكون بينهما اختلاف يرى في حرف واحد يبدل بآخر في القراءة الثانية، ويلحظ مع ذلك تقاربهما صوتيا، مع قيام الفارق الدلالي بين مجمل اللفظين، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾[1].

---

[1] السجدة : 10.

فقد قرئ : (صللنا)[1]، فتلك ضاد معجمة، وهذه صاد بغير إعجام.

فأما (ضللنا)، فإنه أصل لغوي يدور على معنى الغيبة والخفاء، ومنه الضلال لأنه خفاء للشيء فلا يهتدى إليه، فهو ضد الهداية والرشاد، ويقال: أَضْلَلْتُ الشيء إذا غيبته، وأضللت الميت دفنته، وأُضِلَّ الميت إذا دُفن[2]، ومنه قول النابغة يرثي النعمان بن الحارث الغساني :

فـــإن تحـــي لا أملـــك حيـــاتي وإن تمـــت

فمـــا فـــي حيـــاتي بعـــد موتـــك طائـــل.

فـــآب مضـــــلوه بعـــــين جليـــــة

وغـــودر بـــالجولان حـــزم ونائـــل[3].

فقوله : مضلوه يعني دافنوه.

ويقال كذلك : ضل الرجل : مات وصار ترابا فضل فلم يتبين شيء من خلقه[4]، وهذا ما في (ضللنا) المعجمة، وقد جاء منه على معنى الخفاء والتلاشي في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[5].

---

[1] معجم مكرم وعمر، 100/5، ومعجم الخطيب، 225/7.

[2] انظر : لسان العرب، 58/9.

[3] ديوان النابغة الذبياني، ص : 90.

[4] لسان العرب، 58/9.

[5] الأنعام : 24.

- وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2].

- وقوله : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾[6].

- وقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[1].

---

[1] الأنعام : 94.

[2] الأعراف : 53.

[3] يونس : 30.

[4] هود : 21.

[5] النحل : 87.

[6] الإسراء : 67.

• وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾[2].

وأما (صللنا) غير المعجمة، فإنه من صل الشيء يصل صليلا وصلصلة، ومعانيه مختلفة أدناها إلى مقام الآية : التغير والنتن، فإنه يقال: صل اللحم يصل صلولا وأصل : أنتن[3]، ومن شاهده قول الحطيئة :

ذاك فتـــــــــى يبـــــــــذل ذا قـــــــــدره

لا يفســـــد اللحـــــم لديــــه الصـــــلول[4].

وقول زهير :

تلجلــــج مضــــــغه فيهــــا أنــــــيض

أصـــــلت فهـــــي تحـــــت الكشـــــح داء[5].

فمعنى : أصلت أنتنت، وصل الماء : أجن، وماء صَلال : آجن، وأَصَلَّهُ القِدَمُ : غَيَّرَهُ[6].

---

[1] القصص : 75.

[2] فصلت : 48.

[3] لسان العرب، 272/8.

[4] ديوان الحطيئة، ص : 82.

[5] ديوان زهير، ص : 17.

[6] لسان العرب، 274/8.

ويبلغنا هذا أن قراءة (ضللنا) المعجمة تفسيرها : أإذا متنا وتقادم موتنا حتى بلغ بنا حد التلاشي في التراب فاختفينا، من ثم، فلم نعد نرى، ولم نعد نميز عن تراب الأرض، أإذا كان ذلك كله أمكن أن نبعث وننشر من جديد ؟!.

وقراءة (صللنا) تفسيره بقولهم : أإذا متنا ولم يعد يرجى لنا حياة بأن تغيرنا وأنتنا يكون لنا رجوع إلى الحياة ؟!.

إن معنى الآية وفق وجهي القراءة فيها قائم على استبعاد الرجوع إلى الحياة بعد الموت إنكارا للبعث والنشور وتكذيبا للرسول فيما يبلغ من أمر الحياة الأخرى.

وعلى هذا، فإن استبعادهم يرى فيه البعد مع قراءة الجمهور (ضللنا) المعجمة لأنها أوغل في الموت بأن ذابت العظام فلم تعد ترى فكأن المقبور بعدها لم يعد شيئا مذكورا، أي أن الحال بين الخفاء في التراب والعودة إلى الحياة بعيدة عما إذا تغير المقبور وأنتن فإنه أقرب إلى الحياة عهدا، وإن استوى الحالان في أن لا حياة لمن مات إلا حياة البعث والنشور، ويؤيد القراءة المتضمنة الاستبعاد الأوغل، قولهم في سورة ق : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[1].

ولنا بعد هذا أن نؤيده بإيثار التعبير بالرجع، على ما تقدم، لا الرد، أي أنهم لم يروا العود إلى الحياة بعد إذ صاروا ترابا من الحق في شيء، وذلك تكذيبهم بالبعث، فعدلوا عن الرد إلى الرجع لدخول الرد في معنى الاستحقاق وخروج الرجع عنه.

كما يقطع بتميز قراءة الاختفاء والتلاشي أن كل ما جاء في القرآن، مما يدخل في هذا المعنى، أوثر التعبير فيه بالتراب، أي بأن تصير الأجسام ترابا، وذلك أولى بإرادة

---

[1] ق : 03.

المعنى، لأن الأجسام تختفي إذا صارت ترابا في التراب، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[7].

ويلحق بهذا ما نجده في قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾[1].

---

[1] الرعد : 05.

[2] المؤمنون : 35.

[3] المؤمنون : 82.

[4] النمل : 67.

[5] الصافات : 16.

[6] الصافات : 53.

[7] الواقعة : 47.

فقد قرئ : (حرّص)[2]، بالصاد غير المعجمة.

فأما قراءة الجمهور فهي من التحريض، وهو الحث على القيام بالفعل، وربما قالوا: التحريض التحضيض[3]، وأصله من الحَرَضِ، وقد أفادوا أنه الضعف ومقاربة الهلاك، وفسروا عليه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾[4]، قالوا : الحَرِض : الذي أذابه الحزن والعشق[5].

وقد يبدو في الظاهر أن ثمة تدافعاً بين كون الحرض في معنى الضعف والذوبان والهلك الذي يجلبه الحزن والأسى، وبين الحث على القتال لما يتطلبه هذا من القوة والشدة والبأس، لكن الزجاج جاء بما يُخَرَّج عليه ذلك فقال : (وتأويل التحريض في اللغة أن يحث الإنسان على الشيء حثا يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، والحارض الذي قارب الهلاك، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾، أي : حتى تذوب غما فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين)[6].

---

[1] النساء : 84.

[2] الكشاف، 167/2.

[3] لسان العرب، 87/4، وانظر: غريب السجستاني، ص : 74.

[4] يوسف : 85.

[5] غريب السجستاني، ص : 76.

[6] معاني الزجاج، 343/2.

وإلى مثله مضى كل المفسرين واللغويين[1]، وقد انتبه الطناحي إلى الصلة ما بين معنى الهلاك والضعف وبين الإحماء على القتال، وإن بنى كلامه فيه على ما ذهب إليه الزجاج آنفاً[2].

وعلى هذا، فإن التعبير بالتحريض، بما يحمله من معنى الهُلك عن التخلف، مناسب لقام هذه الآية من سورة النساء، إذ يؤيد هذا المعنى لفظ الآية نفسه، فقال : (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا)، فهم، إن تخلفوا عن القتال، نالهم بأس الذين كفروا فآل أمرهم إلى الهلاك فكانوا حرضاً.

أما قراءة (حرّص) بغير إعجام في من التحريض والحرصُ شدة الإرادة والشره إلى المطلوب[3]، قال السمين الحلبي : (والحرص فرط الشهوة وفرط الإرادة للشيء)[4].

ومن اليسير ملاحظة أن الحرص ليس كالحرض، أو أن التحريص ليس كالتحريض، ذلك لأن الحرص لم أره مقترنا في لغة القرآن إلا بما فيه ميل النفس وهواها ومبتغاها، قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[5]، وذلك لميل النفس إلى البقاء.

- وقال : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[6]، لميل النبي إلى هدايتهم.

---

[1] انظر : البحر المحيط، 334/5، والكشاف، 339/2، غريب اليزيدي، ص : 186، وغريب ابن الجوزي، ص : 183، وغريب ابن الهائم، ص : 200، وغريب اليماني، ص : 181، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، للطناحي، 328/1، وعمدة الحفاظ، 388/1.

[2] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة للطناحي، 328/1.

[3] لسان العرب، 87/4.

[4] عمدة الحفاظ، 388/1.

[5] البقرة : 96.

[6] النحل : 37.

- وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1].
- وقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، لميله ﷺ إلى ما فيه خيركم،
- وقال : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[3].

وعلى هذا، فإن التعبير به في مقام الحث على القتال غير موفق لعدم ميل النفس إليه، فلا يقال إن للنفس فرط شهوة ورغبة في القتال، وقد قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[4]، فلما لم يناسب اللفظ المقام ضعف في القراءة به.

وبهذا قرئ في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾[5]، كذلك[6]، وهو، على ما سبق، غير مُواتٍ كذلك للمقام من الآية، فإنه لما كان الحرض الإشراف على الهلك ومقاربة الموت، جاء في الآية بما يناسب ذلك، وهو ذكر الصبر والضعف بعد ذلك، قال تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[7].

---

[1] يوسف : 103.
[2] التوبة : 128.
[3] النساء : 129.
[4] البقرة : 216.
[5] الأنفال : 65.
[6] معجم مكرم وعمر، 460/2، ومعجم الخطيب، 324/3.
[7] الأنفال : 66.

كما أنه لما كان الحرص مما إليه الميل وانصراف الشهوة والرغبة تجافى اللفظ عن أن يجتمع بلفظ الصبر والضعف، فحسن من ثم التعبير بالتحريض في كلا الموضعين من السورتين.

ونطلب للبحث ضمن ما تقارب صوتيا واختلف دلاليا، قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾[1].

فقد قرئ : (فاستعاثه)[2] بعين غير معجمة.

فأما (استغاثه) فمن الغوث والإغاثة أي طلب العون، وذلك معروف[3]، والمعنى عليه أنه استنصره على عدوه واستعان به عليه[4].

أما (استعاثه)، فإن أدنى ما ورد في بيان معناه في كتب اللغة إلى ما يليق بسياق هذه الآية فأنه من التعييث، وهو إدخال الرجل يده في الكنانة، أي كيس السهام، يطلب سهما، وكذا هو طلب الشيء دون أن تراه[5]، ومما ورد في المعنى الأول قول أبي ذؤيب الهذلي:

وبـــــدا لـــــــه أقـــــراب هـــــذا رائغـــــا

عنــــه، فعيَّـــثَ فـــي الكنانـــة يرجـــع[6].

ووجه مناسبة المعنى لسياق الآية أن الإسرائيلي طلب موسى لدفع الرجل القبطي عنه كطلب الرامي للسهم يدفع به عدوه أو يصيد به صيدا، ويلتقيان في معنى التمكن من الشيء ، فمن العدو بغلبه، ومن الصيد ببلوغه.

---

[1] القصص : 15.

[2] معجم مكرم وعمر، 11/5، ومعجم الخطيب، 18/7.

[3] لسان العرب، 96/11.

[4] معاني الزجاج، 103/4.

[5] لسان العرب، 348/10.

[6] ديوان أبي ذؤيب، ص : 71.

هذا عن مناسبة طلب السهم لسياق الآية وموقف القصة، أما عن طلب الشيء دون رؤيته فللإنسان أن يقول إنه مدفوع لأن الرجل لو لم ير موسى، عليه السلام، ما استغاثه، وهو وجيه.

لكن التعبيرين قد يفرق بينهما حصول الاستغاثة في حال الحاجة والشدة والضيق، وخروج العيث عن ذلك إلى أن يكون في حال الشدة، وفي حال السعة، لأن المرء قد يضرب بالسهم غيره دفعا عن نفسه، أو إغارة وسطوا، فالاستغاثة على هذا أخلص للمراد من الاستعاثة لخصوص الأولى، وعموم الثانية، ومراد الآية دفع ضيق وشدة.

كما يفرق بين التعبيرين في تعاورهما هذا السياق دخول الاستغاثة في القصد إلى تعيين المستغاث به، وإن صح أن يطلب المرء العون دون تعيين المستعان به، ويدل على إرادة تعيين موسى بالاستغاثة دون سواه ذكر الضمير العائد عليه في الفعل فقال : (فاستغاثه) وفي الإمكان أن نقول فاستغاث الذي من شيعته.

لكن الاستعاثة تخرج عن ذلك، أي لا قصد إلى التعيين فيها لأن طلب السهم من كنانة يكون تلقائيا لتشابه السهام في الغاية، ويدل عليه أن التعييث طلب الشيء باليد دون أن تبصره، وقد سبق.

وعلى هذا يبين أن في القراءة تدافعا بين ما يدل عليه التعييث واقتران الفعل منه بضمير المفعول، وهو يعين المستعان به، أي أنه لا اجتماع بين التلقائية والتعيين لأنهما ضدان، وبه يبدو إخفاق هذا اللفظ وقصوره دون بلوغ مستوى أداء بياني مناسب لسياق الآية وغايتها.

ومن هذا الباب ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[1].

فقد قرئ : (وتعززوه)[2] بجعل الثانية زاء معجمة.

ويلتقي اللفظان، أي لفظ التعزيز ولفظ التعزير في إفادة معنى النصر والتأييد في لغة القرآن الكريم[3]، وإن هما لم يكونا مترادفين، فإن كتب اللغة لا تشرح أحدهما بالآخر، وعلى ذلك يتعين البحث في ما يفرق بين أدائي اللفظين في السياق الواحد، ولعل أمثل سبيل لبلوغ ذلك هو استقصاء مواضع الاستعمال في القرآن الكريم.

فأما التعزير، بالراء غير المعجمة، فإنه ينصرف إلى معنى دفع ظلم وكيد ومنافحة عن الحق باليد والسيف، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[4].

---

[1] الفتح : 8–9 .

[2] معجم مكرم وعمر، 202/6، ومعجم الخطيب، 46/9.

[3] انظر : لسان العرب، 10 / 133.

[4] المائدة : 12 .

فقوله : (عزرتموهم) معناه : دافعتم عنهم ونصرتموهم[1]، وقد سبق هذه الآية حديث عن القتال، قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

كما أن الموضع التالي لهذا يؤكد ارتباط التعزير بالنصر، وهو قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾[3].

- وقوله تعالى : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4].

وهذا في سورة الفتح، وهي في الكلام عن الجهاد والقتال في سبيل الله وذلك ما يكون به فتح الله تعالى، ومحمول عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾[5].

- وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

---

[1] انظر : غريب السجستاني، ص : 139، ومفردات الراغب، ص : 94.

[2] المائدة : 11 .

[3] الأعراف : 157.

[4] الفتح : 09.

[5] المائدة : 12.

إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

ثم إن سياق الآية قصد فيه إلى تأييد ونصرة بالقتال والجهاد لا إلى التصديق والتأييد بالحجة والبيان لإزالة ارتياب القوم وشكهم، وهذا هو التعزيز، لأنه تقوية وتوكيد، وتصديق وتأييد، ويدل على هذا وروده في سياق التكذيب الذي يقتضي ما يزيله بالتقوية بالحجة والبيان، قال تعالى : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) أي : صدقناهما بثالث، ولو أنه قال : (فعزرنا) لقال قبله : فآذوهما، أو : فقاتلوهما.

فالسياق سياق تصديق وتكذيب، لا سياق أذى وقتال يقتضي دفاعا، لذا روعي التدرج في تقوية الكلام على مقتضى تعنتهم في التكذيب، فإنهم بعد إرسال الثالث ازدادوا تكذيبا فقال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[2]، فهو بلغ في دفع تكذيبهم إلى المجيء في جواب الرسل بكل مؤكد:

ربنا يعلم + أداة التوكيد (إنّ) + لام التوكيد في (لمرسلون).

وقد نستدل لهذا التخريج بأن لم يقرأ في آية يس بالتعزير فإنهم مطبقون في الصحيح والشاذ والمشهور والفاذ على قراءة (فعززنا).

---

[1] الأعراف : 157.

[2] يس : 14–15–16.

ومما يرد بلفظين يفرقهما صوتان متقاربان، قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1].

فقد قرئ : (فأعيشناهم)[2].

فأما الوجه الأول فمن الغشاوة، وهي معروفة، وجاء بها : قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

- وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].
- وجاء الفعل منه في: قوله تعالى : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾[5].
- وفي قوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[6].
- وفي قوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[7].

---

[1] يس : 09.

[2] معجم مكرم وعمر، 198/5، ومعجم الخطيب، 462/7.

[3] البقرة : 07.

[4] الجاثية : 23.

[5] النجم : 54.

[6] طه : 78.

[7] لقمان : 32.

• وفي قولـه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[1].

• وفي قوله : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴾[2].

وكل ذلك في معنى التغطية و الستر[3].

وأما الوجه الثاني فمن العَشَاء، وهو ضعف النظر وسوء البصر بالليل والنهار، ويقال في الفعل منه : عَشِيَ يَعْشَى عَشًى وهو عشٍ وأعْشَى، والأنثى عشواء... [4].

وفي أمثالهم : (هو يخبط خبط عشواء)، وهو يضرب لمن لا يبصر عاقبة أفعاله تشبيها له بالنّاقة العشواء التي لا تبصر، وبها شبه زهير الموت إذ قال :

رأيـــت المنايـــا خـــبط عشـــواء مـــن تصـــب

تمتـــــه ومـــــن تخطـــــئ يعمـــــر فيهـــــرم[5].

ومن هذا سمي جمع من الشعراء الأعشى، من أشهرهم أعشى قيس[6].

والمعنيـان فـي القـراءتين متقاربـان غيـر متـرادفين، لأنـه لا يلـزم شـرح أحـدهما بالآخر، وسيأتي :

---

[1] الأعراف : 189.

[2] إبراهيم : 50.

[3] لسان العرب، 53/11.

[4] لسان العرب، 152/9.

[5] الديوان، ص : 66.

[6] لسان العرب، 162/9.

فأمّا الغِشاوة، فالنظر في سياق استعماله يشي بأنها أمر عارض، أي هو مما يطرأ أو يتلبس ويزول، فيقال : زالت غشاوته، أو زالت عنه الغشاوة، لكن ذلك في العشا لا يقال، وقد يدل على هذا اقتران هذا المعنى بفعل الجعل، وهو يدل على كونه عارضاً، والشيء إذا جُعل صحّ فيه الإزالة، كما قد يقال، حسب التأمل السياقي : إنّ الغِشاوة، أو التغشية تكون بالشيء خارج العين المبصرة، كأن يوضع عليها ما يمنعها الإبصار، أو يقوم بينها وبين ما تبصره حاجز، أمّا العشا فهو من العين نفسها.

وعلى ما تقدم، يُرى أن الذي يناسب الآية هو التغشية مناسبة لما يلي :

– الاقتران بفعل الجعل الدال على كونه طارئا، قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[1].

– الحؤول دون الرؤية بإقامة المانع الخارج عن العين، وهو هنا السد، قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[2].

أما العشا فليس فيه ذلك، ومن ثم، فإن الغشاوة هنا أبلغ في الدلالة على أنه شيء فعله الله تعالى بهم جزاء وفاقا لكفرهم وعنادهم.

كما قد يقال: إن العشا، بما هو ضعف في الإبصار، غير ملائم لقوله: ﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾، إذ الأعشى غير الأعمى، وقد يستدل عليه بأن العشية هي لأجل ضعف الأبصار فيها ببدء مغيب الشمس، لذا عدت آخر النهار، ولم تعد من الليل[1].

---

[1] يس : 09.

[2] يس : 09.

حتى إن من معاني أعشو: أرى، قال الشاعر:

شـــــهابي الــــذي أعشـــو الطريـــق بضـــوئه

ودرعـــــي، فليـــل النــــاس بعـــدك أســـود[2].

أي أرى الطريق.

كما أنهم يسمّون النار التي يرون بها ليلا العَشْوة[3].

2. وضع حركة موضع حركة :

وكما أشير إليه في باب الأسماء نقول إن إبدال حركة بحركة يرد على صورتين اثنتين :

أولاهما : أن تكون الحركتان مختلفتين فتبدل ضمة بفتحة أو ضمة بكسرة مثلا.

وثانيتهما : الإبقاء على الحركة نفسها مع إيرادها مخففة في وجه، ومشددة في آخر.

وربمـا جـاوز الاخـتلاف الحركـة الواحـدة، ويتعـين أن يكـون ذلـك كلـه مشـروطا بالاختلاف الدلالي بين لفظي القراءة، فمن الصورة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1].

---

[1] لسان العرب، 164/10.

[2] لسان العرب، 163/10.

[3] لسان العرب، 163/10.

فقد قرئ : (أَصَبُّ)[2]، فأبدلت الضمة على الصاد بالسكون، وأبدل التشديد مع الضم على الباء بالتخفيف مع الضم.

والقراءتان على هذا من مادتين مختلفتين دلاليا، فأما (أَصْبُ)، فهو مجزوم (أصبو) لأنه جواب الشرط، وهو من صبا الرجل يصبو صبواً وصبوة، والصبوة جهلة الفتوة ولهوها، ومنه التصابي، وهو الميل إلى أفعال الصبيان من لهو وعبث، وطيش وغزل، وغيره، مما لا يكون مع الرشد والكمال[3].

فمعنى (أصبُ إليهن)، أمل إليهن ميل التصابي بما فيه من جهل وطيش واتباع هوى[4].

وأما (أصبَّ)، فإنه من الصب أو الصبابة، أي من صبَّ يصبُّ صباً أو صبابة وأنا صببت أصبُبُ، فأنا صبٌّ أو أصُبُّ، فأنا كذلك، وأما الفتح فيه فللتخفيف، وكل ذلك الميل والشوق والحنين وشدة العشق[5].

وظاهر أن اللفظين يقومان بالمعنى ويبلغان المراد من الآية لكنا نلتمس الفرق بينهما في أن الصبوة أدل على الإيحاء بقبح الفعل وهبوطه عن أن يجتمع بمقام النبوة، وسموها ورفعتها، أي أن اللفظ دال على ما يقابل كمال النبوة في أخلاقها بنقص التصابي في طيشه، ويؤيده أن قال بعده (وأكن من الجاهلين)، وقد حرصت كتب اللغة على

---

[1] يوسف : 33.

[2] معجم مكرم وعمر، 168/3، ومعجم الخطيب، 255/4.

[3] انظر : لسان العرب، 198/8.

[4] انظر : معاني الزجاج، 88/3، وغريب السجستاني، ص : 13، وغريب اليزيدي، ص : 183، وغريب ابن الهائم، ص : 197.

[5] لسان العرب، 189/8.

تفسير الصبوة بالجهل، على ما تقدم، فناسب أول العبارة آخرها ووافقه : (أصب إليهن وأكن من الجاهلين).

فتوفيق القراءة في أدائها البياني حاصل من كون السياق القصصي من سورة يوسف دائرا على التجاذب بين كمال العفة والطهارة، ونقص الشهوة والنزوة.

حتى إن الله تعالى لما قص عن دعوتها يوسف إلى الفاحشة قال عنها : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾[1]، هبوطا بالتعبير عنها إلى أنها مجرد (التي)، ولم يعل بالتعبير عنها إلى أن يقول مثلا : (وراودته امرأة العزيز) لأنها هوت وسقطت.

هذا عن الصبوة والتصابي، أما الصب والصبابة، فإن المعنى معها عام لا إيحاء فيه بنقص أو هبوط، إنما قد يحصل الميل والاشتياق إلى الشيء مع رفعة وكمال، فليس كل صب جهلا، ومن هنا يبين إخفاق هذه القراءة في أدائها البياني لجمعها بين الصبابة والجهل وليسا بمتلازمين.

ومن هذه الصورة ما نراه في قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾[2].

فقد قرئ : (يَدَعُ)[3]، بإبدال فتحة بالضمة على الدال وإبدال العين المخففة بالمشددة.

فأما (يَدُعُّ) فمن الدعّ، وهو الدفع بعنف وشدة، وهو كذلك الطرد[1].

---

[1] يوسف : 23.

[2] الماعون : 1–2.

[3] معجم مكرم وعمر، 249/8، ومعجم الخطيب، 607/10.

وقد جاء الدع في القرآن الكريم في موضعين :

- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[2].
- وقوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾، وهو الذي نبحث فيه.

وأما (يَدَعُ) فمن الوَدْعِ، وهو الترك، وهو أصل لغوي متروك عدلت عنه العرب إلى (الترك) في المصدر، وإلى (ترك) في الفعل وَدَعَ، لكنهم تكلموا بمضارعه فقالوا : (يَدَعُ)، أي يترك، وأتوا بالأمر منه فقالوا : (دَعْ)، أي اترك، أما ماضيه ومصدره واسم فاعله فشاذ استغنت عنه العرب[3].

فمعنى (يَدَعُ اليتيم) يترك اليتيم ويهجره، وتجتمع القراءتان على معنى إيذاء اليتيم وغمطه حقه، لكن في لفظ الدع إيحاء بشدة الأذى بما فيه من التعبير بالعين المشددة، وذلك موح بالقوة والعنف والشدة.

وقد تكلم اللغويون كثيرا عن ارتباط المبنى بالمعنى، ولعل ابن جني أحد أكثر هؤلاء عناية بهذا الباب[4]، قال : (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدمه، وأضعاف ما نستشعره.

من ذلك قوله : خضم، وقضم، فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو : قضمت الدابة شعيرها، ونحو

---

[1] لسان العرب، 263/5، وغريب اليزيدي، ص : 443، واللغات في القرآن، ص : 45.

[2] الطور : 13 .

[3] لسان العرب، 179/15، وانظر : قضية الاستغناء في النحو العربي، د. خالد عبد الحميد أبو جندية، ص : 82.

[4] انظر : الخصائص ، 241/2.

ذلـك، وفــي الخبــر " قـد يـدرك الخصـم بالقضـم "، أي قـد يـدرك الرخـاء بالشـدة، واللـين بالشـظف، وعليـه قـول أبـي الـدرداء : " يخضـمون ونقضـم والموعـد لله " فاختـاروا الخـاء لرخاوتهـا للرطـب، والقـاف لصــلابتها لليـابس حـذوا لمسـموع الأصـوات علـى محسـوس الأحداث)[1].

وهو ما يدرس ضمن دلالـة المباني على المعاني وجماليات التعبير القرآني[2]، وهو مما أدرجوه ضمن ما يسمى ظـلال المعاني حيث يكون للفظ رسم لمعناه بجرسه وبنـاءه الصـوتي، قـال د. حيـدر صـالح حمـادي : (لفـظ (الـدعّ) يصـور مدلولـه بجرسـه وظلـه جميعا، وما يلاحظ هنا أن الدع هو الدفع في الظهور بعنف، الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا : (أَعْ)، وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس الدع)[3].

أما الترك فليس فيه إيحاء بالعنف والشدة، وهو ما عليه استحقاق التوبيخ والتقريع في السورة فإنه فيها من التكذيب بالدين، والمرء قد يترك الشيء دون أن يؤذيه أو يسيء إليه، فلا يستقيم على هذا التعبير بالترك لاحتماله ترك الأذى وترك الإحسان، أي : يترك اليتيم فلا يؤذيه ويتركه فلا يحسن إليه، في حين تتجه قراءة الدع رأسا إلى الغرض من السورة وهو التقريع والتوبيخ على أذاه وظلمه، لا على مجرد تركه، فإن من يترك اليتيم فلا يعطيه حقه أهون من الذي يأخذ حقه ويزيده أذى و عنفا.

---

[1] الخصائص، 157/2.

[2] انظر مثلا : جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، ص : 157، ومن جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال، ص : 09، والبيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، 202/1.

[3] التصوير الفني في القرآن الكريم، ص : 90.

ومما ندرجه ضمن ما يختلف معناه باختلاف الحركة قراءة أشكلت على النحاة واللغويين والمفسرين فبحثت فيها وانتهيت فيها إلى رأي، وهي هذه :

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾[1].

قرئ في : (تشابه) بما زاد على العشرة وجوه[2]، منها الموافق لرسم المصحف ومنها المخالف، ولكن لكل من ذلك تخريجا في العربية ظاهر.

وأما ما لم يفلح العلماء في بيان وجهه في اللغة فقراءة : (إن البقر **تشَّابهت**) بالشين المشددة.

والذي أشكل في هذا هو وجود تاءين في أول الفعل، ذلك أنه يتعيّن أن تكون الأولى للمضارعية والثانية لأجل صيغة المشاركة، أي صيغة (تَفَاعَلَ)، وقد أدغمت هذه في الشين بعدها، فيُصار بعد الفك إلى : (تتشابهت) فيشكل لفظ الفعل باجتماع تاء المضارعة في أوله، وتاء الماضوية في آخره، لأن تاء التأنيث علامة للماضي من الأفعال، قال في الألفية :

وَمَاضِـــيَ الْأَفْعَــالِ بِالتَّـــا مِــزْ... ....[3].

فكيف يستقيم تخريج لفعل يجمع في صيغته بين كونه مضارعاً وماضياً في آن؟.

2- أقوال العلماء في تخريج القراءة :

يتعين بدءا أن ننبه إلى أن هذا الوجه من القراءة يُعزى إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وهو أحد كبار أئمة اللغة والنحو، وعنه أخذ أعلام العربية ممن لا تخفى أقدارهم على أحد، ولعل عزو القراءة إليه هو ما زاد في حرص العلماء الذين نظروا فيها على طلب وجه لها في العربية بما عرف عن عبد الله من تشدده في الأخذ بما يطرد وينقاس، فهو من ثم، ما قرأ بما قرأ إلا لما رآه في العربية يشهد لقراءته، على أنه لم يرو عنه شيء في تفسيرها، أو في ما يسوغ قراءته بها ولم ينقل ذلك عمن جاء بعده كذلك،

---

[1] البقرة : 70.

[2] معجم مكرم وعمر، 70/1، ومعجم الخطيب، 123/1.

[3] متن ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ص : 11، وانظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 28/1.

خاصة منهم من درس لغة القرآن الكريم واشتغل بتوجيه قراءته كالأخفش والفراء في معانيهما، وأبي عبيدة في مجازه، والفارسي في حجته، بل ولا حتى ابن جني في كتابه المحتسب الذي جعله لتوجيه القراءات الشاذة خاصة، وما أدري كيف تفسير ذلك عنهم ؟.

<u>أولا</u> : حمل القراءة على الغلط :

قال بتغليط القراءة فريق، ولعلهم بذلك يقصدون إلى نفي نسبتها إلى إمام كالحضرمي، ومنهم السجستاني، فقد نعت القراءة بتشديد الشين بالغلط، وحجته أن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارعة[1]، وهو ما اختاره الداني كذلك، قال : (وذلك غير جائز لأنه فعل ماضٍ)[2]، وفسر كلامه السمين الحلبي قائلا : (يعني أن التاءين المزيدتين إنما تجيئان في المضارع فتدغم، أما الماضي فلا)[3].

كما نقل الآلوسي مذهب التخطئة، فقال : (وفي غرائب التفسير أنهم أجمعوا على خطئه)[4].

والذي بدا لي، أن هؤلاء لم يريدوا بتخطئة القراءة ردها على الحضرمي، إذ ليس هو ممن يليق في حقه ذلك لمكانه من اللغة والإقراء، كما قدمت، إنما هم قصدوا إلى رد نسبتها إليه، كأنهم يدفعون أن يكون الحضرمي ممن يقرأ بقراءة لا وجه لها في كلام العرب.

<u>ثانيا</u> : حمل القراءة على التوهم :

والقول بالتوهم باب معروف في النحو، وقد اعتمده النحاة واللغويون لتخريج كثير من الكلام الفصيح الخارج عن موجب القواعد، والقوانين النحوية، وقيل في تعريفه : (هو

---

[1] انظر : الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 452/1.
[2] انظر : الدر المصون، 92/2.
[3] الدر المصون، 92/2، وروح المعاني، 370/1.
[4] روح المعاني، 370/1.

في النحو تخيل وجود ما يقتضي نطقا معينا، وجريان الكلام عليه أو تخيل خلو الموضع مما يقتضي ذلك)[1].

كما قيل في تعريفه : (هو تفسير تخيلي يضطر إليه النحاة والصرفيون وذلك عن طريق الاستعانة بالمعنى في محاولة للتوفيق وتحقيق الانسجام بين ما قد يظن من خطئ في إعراب ألفاظ بعض التراكيب العربية الفصيحة والتي لا ريب في صحتها وبين القواعد النحوية والصرفية، ومحاولة تفسير مجيئها على هذا النظم)[2].

ويقال في شرح هذا : إن التوهم معناه أن ينطق المتكلم وفقا لقانون نحوي لا وجود له إنما هو يتخيله، أو يتوهم وجوده.

ومن شواهده المشهورة، قول الشاعر :

بدا لي أني لست مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً[3].

والشاهد في قوله : (ولا سابقٍ) مجروراً مع أنه معطوف على (مدرك) وهو منصوب بليس، وتفسير ذلك أنه لما كثر اقتران خبر ليس بالباء عطف عليه قوله : (سابق) توهما لاقتران (مدركَ) بالباء[4].

وقد جعل النحاة للتوهم شرطين : شرطا لصحته، وشرطا لحسنه، فأما شرط صحته فهو صحة دخول ذلك العامل المتوهم، وأما شرط حسنه فهو كثرة دخوله هناك[5].

وقد عول النحويون على القول بالتوهم في تخريج كلام عربي كثير يدخل ضمن أبواب نحوية كثيرة يطلبها المستزيد في البحوث التي أفردت له[1]، وهو دليل على السداد

---

[1] التوهم، دراسة في كتاب سيبويه، راشد أحمد جراري، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد : 66، ص : 76.

[2] التوهم عند النحاة، د. عبد الله أحمد جاد الكريم، ص : 30.

[3] كتاب سيبويه، ص : 77، وانظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، للأنباري، ص : 191، وشرح التسهيل، لابن مالك، 52/2، وشرح الرضي للكافية، 267/2، وشرح المفصل، لابن يعيش، 52/2.

[4] التوهم عند النحاة، د. عبد الله أحمد جاد الكريم، ص : 33.

[5] التوهم، دراسة في كتاب سيبويه، ص : 77، والتوهم عند النحاة، د. عبد الله أحمد جاد الكريم، ص : 43.

المنهجي عن العمل به في معرض تخريج ما لا قياس فيه، قال الأستاذ راشد أحمد جراري : (إذا كان مواضع التوهم، بعد درسها في كتاب سيبويه، قد تعددت، حتى شملت اثني عشرة بابا نحويا، وإذا كان قد خرج على هذه الظاهرة نصوص فصيحة من شعر العرب ونثرهم، وتعدى ذلك إلى أعلى النصوص فصاحة، وهو القرآن الكريم، فإن دل هذا على وجود التوهم كظاهرة لغوية، فإنما يدل أيضا على أنه وسيلة مهمة من وسائل تخريج الكلام، إذا جاء على غير ما يقتضيه قياسه)[2].

وحمل هذه القراءة على التوهم لم يقل به أحد من العلماء، إنما ذهب بعضهم إليه في تخريج قراءة : (إن البقر تَّشابهت)، بتشديد التاء، وانفرد ابن هشام بإيرادها وإن هو عزا ذكرها لابن مهران في كتاب الشواذ، ونقل عنه قوله بأن العرب تزيد تاء على التاء الزائدة في أول الماضي، أي : (تتشابهت)، ثم أدغمت التاء في التاء[3]، وجاء ابن مهران بهذا البيت شاهدا :

تتقطعت بي دونك الأسباب[4].   طلب لعرفك يا ابن يحي بعدما

وأثبته ابن عصفور في الضرائر، وجعله من باب زيادة حرف في الكلمة على طريق التوهم[5]، أي أن (تقطعت) كثرت في كلامهم حتى ظن أنها من (فعللت)، فزيد عليها تاء كـ (تفعللت)، فصاروا من (تقطعت) إلى (تتقطعت) توهما كذلك.

ولكن ابن هشام رد هذا التخريج، فقال : (ولا حقيقة لهذا البيت، ولا لهذه القاعدة)[6]، وهو أورد هذا التخريج في الباب الخامس من المغني في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، ومنها أن يخرج على ما لم يثبت في العربية، ثم جاء

---

1 التوهم عند النحاة، د. عبد الله أحمد جاد الكريم، ص : 137.

2 التوهم، دراسة في كتاب سيبويه، ص : 107.

3 انظر : مغني اللبيب، ص : 75.

4 انظر : ضرائر الشعر، لابن عصفور، ص : 55، وشرح الشواهد، للبغدادي، ص : 175.

5 ضرائر الشعر، ص : 55.

6 مغني اللبيب، ص : 75.

بما بدا له أنه الأصوب فجعل التاء الأولى من البقرة والثانية من الفعل الماضي ثم أدغمت التاءان، من باب الإدغام من كلمتين[1].

ويبدو، والله أعلم، أن لا حقيقة لهذا الوجه من القراءة، وإلا فما تفسير إغفال العلماء، لغويين وقراء، لذكرها فضلا عن تخريجها، وقد قال محقق المغني : (ولم أجد من ذكر هذه القراءة في الشواذ غير ابن هشام)[2]، ثم لمَ لم ينقلها عن ابن مهران غير ابن هشام ؟، ولم لم يعلق العلماء في حواشيهم وشروحهم على المغني على هذه القراءة ؟ قال الخطيب في معجم القراءات : (ولم أجد في حاشية الأمير ولا الشمني تعليقا أو تعقيبا على هذه القراءة)[3].

ومجمل القول أن لا ذكر لهذه القراءة عند غير ابن هشام، وهو يدل على أن لا حقيقة لها.

ولعل هذا التفسير القائم على القول بالتوهم أن يصار إليه في قراءة : (تشَّابهت)، بشد الشين، وإن لم يقل به أحد، كما سبق، لكنه يضل ضعيفا إلى أن يصح الاستشهاد له، فإن ابن هشام أبى زيادة التاء في أول الماضي لما لم ير من صحة الاستشهاد له.

<u>ثالثا</u> : تخريج أبي حيان الأندلسي :

لكن أبا حيان أبى إلا أن يجدَّ في طلب تخريج لهذه القراءة بما يجعل لها وجها في العربية تحمل عليه، غير القول بتغليطها، وبالحمل على التوهم النحوي، وقد بدا له إمكان جعل أولى التاءين من البقرة لا من الفعل بعدها، مع وصل الفعل بالألف رسما، فيصير وجه القراءة على هذا النحو من النطق والرسم :

. إن البقرة اشَّابهت علينا[4] .

---

[1] مغني اللبيب، ص : 75.

[2] مغني اللبيب، ص : 75.

[3] معجم القراءات، 124/1.

[4] انظر : البحر المحيط، 419/1.

وهو، وإن لم يقل بالتوهم في هذا، إلا أنه احتمل الوهم عند من تلقى القراءة عن الحضرمي، ذلك أنه حسب التاء من الفعل وهي من البقرة، والذي أوقعه، أي ناقل القراءة، في ذلك أن قرأ ابن أبي إسحاق واصلا ما بين البقرة والفعل، والوصل يجعل أولى التاءين محتملة– نطقا– لأن تكون من البقرة، أو من الفعل بعدها.

والذي برر به أبو حيان حرصه على توجيه القراءة هو عزوها ونسبتها إلى الحضرمي، كما سلف، فما هو بالذي يقرأ بقراءة لا وجه لها، وقد عرف عنه النكير على من يأخذ بغير المطرد في الكلام العربي، ولو كان ممن يحتج به، وتلك قصته مع الفرزدق مشهورة[1].

واعترض عليه شهاب الدين الآلوسي بأن رأى وصف البقرة الواحدة بالتشابه ركيكا، وهو يقصد إلى أن التشابه لا يصلح أن يكون في الواحد، إنما يكون في الكثير[2].

ومن اليسير رد هذا الاعتراض بأن يقال : إنه يمكن أن تكون الهاء في البقرة للجنس لا للإفراد، كما يمكن تقدير ما يقوم به معنى التشابه مما لا يدفعه المعنى، كنحو : (**إن البقرة اشَّابهت علينا بغيرها**).

لكن أبا حيان تفطن إلى أن تخريجه هذا لا يحتمله الموضع الثاني من قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3]، فقد نقل عن عبد الله أنه قرأ بشد الشين هنا أيضاً[4]، ذلك أنه لا يمكن إلحاق التاء الأولى بما قبل الفعل كما أمكن إلحاقها بالبقرة هناك، فبقي الفعل هنا مشكلا[5].

رابعا : رأي في تخريج القراءة :

ونحب أن نقيمه على أساسين :

---

[1] انظر : مجالس العلماء، للزجاجي، ص : 66، ونزهة الألباء، لابن الأنباري، ص : 24.

[2] انظر : روح المعاني، 290/1.

[3] البقرة : 118.

[4] انظر : معجم عمر ومكرم، 107/1، ومعجم الخطيب، 183/1.

[5] انظر : النهر الماد من البحر المحيط، 123/1.

الأول : رد تخريج أبي حيان بأن يقال له : إن عدم صدق تفسيره على الموضع الثاني يقضي، ولا ريب، ببطلانه في الأول، لأن الفعلين في الآيتين داخلان في حكم واحد، ومن مقررات العلم أن يستدل على صحة التفسير في موضع بأن ينسحب على المواضع المماثلة.

وعلى هذا، فقد كان من الأولى لمثل أبي حيان أن يرجع عن تخريجه في الموضع الأول بعدم تحققه في الثاني، لكنه لم يفعل، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن دعا إلى طلب تخريج آخر للفعل الثاني في الآية الثانية، قال : (وقد مرّ نظير هذه القراءة في قوله: (إن البقر تشابه علينا) وخرجنا ذلك على تأويل لا يمكن هنا، فيتطلب هنا تأويل لهذه القراءة)[1].

ولعل الآلوسي تفطن إلى هذا فرأى، من ثم، أن الأيسر في المسألة أن يُصار إلى تضعيف القراءة وردها، وذلك عنده خير من الاشتغال بتخريجها فإنه أشق عليه من حصاد الشوك أو خرط القتاد، كما جاء في عبارته هو[2].

الثاني : رأيت إمكان أن يقال : إن التاء الأولى لا هي من البقرة، ولا هي من الفعل، إنما هي اسم إشارة للمفردة المؤنثة، وصفا للبقر.

و(تا) بمعنى (ذي)، أو (ذه)، فيقال : ها تا فلانة، أي : هذه فلانة، ويقال : تا فلانة أي : ذي فلانة[3].

فالقراءة على هذا، هي : (إن البقر **تا** اشَّابهت علينا)، أي : إن **البقر هذه**، أو : إن **البقر ذي**، أو : إن **البقر ذه** اشَّابهت علينا.

واسم الإشارة (تا) معروف في كتب النحو، قال ابن مالك :

بـــــــ (ذا) لمفـــــــرد مـــــــذكر أشـــــــر

---

[1] انظر : البحر المحيط، 537/1.

[2] انظر : روح المعاني، 370/1.

[3] انظر : لسان العرب، 2/ 210 .

بـــ (ذي) و(ذه)، (تـــي) (تـــا) علـــى الأنثـــى اقتصـــر[1].

وله في كلامهم شواهد من نحو :

– قول النابغة الذبياني :

هـــا إن تـــا عـــذرة إن لا تكـــن نفعـــت

فـــإن صـــاحبها قـــد تـــاه فـــي البلـــد[2].

أي : إن هذه، وتفسرها رواية :

هـــــا إن ذي عـــــــذرة... .

– وقول كعب الغنوي :

وخبرتمـــاني أنمـــا المـــوت بـــالقرى

فكيـــف وهـــا تـــا هضـــبة وقليـــب[3].

أي : وهذه.

– وقول عمران بن حطان :

ولـــيس لعيشـــنا هـــذا مهـــاه

---

[1] انظر : متن ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ص : 23، وشرح ابن عقيل على الألفية، 124/1.

[2] ديوان النابغة، ص : 37، وانظر: شرح المعلقات العشر المذهبات، للتبريزي، ص : 339.

[3] انظر : الكتاب، 139/2، والمقتضب، 288/2، و277/4.

وليســـــت دارنـــــا هـــــا تــــــا بـــــدار[1].

أي : دارنا هذه.

ومما جاء فيه اسم الإشارة نعتا لظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾[2].

ومما تفطن إليه بعضهم أن قوله : (إحدى ابنتيّ **هاتين**) دليل على أنه كان له غيرهما[3]، فحسُن النعت باسم الإشارة من حيث تعلق المراد معه بتعيين ما يجتمع بغيره، وهو عين المقصود إليه في آية البقرة.

وأما نعت البقر بـ (تا)، وهو للمؤنث، فمحمول على جواز التذكير والتأنيث في البقر، قال ابن الأنباري : (اعلم أن كل جمع بينه و بين واحده الهاء فعامته يذكر ويؤنث، كقولهم : النخل، و البقر، و الشعير، و التمر، يقال: هذا نخل، و هذه نخل، وهذا بقر، و هذه بقر)[4].

وقال الشاعر في تأنيث البقر :

إنـــــي وقتلـــــي ســــــليكا ثـــــم أعقلــــه

كـــالثور يضـــرب لمـــا عافـــت البقـــر[5].

وهو في ذلك كالنخل، قال تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[6]، فأنَّث، وقال : ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[7]، فذكَّر.

---

[1] انظر : الكتاب، 139/2، والمقتضب، 288/2، و277/4.

[2] القصص : 27.

[3] انظر : الكشاف، 172/3.

[4] المذكر والمؤنث، ص : 453.

[5] انظر : الحيوان، للجاحظ، 25/1، والمذكر والمؤنث، ص : 454.

[6] ق : 10.

[7] القمر : 20.

ويؤيد تأنيث البقر قراءات من قرأ : (تَشَبَّه)، و(تَتَشَابَه)، (تَشَابَهَت) بغير تشديد، و (مُتَشَابِهَة).

هذا عن الموضع الأول.

أما الآية الثانية فالوجه فيها أن يقال: إن أُولى التاءين فيه اسم إشارة أيضا، أي : (**مثل قولهم تـا اشَّابهت قلوبهم**)، أي : مثل **قولهم ذِه**، أو **قولهم ذي**، أو : **قولهم هذه**، وجملة (اشّابهت قلوبهم) مستأنَفة للتقرير[1].

وأما نعت القول بـ (**تا**)، وهو مذكر، فمن باب الحمل على المعنى، أي على ما يفهم من كلمة (قولهم)، كأنه يقول: (مثل قولتهم)، أو (قالتهم)، أو حتى (مثل كلمتهم **ذي**).

وقد جاء في كتب اللغة قصة الأعرابي الذي قال : فلان لغوب، جاءته كتابي فألقاها فقيل له : كيف تقول : جاءته كتابي ؟، قال : أليس بصحيفة ؟[2].

وعلى منواله نقول : لو اعترض معترض على أن يقال : (قولهم **تا**) أي : هذه، فيقال له : أليس قولهم هذا كلمة ؟ فلو قال : ما هي ؟ فيقال له : لا ضير في أنها قولهم : (اتخذ الله ولدا)، قبل ذلك، ويؤيده أن قد سمّى القرآن الكريم هذه العبارة نفسها كلمة في موضع آخر منه، قال تعالى : ﴿ **وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا** ﴾[3].

كما جعل القرآن الكريم كلام الكفار وافتراءاتهم وادعاءاتهم على كثرتها كلمة، وذلك في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ** ﴾[4].

---

[1] التحرير والتنوير، 690/1.
[2] انظر : الخصائص، 416/2.
[3] الكهف : 04-05.
[4] التوبة : 74.

ولعله مما يقطع بحمل اللفظ المذكر على معنى المؤنث، قوله تعالى : ﴿ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾[1]، فإنه ذكر العدد من حيث قصد إلى تأنيث المعدود في المعنى، والمعدود هنا جمعُ المِثل، وهو مذكر، فلو راعى اللفظ لقال : (عشرة أمثالها)، لكنه راعى المعنى، فكأنه قال : (عشر حسنات)[2].

فهو كقول الشاعر :

إن كلابـــا هــــذه عشــــر أبطــــن

وأنــــت بــــريء مــــن قبائلهــــا العشــــر.

وحقه أن يقول : (عشرة أبطن) لو أنه راعى اللفظ، لكنه راعى المعنى فكأنه قال : (عشر قبائل)، وقد فسره الشاعر بما بعده فدل على مراده[3].

ولعل ما يقطع بصحة هذا التخريج وجوب التفطن إلى أن الفعل (تشابه) قد ورد في أربعة مواضع من القرآن الكريم، مسندا في ثلاثة منها إلى المفرد المذكر ومسندا في الرابع إلى المؤنث، وذلك في:

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ ﴾[6].

فهذه الثلاثة وأما الرابع :

---

[1] الأنعام : 160.

[2] انظر : معاني القرآن، للفراء 366/1، وكتاب سيبويه، 174/2، ومقتضب المبرد، 148/2.

[3] انظر : الكتاب، 174/2، والمقتضب، 148/2، معاني القرآن، للفراء 366/1.

[4] البقرة : 70.

[5] آل عمران : 07.

[6] الرعد : 16.

• فقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1].

فالآيتان اللتان احتمل المعنى فيهما الإشارة رويت القراءة فيهما بشد الشين، والآيتان اللتان لم يحتمل المعنى فيهما اسم الإشارة لم يقرأ فيهما بشد الشين، فينبغي، إذن، ملاحظة اقتران عدم نقل القراءة بالشين المشددة في آيتي آل عمران والرعد بعدم احتمال المعنى فيهما للتعبير باسم الإشارة.

ومن صورة إبدال حركة بحركة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[2].

فقرئ في : (أَمَرْنَا) (أَمِرْنَا)[3] بكسر الميم.

فقراءة الجمهور من الأمر، وهو معروف، وقد استشكل بعضهم أن يكون من الله تعالى أمر بالفسق ثم يعاقب عليه، وأجيب عنه بأن في الكلام حذفا يكون تأويله على

---

[1] البقرة : 118

[2] الإسراء : 16.

[3] معجم مكرم وعمر، 313/3، ومعجم الخطيب، 31/5.

معنى : (أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا فيها) أي حملا على قولهم : أمرته فعصى أي : بالطاعة[1].

وقد سئل كذلك عن الوجه في تعلق الإرادة بالأمر، فإن يكن أهل القرية مستحقين للعذاب بما عصوا فما معنى قوله (أردنا) ؟ وقد أجيب عن هذا بغير قليل من الإغراب والتكلف في التفسير، وخير منه أن يكون الفعل (أردنا) مضمنا معنى فعل آخر مناسب كـ (قدّرنا) مثلا، فيكون أمره تعالى للقوم بالطاعة وإجابتهم له بالفسق داخلا في إرادة الله تعالى كذلك على جهة تقديره ليكون المعنى أن مِنْ قَدَرِ الله تعالى على عبيده أن إذا دعاهم إلى الطاعة فعصوا أهلكهم[2].

ولكن الزمخشري أبى التأويل على الحذف هنا وعده من قبيل تقدير محذوف لا دليل عليه، بل قد قام الدليل على نقيضه، وعبر عنه بأن حمل الأمر على الفسق من باب الحقيقة لا يصح لعدم جوازه على الله تعالى، فبقي الحمل على المجاز، أي أن في الكلام تشبيها لحال من أغرته النعم بالمعصية بحال من أمر بها، والجامع التسبب، أي أن النعم التي تكون سببا للطاعة جعلت سببا للمعصية[3].

وسواء أكان تقديرا أم لم يكن فإن بحثنا واقع على مقابلة قراءة الأمر بالطاعة أو بالفسق هذه مع قراءة (أمرنا) بالكسر.

وقراءة (أمِرنا) من أَمِرَ الشيء إذا كثر، وأَمِرْنَا أكثرنا، ومصدره : الأَمَرُ، بفتح الميم، وهو البركة والنماء والزيادة[4]، وقيل : القراءة على معنى أكثرنا هي (آمَرْنَا

---

[1] انظر : معاني الزجاج، 189/3، وأمالي المرتضى، 29/1، وغريب ابن الهائم، ص : 211.

[2] أمالي المرتضى، 31/1.

[3] الكشاف، 442/2.

[4] لسان العرب، 152/1، ومعاني الأزهري، ص : 268، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، للطناحي، 95/1.

)، وقيل : هي (أَمَّرْنا)[1] والأولى بالمد والثانية بالشد، وبعضهم جعل أمرنا وآمرنا معا : أكثرنا[2].

وعلى هذا، فإن إهلاك القرية وتدميرها مرتب على كثرة الفسقة من المترفين فيها لا على أمرهم بذلك حقيقة أم مجازا كما مر بنا، والفسق هنا مرتب على كثرة المترفين ومسبب عنه، وفيه إغراب، لأنه قد لا يقال كثروا ففسقوا، فإنه ليس بلازم عن كثرة المترفين وقوعهم في الفسق، إلا أن يقال إن كثرة المنعمين داعية إلى انصرافهم عن الطاعة بالتحاسد والتباغض، وغير ذلك، مما يوطئ للفسق والمعصية، فيكون للقراءة بهذا وجه.

ومنه، فإن ترتيب الفسق على الأمر يحتاج إلى تقدير محذوف بجعل الأمر حقيقة وترتيب الفسق على الأمر يحتاج إلى تأويل دون تقدير بجعله مجازا على مذهب الزمخشري فيه.

وترتيب الفسق على الكثرة يحتاج إلى تأويل كذلك، وإن بدا أن ترتيب الفسق على المعصية بعد الأمر بالطاعة أدنى للفهم، وذلك لقرب أن يكون الفسق، وهو المعصية، مقابلا للطاعة لا مقابلا للكثرة، وقد اختار الأزهري قراءة الأمر، وإن لم يكشف عن وجه اختياره فيها[3]، وعليه، فإن الفسق يصير هو الدليل على المحذوف المقدر، ردا على الزمخشري فيما ذهب إليه، فيضعف، من ثم، حمله للأمر بالفسق على المجاز، كما تقدم.

---

[1] غريب اليزيدي، ص : 213، ومعاني الزجاج، 190/3.

[2] انظر : مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، للكرماني، ص : 246.

[3] معاني الأزهري، ص : 268.

ومن شواهد دلالة أمرنا بالكسر على الكثرة قول النبي صلى الله عليه وسلم: " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة "[1]، أي مكثرة.

وكذا قول الشاعر:

إن يغبطـــــــوا يهبطـــــــوا وإن أمـــــــروا

يومـــــا يصـــــيروا للهلـــــك والنفـــــد[1].

أي : وإن كثروا.

وقول الشاعر :

طرفــــــون ولادون كــــــل مبـــــارك

أمـــــرون لا يرثـــون ســـــهم القعـــدد[2].

كما حكوا خلافا للكسائي في هذا، وهو أنه لم ير في هذا الفعل معنى الكثرة إلا أن يقال : آمرنا بالمد، إذ أصله : أأمرنا، فخفف، وهو، من ثم، لا يكون لازما كما في هذه الشواهد[3].

وعلى كلٍ، فإن معنى تكثير المترفين مما يعوزه الإيضاح والتأويل، وذلك كأن يقال: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمهلنا مترفيها حتى يكثروا فيستحقون التدمير فدمرناها، ومعلوم أن الأخذ بكثرة الخبث والفسق هو معنى له ما يشهد له.

---

[1] مسند أحمد، 468/3.

[2] البيت للأعشى، انظر: ديوانه، ص : 60، و جامع القرطبي، 233/10.

[3] انظر : جامع القرطبي، 233/10.

ولكننا نلتمس في عبارة الآية ما نرى به قراء ة الأمر أولى بالمرتبة البيانية الأعلى من قراءة الكثرة، ذلك أن قوله : (ففسقوا فيها) يصلح جوابا للأمر بالطاعة، ولا يصلح جوابا للكثرة، إذ الفاء في : (ففسقوا) مشعرة بالجواب، وإنما يجاب الطلب ولا يجاب الخبر.

وندرس ضمن هذه الصورة قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قرئ : (دَرَسَتْ)[2] بفتح السين فيها.

فأما دَرَسْتَ، فمن الدرس والمدارسة، وقد مر بحث هذه الآية الكريمة ضمن فروق المباني، ومعنى القراءة أنهم اتهموا النبي (ﷺ) بأنه قرأ كتب من تقدمه من اليهود وجاءهم بما قد حصله بدراسته من آيات ودلائل[3]، واللام في (ليقولوا) لام العاقبة[4]، أي: نصرف الآيات فكانت العاقبة أن قالوا درست، إمعانا في الكفر والعناد، رغم ظهور الدلائل والآيات.

وأما (دَرَسَتْ) فمن الدُّروس، وهو الزوال والانمحاء، يقال : درس الشيء يدرس فهو دارس إذا عفا وزال وانمحى[5]، والتاء فيه فاعل، وهي الآيات، أي: درست الآيات

---

[1] الأنعام : 105.

[2] معجم مكرم وعمر، 305/2، ومعجم الخطيب، 512/2.

[3] معاني الأزهري، ص : 171، و النهر الماد، 730/1، ومشكل إعراب القرآن، للقيسي، ص : 248.

[4] انظر : إملاء العكبري، 149/1، والبيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري، 334/1 .

[5] لسان العرب، 244/5.

وتقادمت وامحت وزالت[1]، والمعنى أن ما جئتنا به لم يعد له فعل فينا لتقادمه وزواله فلا تسع في جعلنا نستجيب له.

لكن الذي قد يجعل قراءة المدارسة أولى بالسياق بيانيا من قراءة الدروس والزوال وهو مناسبة تهمة الدرس والمدارسة، والنظر في كتب اليهود وأهل الكتاب لاعتراضهم عليه تركهم اتباعه، لأن المعنى فيه هو اتهامه بادعاء ما جاء به ولم يوح إليه بشيء، وفي هذا تعبير عن الشطط في الكفر والعناد، والإمعان في أذى النبي (ﷺ) برميه بالكذب والاختلاق.

أما إقامة انصرافهم عن تصديقه على كون ما جاء به مما عفا وزال فلا وجه له، لأن بعث الحق من بعد تقادم لا يسقطه عن كونه حقا حريا بالإتباع، ويبعد أن يكون وصفهم الآيات بالعفاء من قبيل قولهم : ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2]، وفي بعض ما ورد فيه تصريح بالدرس والاكتتاب، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[3]، ولا يبدو أن قولهم (درست) من هذا الباب لعدم تضمن العفاء والقدم الوصف بالأسطورية، فإن الأسطورة لا تحتاج إلى ما يبينها أو يحييها ويبعثها لأنه لا وجه ليستبين ما هو أساطير وخرافات وأكاذيب، بخلاف القديم الدارس فإنه حق يحتاج فقط إلى بيانه، والتذكير به وإظهاره، ولذا قال : (وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون).

---

[1] معاني الأزهري، ص : 171.

[2] الأنعام : 25 ، والأنفال : 31، والنحل : 24 ، والمؤمنون : 83، والفرقان : 5، والنمل : 68، والأحقاف : 17، والقلم : 15، والمطففين : 13.

[3] الفرقان : 05 .

ثانيا:

مخالفة المعنى مع التباعد الصوتي

1. التباعد الصوتي الكلي :

يقصد به أن يعتور الموضع واحد من الآية لفظان يقرأ بكليهما ويبلغ اختلافهما عن بعضهما أن يكون في كل حروف اللفظين أو أن يقع، في أقل ما يكون منه، في أكثر من حرفين، وذلك على نحو ما سنعرضه في هذه التحليلات التطبيقية ونفتتحها بما يلي :

يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1].

فقد قرئ : (من هَبَّنَا من مرقدنا)[2].

فأما قراءة الجمهور فمن البعث، ومادته تدل على معنى واحد، هو الإثارة والإحياء والنشور بعد الموت[3] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾[4]، وغيره، ومعنى قولهم : (من بعثنا) من أحيانا وأعادنا إلى الحياة من بعد موتنا، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[5].

---

[1] يس : 51–52.

[2] معجم مكرم وعمر، 213/5، ومعجم الخطيب، 500/7.

[3] لسان العرب، 107/2، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 152/1.

[4] الأنعام : 36.

[5] الحج : 05.

- وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[7].

---

[1] الروم : 56.

[2] لقمان : 28.

[3] البقرة : 56.

[4] الكهف : 12.

[5] الكهف : 19.

[6] البقرة : 259.

[7] هود : 07.

- وقوله : ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾[1].
- وقوله : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾[2].
- وقوله : ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[7].
- وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[8].

وأما (هَبَّنَا)، فمن هبَّ الشيء يهب هبوبا إذا ثار وهاج، وهب من نومه يهب هبا وهبوبا: انتبه[9].

وهذا المعنى هو ما يوجه عليه وجه القراءة هذا وتأييده قوله : (من مرقدنا).

ولم نجد ما نفرق به غير النظر في أمرين اثنين :

---

[1] الإسراء : 49.
[2] الإسراء : 98.
[3] المؤمنون : 82.
[4] الصافات : 16.
[5] الواقعة : 47.
[6] المطففين : 04.
[7] الأنعام : 29.
[8] المؤمنون : 37.
[9] لسان العرب، 09/15 .

أولهما : أن الهب أو الهبوب يرد في معنى الخفة والنشاط، وذلك بالنظر إلى ما يتلبس به، كالريح فإنها كذلك لخفتها وسرعتها كالسيف لمضاءه في ما يوضع فيه، وكالناقة أو الجمل، فإن ذلك هو مشيها السريع، والهباب النشاط، وجاء منه قول لبيد:

فلهـــــا هبــــــاب فــــــي الزمــــــام كأنهـــــا

صـــــهباء راح مــــــع الجنـــــوب جهامهــــا[1]

ويدل الهب في غالب ما يرد فيه على خفة ونشاط وسرعة[2]، وهو ما قد يبدو غير مناسب للبعث والنشور، والإخراج من تحت القبور، فإن الجمع بين الكون تحت القبر وترابه وثقل ذلك، وبين الخفة والنشاط مما يتعذر في الذهن فلا يسوغ، على أن البعث يدل على الإحياء ويخرج عن الخفة والنشاط معه.

وثانيهما : أن الفعل (هَبَّ)، على ما في كتب اللغة، يكون بهذه الصيغة لازما، فإذا أريد تعديته قيل (أهب)[3]، فقولهم : (هبنا) لا وجه له لأنه اجتماع لما لا يجتمعان، وهو التعدية واللزوم معا، إذ يدل (هب) على اللزوم ويدل الضمير (نا) على التعدية، لأن موضعه النصب على المفعولية، وهو ظاهر.

فحق من قرأ بهذا الوجه أن يقول : (من أهبنا من مرقدنا)، لا : (من هبنا).

---

[1] انظر : شرح المعلقات العشر المذهبات، للتبريزي، ص : 148 .

[2] لسان العرب، 10/15.

[3] لسان العرب، 09/15 .

وبهذا يبين أن البعث أنسب من الهب في الدلالة على الإحياء، لذا لم يرد في القرآن دالا على الإحياء والنشور غير البعث.

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[1].

قرئ : (وقَسَّمَ فيها أقواتها)[2].

فأما قراءة (قَدَّرَ) فمن التقدير، وهو على وجوه من المعاني لعل أنسبها بسياق الآية أنه النظر في ما يصلح للشيء وتهيأته ومقايسته، ومنه مقدار الشيء، أي طاقته ومبلغه ووسعه[3].

- ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[4] أي بحد لا يتجاوزه ولا يقصر عنه[5].
- وقوله تعالى: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾[6] أي: بمبلغ ما تحمله من الماء[7].
- وقوله تعالى: ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ ﴾[8] أي : طاقته.
- وقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[9].
- وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾[10].

---

[1] فصلت : 10 .

[2] معجم مكرم وعمر، 64/6، ومعجم الخطيب، 265/8.

[3] لسان العرب، 36/1 .

[4] الرعد : 08.

[5] النهر الماد، 166/2.

[6] الرعد : 17.

[7] انظر : غريب ابن الجوزي، ص : 186.

[8] البقرة : 236.

[9] البقرة : 236.

[9] الحجر : 21.

[10] المؤمنون : 18.

- وقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[2].
- وقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[5].

وغير ذلك، وعلى هذا، فإن معنى (قدر فيها أقواتها) هيأها وأودع فيها من القوت على ما يصلح لكل واحد بلا تجاوز ولا قصور، أي مراعاة لسنة التفاوت في الرزق بين الناس، كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ ﴾[6] وبه يظهر أن التقدير يتضمن مراعاة التقدير يتضمن مراعاة الوسع والطاقة وما يصلح لحال كل واحد من المخلوقين، وتلك سنة فيهم ماضية.

---

[1] الشورى : 27.

[2] الطلاق : 03.

[3] يس : 39.

[4] يونس : 05.

[5] الفرقان : 02.

[6] النحل : 71.

أما التقسيم، وهو التجزيء[1]، فإنه لا دلالة فيه على مراعاة الأقدار وما يليق بالأحوال لعمومه وشموله التفاوت والتسوية، فإن من جزأ وراعى ما يليق بالحال فقد قسم، ومن جزأ وسوى بين الناس دون تفاوت فقد قسم كذلك.

ويدل على هذا التفسير أن التقسيم جاء في القرآن الكريم في معنى التقدير مصحوبا بما يدل على مراعاة التفاوت، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2].

وذلك هو العدل بعينه لأن التسوية بين الناس في الرزق تجعلهم في غنى عن بعض مما يوطئ لأن يبغي الخلق على بعضهم لعدم الحاجة التي تسخر بعضهم لبعض، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[3].

وأما القسم أو القسمة أو التقسيم، فإنه في مطلق التجزيء، أو بمعية قرينة دالة على مراعاة الأقدار والأنصبة، ويخرج على هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[4]، فإنه عبر بالقسمة لوروده في سياق المواريث والأنصبة التي ليس لهم أمر تقديرها إنما سبق فيها شرع وحكم في كتاب الله تعالى فعلى هؤلاء التقسيم لا التقدير، إنما التقدير لله والتقسيم لهم.

---

[1] لسان العرب، 102/12.

[2] الزخرف : 32.

[3] الشورى : 27 .

[4] النساء : 08 .

وقولـه تعـالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[1] معنـاه : قسمة لا تقدير فيهـا لأنـهم مـا قدروا الله حق قدره فجعلوا لهم الذكر وله الأنثى، فالظلم فيها خرج بها عن التقدير بما فيه من العناية والميزان، إلى القسمة لتحتمل الظلم والجور، حتى إن بعضهم فسر قولـه تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾[2].

فقال موزون معناه : مقدر[3]، فسوى بين التقدير والميزان.

فاتضح بذلك كله أن قراءة التقدير أولى بالأداء البياني الأعلى بين قراءة التقسيم لتضمنها معنى مراعاة سنة التفاوت والتفاضل في الرزق على ما هيأه الله تعالى من سنة التسخير، وليس ذلك بمراعى في قراءة التقسيم، والله أعلم.

---

[1] النجم : 22 .

[2] الحجر : 19.

[3] غريب اليزيدي، ص : 200، و زاد المسير، لابن الجوزي، 391/4، ومعاني الزجاج، 144/3. وغريب ابن الهائم، ص : 205، وغريب اليماني، ص : 193، وغريب السجستاني، ص : 174.

ومما ورد مما اصطلحنا عليه بالتباعد الصوتي الكلي قوله تعالى : ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾[1].

فقد قرئ : (لتغوين)[2].

والآية حكاية على لسان القرين يتبع قرينه في معصية الله فيسوقه إلى جهنم أو يكاد، وقوله : (لتردين) من الإرداء، وهو الإهلاك، فأرداه يرديه إرداء معناه أهلكه يهلكه إهلاكا، وهو من الردى أي الموت[3].

وجاء منه في القرآن شواهد، منها :

- قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾[4]، أي : فتهلك[5].
- وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾[6]، أي : مات[7]، وغيره.

وعلى هذا، فالمعنى في الآية هو (تهلكني) بأن تسوقني بإتباعك إلى ما أنت فيه من عذاب جهنم.

أما قراءة (لتغوين)، فمن الإغواء والغواية، وهو الضلال والسوق إلى ما فيه فساد وخيبة[8]، وجاء منه في الآيات الكتاب الكثير، وهو معروف.

---

[1] الصافات : 55–56 .

[2] معجم مكرم وعمر، 238/5، ومعجم الخطيب، 31/8.

[3] لسان العرب، 140/6.

[4] طه : 16 .

[5] غريب اليزيدي، ص : 244.

[6] الليل : 11.

[7] غريب اليزيدي، ص : 431، واللغات في القرآن، ص : 52.

[8] لسان العرب، 103/11.

وبين معنيي اللفظين تقارب من جهة سوق الغواية إلى الهلاك، ولكنا لا نراهما مترادفين لأجل ما سنبنيه :

فأما قوله (لتردين)، فتحقيق للهلاك والوقوع في النار لأنه مما رآه إذ قال : (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) فهو عبر بالإرداء لتحققه من مآل إتباع هذا القرين، فبين اللفظين (رآه) و (تردين) تناسب من جهة الدلالة على وقوع الهلاك حقا.

أما قراءة (تغوين)، فإنه إن يكن الإغواء مؤديا إلى الهلاك إلا أنه يصور تحقق الهلاك لجواز الرجوع عن الغواية، بخلاف التردي الذي لا رجوع بعده، ويدل على عدم دلالة الإغواء على الإهلاك واحتماله التوبة والرجوع قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[1].

وقوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2].

وبه يبين أن الوجه الأعلى بيانيا وبلاغيا هو القراءة بالإرداء لموافقة الإطلاع في الآية والرؤية، لا بالإغواء لاحتماله التوبة والرجوع، وهو ما لا يحقق الوقوع في النار لمن كان له قرين عاص لله تعالى.

---

[1] طه : 121-122.

[2] الشعراء : 224-225-226-227.

ومن هذا الباب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[1].

فقد قرئ : (أَثَبْنَا)[2].

فأما قراءة (أتينا)، فمن الإتيان، وهو معروف، وأما (أثبنا)، فمن الثواب، وهو الجزاء على الطاعة، والأظهر من كلام العرب أنه يختص بالخير[3]، وإن قل التعبير بالثواب عن الجزاء السيئ كقوله تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[4].

معناه: هل جوزي[5]، وذلك لأن الثواب يصلح لمعنى الرجوع مطلقا بخير كان أم بشر[6]، وقوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[7].

فأي اللفظين أولى بالأداء البياني الأعلى في سياق الآية الكريمة وغرضها ؟.

وقد يقال في الجواب : إنه لما كان سياق الآية مُقَامًا لوضع الموازين يوم القيامة وعرض الأعمال على الحساب، ثم إنها لما كانت أعمال خير وأعمال شر، حسن العدول

---

[1] الأنبياء : 47 .

[2] معجم مكرم وعمر، 139/4، ومعجم الخطيب، 28/6.

[3] لسان العرب، 52/3، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 211/1.

[4] المطففين : 36 .

[5] غريب اليزيدي، ص : 420، وغريب ابن الهائم، ص : 339 ، وغريب ابن الجوزي، ص : 419، وغريب السجستاني، ص : 66 .

[6] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 211/1.

[7] آل عمران : 153.

عند الثواب إلى الإتيان لاختصاص الثواب بالخير، وإن قل التعبير به عن الجزاء السيئ، كما أن قوله تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

قد يكون معناه : (هل رجع فعل الكفار عليهم بالخير)، بجعل الاستفهام فيه من سبيل السخرية والاستهزاء بأن جعل ما حسبوه راجعا عليهم بالخير راجعا عليه بخلافه[2].

وبه يرجع التعبير بالثواب في هذا الموضع إلى ما يختص به وهو الجزاء الحسن.

وغالب ما في القرآن الكريم من ثواب وارد في الجزاء الحسن والأجر الجزيل، كمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[3].

- وقوله : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[6].

---

[1] المطففين : 36 .

[2] انظر : معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، د. محمد صالح مخيمر، ص : 30.

[3] آل عمران : 145.

[4] آل عمران : 148.

[5] النساء : 134.

[6] الكهف : 31.

- وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾[3].
- وقوله : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾[4].
- وقوله : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾[5].
- وقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[6].
- وقوله : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾[7].

وعليه، فإن اختصاص الثواب بالجزاء الحسن يجعل التعبير به في آية الأنبياء هذه غير ذي توفيق بياني عال لتضمنها حديثا عن عرض أعمال الخير وأعمال الشر فبان، من ثم، أن اللفظ (أثبنا) ليس بالذي يشملهما معا، فبقي (أتينا).

وسياق الآية صالح لأن يتحمل معنى قدرة الله تعالى على المحاسبة على أقل الأعمال قدرا ولو كان مثقال حبة من خردل، بل لعل سوق الآية للدلالة على قدرة الله

[1] القصص : 80.
[2] آل عمران : 195.
[3] الكهف : 44.
[4] الكهف : 46.
[5] مريم : 76.
[6] الفتح : 18.
[7] المائدة : 85.

أظهر من سوقها لعرض الأعمال فحسب، ويؤيده قرآن كثير، منه قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1].

- وقوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

والتعبير بالإتيان يرد، على ما قدمنا، في ما يدل على الفور في مقابل المجيء الذي يدل على التراخي، ومن السياقات التي يؤثر فيها التعبير بالإتيان لاحتمالها الفورية سياق الحرص والحث والتحدي والعجلة[3].

وذلك كالذي نراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[4].

- وقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

---

[1] الكهف : 49 .

[2] لقمان : 16 .

[3] قد سبق لنا رأي في التفريق بين الإتيان والمجيء في لغة القرآن الكريم، من بعد رد لما ذهب إليه القدماء والمحدثون كالسامرائي، فليراجع في موضعه لأن هذا الموضع من البحث مبني عليه. (الباحث).

[4] الشعراء : 10.

[5] يونس : 15.

[6] النمل : 21.

- وقوله : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[7].

---

[1] النمل : 38–39–40.
[2] الأعراف : 70.
[3] هود : 32.
[4] الأحقاف : 22.
[5] الطور : 34.
[6] القلم : 41.
[7] البقرة : 23.

- وقوله : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[7].

وغير ذلك، وهو ما يمكن إدراج الآية التي ندرسها هنا ضمنه، أي أنه تعالى يحاسب عبيده على أقل أعمالهم قدرا ولو كان مثقال حبة من خردل حرصا على إقامة العدل وإسراعا إلى القسط في الميزان، ثم إنه تعالى لا يحسن في حقه التراخي في الحكم لأنه مظنة للتردد، وهو المنزه عنه.

---

[1] آل عمران : 93.
[2] يونس : 38.
[3] هود : 13.
[4] الأنبياء : 61.
[5] القصص : 49.
[6] الصافات : 157.
[7] الدخان : 36.

وعطفا على هذا ندرس ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1].

فقد قرئ : (فاستعانه)[2].

فأما الاستغاثة، فمن طلب الغوث، وهو معروف، والاستعانة من العون، وهو كذلك، لكني رأيت إدراج هذه القراءة ضمن ما خالف لأني لم أر اللفظين مترادفين، إن هما تقاربا في المعنى، وذلك لأنهما لا يعتوران السياق الواحد، فلا يصلح العون لما يصلح له الغوث، والعكس، وذلك على ما سأجتهد في بيانه :

إن الاستغاثة ترتبط بمواقف ملابسة الخطر والظلم والأذى والإزهاق، فيستغيث المرء لدفع ذلك، أو للخلاص من شر محيط، وهُلك محدق، وهو عين ما يراد في الآية الكريمة، لأنه يصدق على ما قص القرآن الكريم من حال بني إسرائيل مع فرعون، قال في أول السورة : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[3]، وفي قوله : (اسْتُضْعِفُوا) يوقف على فرق ما بين اللفظين، فالاستضعاف معناه تعذيبهم والتنكيل بهم بذبح الأبناء واستحياء النساء، وعليه، فإن الغوث معناه النجدة.

وأما الاستعانة فالمدد والتقوية على بلوغ أمر لم تف القدرة ببلوغه، فهو من ثم يكون من ضعف لا من استضعاف، وعليه فالعون معناه المدد والتقوية على بلوغ مطلوب، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ

---

[1] القصص : 15.

[2] معجم مكرم وعمر، 10/5، ومعجم الخطيب، 18/7.

[3] القصص: 05.

﴿ رَدۡمًا ﴾[1]، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[2]، وعلى هذا، فإن الرجل الإسرائيلي يكون قد استغاث لا استعان، لكونه مستضعفا لا ضعيفاً، إذ الضعيف بذاته، والمستضعف بغيره.

وغريب ما وجدته لابن جبارة الهذلي البسكري من جعله قراءة الاستعانة أولى من الاستغاثة، إذ هو لم يقم عليه دليلا، وقد أخذ عليه السمين الحلبي هذا[3]، ولعله فعل لما لم يره فيها من مخالفة الرسم.

ورأى الآلوسي أن قراءة (فاستغاثه) قد تكون مضمنة معنى (استعانه) مستدلا بتعديته بـ (على) في قوله : (على الذي من عدوه)[4]، فهما من ثم بمعنى واحد، لكن قد يرى أن الأولى أن الفعل في ذلك مضمن معنى (استنصره) ويقطع به قوله بعده : (فإذا الذي استنصره بالأمس).

---

[1] الكهف : 95.

[2] الفاتحة : 05.

[3] انظر : الدر المصون، 657/8.

[4] روح المعاني، 53/20.

ومن هذا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1].

فقد قرئ في (ترهبون) (تخزون)[2].

فأما (ترهبون)، فمن الرهب، وهو الخوف والفزع، وهو معروف[3].

وأما (تخزون)، فمن الخزي، وهو الذل والهوان، وقد جاء منه آيات كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾[4]، أي نهون.

- وقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[7].
- وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾[8].
- وقوله : (ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ

---

[1] الأنفال : 60.

[2] معجم مكرم وعمر، 459/2، ومعجم الخطيب، 321/3.

[3] لسان العرب، 240/6.

[4] طه : 134.

[5] آل عمران : 192.

[6] النحل : 27.

[7] الزمر : 26.

[8] التوبة : 63.

بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾[7].

---

[1] البقرة : 85.
[2] البقرة : 114.
[3] المائدة : 33.
[4] المائدة : 41.
[5] الحج : 09.
[6] يونس : 98.
[7] هود : 66.

- وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[5].

وصحيح أن الخوف والخزي قد اقترنا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[6]، إلا أن الخزي هنا مرتب على الخوف لا هو شارك له، بل إن مجيء اللفظين مجتمعين هنا هو دليل اختلافهما الدلالي.

ومن معاني الخزي الفضيحة، فمن خُزِي افْتُضِح، قال تعالى على لسان نبيه : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾[7]، أي: لا تفضحون.

---

[1] فصلت : 16.

[2] الحشر : 05.

[3] هود : 39.

[4] هود : 93.

[5] الزمر : 39-40.

[6] البقرة : 114.

[7] هود : 78.

ويؤيده كذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾[1].

وعلى هذا فإن الخزي هو الذل والهوان وافتضاح الحال[2]، فقوله : (تخزون بها عدو الله وعدوكم) معناه تذلونه وتهينونه وتفضحون حاله.

ومع هذا فإنه يبدو من غير الموفق التعبير ههنا بالخزي لعدم استلزامه القوة ورباط الخيل، بل يتطلب المرء وفضه إقامة الحجة.

فإنه يقال: أخزيت فلانا أي ألزمته حجة أذللته بها[3].

فيبدو منه أن الخزي مناسب لمقام الجدل والمناظرة، فيقال لمن كان مغلبا محجوجاً قد خزي، أو انقلب بخزي، أي بذل الغلب.

وأما الرهب، فبما هو خوف وفزع، فهو أكثر مناسبة لمقام ذكر القوة، وهو ما يجعل قراءة الرهب أولى من قراءة الخزي في الظفر بإصابة المعنى الذي سيف التعبير له.

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[4].

فقد قرئ : (فتثبتوا)[1].

---

[1] الحجر : 68-69.

[2] انظر : من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، للطناحي، 501/2.

[3] من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، للطناحي، 501/2.

[4] الحجرات : 06.

وقد جاء من هذا الوجه من القراءة موضعان، هذا الذي في الحجرات، وثانيهما الذي في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [2].

فقد قرئ في الموضعين (فتثبتوا)[3].

فأما (تبينوا)، فمن التَبيُّن، قال الطناحي : (وهذه المادة (بَيَنَ) تدل على أصل واحد في اللغة، وهو بعد الشيء وانكشافه وظهوره، ثم تتفرع إلى استعمالات كثيرة ترجع إلى هذا المعنى)[4].

ويقال : بان لك وأبان واستبان وبين وتبيّن بمعنى واحد، وهو الظهور والوضوح[5] والانكشاف[6].

وأما التثبت، فقد جعله ابن منظور في معنى التأني وعدم العجلة[7].

أما القول في القراءتين من الآيتين، فقد رأى بعضهم أن اللفظين في معنى واحد ففسروا الواحد منهما بالآخر، قال الأزهري : (التثبت والتبين بمعنى واحد) [8].

وقال الكرماني : (قوله تعالى: (فتبينوا)، يقال: تبينت الأمر، أي: تأملته وتثبت فيه...، وقرئ : (فتثبتوا)، والمعنيان متقاربان)[1]، وإلى مثله ذهب الفارسي[2].

---

[1] معجم مكرم وعمر، 220/6، ومعجم الخطيب، 79/9.
[2] النساء : 94.
[3] معجم مكرم وعمر، 154/2، ومعجم الخطيب، 131/2.
[4] من أسرار اللغة في القرآن والسنة، 180/1.
[5] عمدة الحفاظ، 246/1.
[6] حجة ابن زنجلة، ص : 209.
[7] لسان العرب، 06/3.
[8] معاني القراءات، ص : 136.

ومال آخرون إلى التفريق بينهما، فجعلوا التبين للاستيضاح وجعلوا التثبت ضد العجلة[3]، أي أن (تبينوا) معناه افحصوا واكشفوا، وأن (تثبتوا) معناه تأنوا وتوقفوا حتى تتيقنوا صحة الخبر[4]، وعليه، فإن الفعلين بحسب استعمالهما في الآيتين يكون معناهما على هذا النحو : أن التبين الفهم، وأن التثبت الأناة.

ولكن حديثا لرسول الله ﷺ قد يقضي بضعف هذا الوجه من التفريق، ذلك أنه روي قوله ﷺ : (ألا إن التبيّن من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا)[5].

وجاءت رواية أخرى بتفسير التبين بالأناة، وهي : (ألا أن الأناة من الله والعجلة من الشيطان)[6]، وهو ما يجعل الأناة مفسرة للتبين المقابل للعجلة، فبطل التفريق بينهما على هذا الوجه.

وقد بدا لي إمكان أن يرجع التبين، بما هو في معنى الاستيضاح والاستكشاف، إلى أن يكون مقابلا لما قد يفهم من ذلك، فالإنسان إذا لم يستوضح شيئا ولم يستكشفه، فلم يبين له وجه حقيقته، فهو، من ثم، جاهل به، غير عارف بشأنه، ولا عالم بحاله، وعليه، فإنه يتبين الجاهل.

وكذا إمكان أن يرجع معنى التثبت إلى التحقق من حال الشيء من بعد سبق علم به بغير دليل وبرهان، وعليه فإنه يتثبت العالم، ويدل على هذا، في اعتقادي، أنه ما من تبين في القرآن إلا وهو مسبوق بجهل بحقيقة الشيء المراد تبينه، وذلك كقوله تعالى : ﴿

[1] مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص : 147.

[2] الحجة للقراء السبعة، 174/3.

[3] غريب ابن الجوزي، ص : 89.

[4] حجة ابن زنجلة، ص : 209، وزاد المسير، 171/2.

[5] انظر : الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، 124/1، وكشف الخفاء، للعجلوني، 295/1.

[6] سنن الترمذي، 322/4.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

- وقوله : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾[4].
- وقوله : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[1].

---

[1] البقرة : 109.

[2] البقرة : 256.

[3] البقرة : 259.

[4] النساء : 115.

[5] الأنفال : 06.

[6] التوبة : 113.

- وقوله : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6].
- وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[7].
- وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[8].

---

[1] التوبة : 114.

[2] إبراهيم : 45.

[3] العنكبوت : 38.

[4] محمد : 25.

[5] محمد : 32.

[6] النحل : 43-44.

[7] النحل : 64.

[8] سبأ : 14.

- وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[3].
- وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4].
- وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[5].
- وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[6].

ولا يخلو حال الإنسان من الأمر من هذين فإما هو جاهل به مطلق الجهل وإما هو عالم به على نحو لا حجة في يده عليه.

[1] آل عمران : 187.

[2] البقرة : 213.

[3] البقرة : 253.

[4] الحديد : 17.

[5] آل عمران : 118.

[6] البقرة : 118.

فأما آية الحجرات فإنه يدل على الجهل بأمر القوم أن النبي ﷺ وأصحابه لا علم لهم بما عليه حال القوم، إنما جاءهم عنهم نبأ، لذا قال بعد قوله : (تبينوا)، (أن تصيبوا قوما بجهالة)، فجعل التبين مأموراً به من هو جاهل بحال الأمر.

وكذا الحال مع آية النساء، فإن سبب نزولها على ما رووا، أن رجلا مر بنفر من الصحابة وهو يسوق غنما له، فسلم عليهم، فقالوا : ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ، فنزلت[1].

فدل هذا على جهل بحقيقة الرجل فحسبوه غير مؤمن، لذا نزل الوحي ليريهم حقيقته، ويعرفهم أمره، ويكشف لهم حاله.

وأما التثبت، بما هو في تحصيل الدليل على ما سبق العلم به، فإنه مناسب لآية الحجرات من جهة أن السابق في علم النبي عن القوم أنهم مؤمنون، لذا فإنه لم يأمره برد نبإ الفاسق واطراحه إنما بالتحقق بالنظر في الدليل المرجح لما عليه علمه بحال القوم، أو لما جاء به الفاسق، وهذه مسألة تفطن إليها ابن تيمية، فقال : (وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه وشهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر)[2].

وقوله هنا (وإنما أمر بالتبين)، لأنه لا يقيم كلامه على التفريق بينه وبين التثبت فلعله يرى ترادفهما.

وأما آية النساء فيناسبها التثبت كذلك، من جهة أنهم رأوا من الرجل الدليل على إيمانه الحق، وذلك إلقاؤه السلام وشهادته شهادة الإسلام، فقوله تعالى لهم (فتثبتوا)، معناه : انظروا في الدليل، تأديبا لهم وتعليما.

---

[1] انظر : لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص : 86.

[2] التفسير القيم، ص : 441.

وعلى هذا، فإنه لا تطابق بين اللفظين وإن احتملهما السياق الواحد، ذلك أنه يحتمل كل واحد منها على وجه لا يحتمل منه الآخر.

2. التباعد الصوتي الجزئي:

نقصد بالتباعد الصوتي الجزئي أن يعتور اللفظان موضعا واحدا من الآية ضمن قراءتين ويكون بينهما اختلاف لا يجاوز الحرف الواحد بينهما، فيكون في لفظ إحدى القراءتين حرف، وفي الثانية منهما آخر، ويكون بعد ذلك الأول مما يبعد في صفته الصوتية عن الثاني، فلأجل ما بينيهما من اختلاف صوتي سميناه تباعدا ولكونه لا يجاوز الحرف الواحد اعتبرناه جزئيا، ومما نمثل له به قوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾[1].

فقد قرئ فيه : (تَفَكَّنُونَ)[2] بجعل الهاء هناك نونا هنا.

ومدار البحث على النظر في الأداء البياني بين مادة (فَكَهَ) ومادة (فَكَنَ).

فأما (فَكَهَ)، فإنه أصل لغوي يدور على وجوه من المعاني يناسب مقامنا هذا منها أن قولهم: فكه من كذا وكذا وتفكه أي: عجب، وتفكهنا من كذا وكذا أي: تعجبنا.

وأما (فَكَنَ) فقد ربطه اللغويون بوجوه من المعاني، هي:

- الفكن الذهاب في الكذب والمضي فيه.
- التفكن التأسف والتلهف على الشيء إذا فات بعد الظفر به.

---

[1] الواقعة : 65.

[2] معجم مكرم وعمر، 72/7، ومعجم الخطيب، 313/9.

- والتفكن التندم والتحسرعلى الشيء.

- والتفكن والتفكر شيء واحد[1].

والذي يظهر من ذلك أن ما يناسب سياق الآية الكريمة هو معنى التأسف والتحسر والتندم على ما فاتهم من خير زرعهم الذي اجتهدوا فيه وصار حطاما.

بل لعل القراءة نفسها تشهد لهذا المعنى، لأن سياقها لا يحتمل توجيهها إلى معنى الكذب أو معنى التفكر إلا على سبيل من التأويل قد يكون تركه خيرا من إتيانه.

وعلى ما تقدم يكون معنى الآية بوجه التعجب أن الله تعالى إذ يجعل زرعهم حطاما يعجبون ويذهب بهم العجب كل مذهب من شيء عملوه بأيديهم وبذلوا في نواله الجهد والعناء يصير إلى ما شاء الله له وقد سعوا في إحاطته برعايتهم وعنايتهم.

ويدل على مناسبة التعجب للسياق اضطرابهم في تفسير ما ابتلوا به، أهو عذاب نزل بهم، أم ليس لهم أن ينعموا بحرثهم وزرعهم، أم هو تغريم لهم بزرعهم[2]، إذ من شأن المتعجب تعداد الأسباب التي يزيل بها عجبه.

وأما قراءة (تفكنون)، على معنى تندمون، فإن ما قد ينال من أدائها البياني حصول الندم على الشيء عند تبين سبب وقوع ما نندم له أو عليه، لأن حال من يندم أن

---

[1] لسان العرب، 212/11.

[2] انظر : معاني الزجاج، 91/5.

يقول: ليتني ما فعلت ما أدى بي إلى هذا فإنه بهذا يعلم السبب الذي به ابتلي، وهو ما يتدافع مع اضطرابهم في تفسير ما لأجله هلك زرعهم على ما تقدم.

وندرس ضمن ما يتباعد صوتيا تباعدا جزئيا ما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾[1].

فقد قرئ : (يُؤفَنُ عنه من أُفِن)[2].

[1] الذاريات : 8-9 .

[2] معجم مكرم وعمر، 244/6، ومعجم الخطيب، 127/9.

ولمادة (أَفَكَ) وجوه من المعاني تلتقي جميعها عند معنى قلب الشيء وصرفه عن جهته[1]، ومنه سمي الكذب إفكا، لأنه قلب للحقيقة وصرف لها عن حالها وجهتها، ويشهد لهذا المعنى قرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾[2].

لأن ما رموا به أمنا عائشة (رضي الله عنها) كذب وباطل.

- وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[3]، أي كذاب مفتر.
- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[4]، أي تختلقون كذبا.

لكن مادة (أفك) قد ترد بمعنى الصرف، كقوله تعالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[5]، أي أنهم يصرفون عن الحق إلى الباطل ومن الإيمان إلى الكفر.

- وقوله : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[6]، أي لتصرفنا.

كما قد ترد لمعنى القلب، فقد سمي الله تعالى قوم لوط المؤتفكات لما عليه حالهم من قلب للفطرة، يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[7]،

---

[1] لسان العرب، 123/1، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة، 83/1 .
[2] النور : 11.
[3] الجاثية : 07 .
[4] العنكبوت : 17 .
[5] التوبة : 30.
[6] الأحقاف : 22.
[7] التوبة : 70.

ويدل عليه أن جعل الله عقابهم قلب بلادهم عليهم فقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾[1].

وعلى معنى الصرف عن الجهة يوجه قوله تعالى: (يوفك عنه من أفك)، أي يصرف عن الإيمان بالله من صرف[2] ، يستوي في إفادة هذا المعنى رجوع الضمير إلى القرآن الكريم أو إلى القول المختلف، إلا من قال إن الصرف عن الاختلاف بأن يعصم الله منه من شاء من المؤمنين[3]، وفي هذا الوجه من القراءة احتمال لأكثر من تفسير كله سائغ مقبول وذلك، بجعل الصرف للكفار عن الإيمان لما سبق في علم الله عنهم، أو بجعله للمؤمنين بأن عصمهم الله من الدخول في قول الكفار : هو شاعر أو مجنون، أو كذاب، أو دارس، أو غيره، وذلك ثراء في المعنى ليس فيه مدفوع عن سياق الآية.

وأما قراءة (الأفن)، فإنه الحمق، والمأفون الأحمق وناقص العقل الذي لا رأي له[4]، والمعنى على هذا : يقصر عن فهمه وإدراكه كل قاصر في فكره، أحمق لا عقل له، وظاهر هذا التفسير يشبه أن يكون حقا، لولا أن في الإمكان رده، وما يوهم بصحته أن الاختلاف في القول ينجم عن حصافة في الفهم وعن حمق وغباء أيضا.

وفي الوسع القول إن الدليل على عدم صحة قراءة الأفن في هذا الموضع هو الحرف (عن) في (يؤفك عنه)، لأن الفعل (أفن) متعد إلى واحد لا إلى اثنين، فيقال : أفنه الله يأفنه فهو مأفون وأفين[5]، ولو أريد في هذه الآية إلى معنى الحمق لقيل: (يؤفن

---

[1] هود : 82.

[2] انظر: غريب ابن الجوزي، ص : 357، ومعاني الزجاج، 43/5، و النهر الماد، 996/3، وغريب اليزيدي، ص : 348.

[3] انظر : الجامع، 33/17 .

[4] لسان العرب، 124/1 .

[5] لسان العرب، 124/1.

فيه من أفن) لا عنه، أما وقد عبر بـ (عنه) فإنه دليل على إرادة معنى الصرف لأنه يقال : صرفه الله عن الشيء.

ومن هذا السبيل قوله تعالى : ﴿ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

فقد قرئ : (ننشيها)[2].

فأما (ننشرها) فمن نشر الله الميت ينشره إذا أحياه، وإذا قيل (نَنْشُرها) بفتح أوله وضم الشين، فمصدره النشر، وتلك قراءة[3]، وإذا قيل : (نُنْشِرُهَا) بضم أوله وكسر

[1] البقرة : 259 .

[2] معجم مكرم وعمر، 200/1، ومعجم الخطيب، 371/1.

[3] غريب ابن الهائم ، ص : 115 .

الشين فمصدره الإنشار، وتلك قراءة أخرى[1]، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾[2]، ومن مصادره النشور كذلك، وهو معروف[3]، وجاء منه قوله تعالى :

- وقوله : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[4].
- وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[5].
- وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[6].
- وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[7].

وأما قراءة (ننشيها) فمن الإنشاء، وسهلت الهمزة فيه، كالذيب في الذئب، والبير في البئر، ومعنى أنشأ: خلق، وأنشأه الله خلقه، والإنشاء ابتداء الخلق وابتداعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾[8]، أي ابتدعها وابتدأ خلقها، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[9].

---

[1] معاني الأزهري، ص : 87 .

[2] عبس : 22 .

[3] لسان العرب، 256/14، وغريب اليزيدي، ص : 98 .

[4] فاطر : 09.

[5] الملك : 15.

[6] الفرقان : 03.

[7] الفرقان : 40.

[8] الأنعام : 141 .

[9] المؤمنون : 78.

- وقوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾[1].
- وقوله : ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[2].
- وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[3].
- وقوله : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[4].
- وقوله : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[5].
- وقوله : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[6].
- وقوله : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[7].
- وقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[8].
- وقوله : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[9].

---

[1] الواقعة : 35.

[2] الواقعة : 72.

[3] الأنعام : 98.

[4] الأنعام : 133.

[5] هود : 61.

[6] النجم : 32.

[7] الملك : 23.

[8] الأنعام : 06.

[9] الأنبياء : 11.

- وقوله : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[1].
- وقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[2].
- وقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

فمعنى ننشيها في الآية نخلقها ونبتدئ خلقها، ولكنه معنى يبدو أنه مدفوع بقصة الآية وما تضمنته من شأن حمار عزير الذي مات إلى جانبه مائة عام حتى صارت عظامه إلى البلى، والذي يصلح لحالها أن يقال أحياها لا خلقها، لأنه بعث الحمار من بعد موته، أما الإنشاء فلا مناسبة بينه وبين سياق القصة.

ومن باب الاختلاف الصوتي المتباعد الجزئي ما نجده في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

فقد قرئ : (أو نَنْسَأْهَا)، وقرئ : (أو نَنْسَخْهَا)[5].

ويدور بحثنا في هذه الوجوه على النظر في ما بين (النسأ) و (النسخ).

فأما النسيء فمن نسأ ينسأ نسأ ونسيئا إذا أخر، والنسيء التأخير، وأنسأ الله أجله أخره، وجاء منه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾[6]، وهو تأخير تحريم المحرم،

---

1 المؤمنون : 19.

2 المؤمنون : 14.

3 يس : 79.

4 البقرة : 106 .

5 معجم مكرم وعمر، 99/1، ومعجم الخطيب، 171/1 و172.

6 التوبة : 37 .

وكانوا يؤخرون تحريمه سنة ويحرمون غيره مكانه لحاجتهم إلى القتال ثم يردونه إلى التحريم في سنة أخرى[1].

وجاء في الحديث : (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ في أجله فليصل رحمه).

أي يؤخر في أجله.

وتأخير الآية أو القرآن في هذا الموضع يحتاج إلى تأويل، فلعل معناه ما ننسخ لك من اللوح المحفوظ أي ما ننزل عليك وما نؤخر من ذلك فلا ننزله.

ومجمل معناه: إنا ننزل عليك بعض الوحي ونؤخر بعضه إلى حين، وهذا التفسير قائم على جعل النسخ من الاستنساخ، وهو الكتابة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]، أي نثبته ونكتبه[3] ويدل على أن معناه الكتابة ورود ذلك في القرآن الكريم في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[4] .

لكن تفسير النسخ هنا بالكتابة أو الإثبات يتعارض مع قوله تعالى: (نأت بخير منها أو مثلها) فإذا هو رد على قوله (ننسها) من النسيان والإزالة احتاج النسخ إلى رد، ولا رد، أي أن الإتيان بما هو خير جواب للنسيان والإزالة ولا يصلح للإثبات للتعارض بين الإثبات والإزالة.

---

[1] غريب السجستاني، ص : 196.

[2] الجاثية : 29 .

[3] غريب ابن الجوزي، ص : 340، وغريب ابن الهائم، ص : 293، وغريب السجستاني، ص : 198، ولسان العرب، 243/14.

[4] يس : 12.

وعلـى هـذا، فالنسـخ هنـا مـن الإبطـال وإقامـة الشـيء مقـام مـا نسـخ، فالنسـخ التبديل[1]، ونسخ الآية إبطال الحكم بها، وهو باب معروف، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله : (نأت بخير منها أو مثلها) لمناسبة هذا الإتيان للتبديل، وعليه جاء النسيان تاليا للنسخ لأنه من معناه، فإنساء الآية إزالتها، ونسخها إبطالها.

وأما قول بعضهم إن (ننسها) بمعنى نتركها محكمة فلا ننسخها فمردود بأن قوله : (نأت بخير منها) يحمل على معنى النسخ لا الإحكام[2].

وجملة القول: إن النسخ الإبطال والنسيء التأخير، وهما يجتمعان عند معنى الترك أي أن المنسوخ متروك وكذلك المؤخر فإنه متروك، وكلاهما يجوز أن يحمل عليها الإتيان بخير مما ترك بالنسخ أو بالنسيء

---

[1] معاني الزجاج، 167/1، ولسان العرب، 243/14، وغريب السجستاني، ص : 195.

[2] غريب ابن الهائم، ص : 89.

خاتمة

إلى هذا الحد انتهى بي البحث في هذا الموضوع الآخذ من القراءات ووجوهها، واللغة وأحكامها، والبيان وأساليبه، فكان موضوعا يتوفر على قدر غير قليل من الإمتاع، بالنظر في ما يكون التعبير البياني الأرفع، والأداء الفني الأسمى، وإن كثيرا من هذا لموقوف عليه في كلام أئمة البيان، وأرباب اللغة واللسان، فكيف إذا اتصل الموضوع بكلام الله تعالى المعجز.

ولقد خلصت إلى أن بحث لغة القرآن الكريم، من جهة اختلاف وجوه قراءاته، مما له قيمة بالغة، وخطر ظاهر، في مجال السعي في معرفة العربية، وسنن العربية، وإمكانات العربية.

ثم إن أهم ما يمكن عده نتائج، وحصيلة لهذا البحث، يرى فيما يلي :

- تنويع أساليب القول، وتلوين طرائقه، وتوسيع المحصول الدلالي، وكذا إثراء المعاني، كل ذلك مما يحقق بالبحث العلمي المنهجي الغاية من إنزال القرآن بأكثر من حرف.
- يتجلى الغرض من اختلاف القراءات أكثر ما يتجلى في الاختلاف المعجمي لانتظامه الاختلاف الصوتي والصرفي، وربما زاد على ذلك ليطال التركيبي، مما يتعين معه وجوب إفراده بالبحث والدراسة.
- يرتد غير قليل من اختلاف القراءات معجميا إلى ما يصطلح عليه بالقراءات التفسيرية، والترادف هو غالب ما يكون به التفسير، ولكن البحث السياقي الذي يراعي اللفظ ومرادفه، ضمن الاستعمال، كفيل بالتصدي لمسألة الترادف تصديا منهجيا قائما على المقتضى العلمي للبحث في اللغة وقضاياها.

- بحث الاختلاف المعجمي، في وجوه القراءات، من جهة الفروق البنائية، ضمن مقتضيات التبويب الصرفي في النحو العربي، كفيل كذلك بضبط البحث في مسألة معاني الأبنية، ودلالة المباني على المعاني.

- إن ربط فروق المعاني (الترادف)، وفروق المباني (الصيغ)، بالقراءات المختلفة معجميا، كفيل كذلك بإثبات الفروق اللغوية في البابين معاً، مما يجعل من القول بإنكار الترادف المطلق خالصا لتنزيه اللغة من التوسل غير المجدي، إذ اللغة ذات طابع نفعي، فما هي إلا أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

- إن الخلوص إلى أن قيام الفروق محقق بالبحث، وإن هو خفي، خلوص إلى أن ليس يصلح للقرآن من الألفاظ إلا ما جاء به الوحي، وصح به النقل، وهو من دلائل الإعجاز فيه.

- من الضروري جدا اليوم الاتصال بما انتهت إليه البحوث اللغوية الحديثة، والدراسات اللسانية المعاصرة من نتائج وحقائق، وكشوف علمية في حقل اللغويات، إذ أنها تتوفر على حلول موفقة إلى آماد بعيدة لغير قليل من المسائل المثارة في تراثنا العربي، فهذه مسألة الترادف قد نالت من عناية الأولين والآخرين ما يرى في جهود عظيمة لفصل القول فيها على نحو مرضي، ومع ذلك، فإن الموضوع لم يكد يظفر بتحليل متماسك إلا على يد السيميائيين، وهذه النظرية السيميائية المعنمية نموذج جيد في ذلك.
- على أنه من المتعين على من يبحث موضوع الترادف في لغة القرآن الكريم خاصة أن يميز، وهذه إحدى الثمرات المعنمية، بين مستويين في عربية القرآن :

– المستوى الإحالي : وهو الذي يكون الاهتمام فيه منصبا على الجامع الدلالي بين ما يظن به الترادف، لغرض تحقيق وظيفة الشرح والتفسير، وهنا يصلح تطبيق مبدأ التبادل الموقعي.

– المستوى الإيحائي : وهو الذي يزيد على الوظيفة الإحالية التعبير عن قيم جمالية وفنية تميز بين استعمالين مختلفين للفظين مترادفين في ظن ما.

هذا، وأحب أن أبدي أمنية بأن يتولى غيري البحث في ما تركت من قراءات مما يصلح إدراجه ضمن مباحث هذا العمل، ذلك لأني اقتصرت على ما يكفي لتوضيح رؤيتي، وتحقيق البحث المنهجي الذي يتكفل بتوزيع أفراد هذا الموضوع وفق مباحث وفصول وأبواب.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

قائمة

المصادر والمراجع

✓ **القرآن الكريم .**

<u>أولا</u> : الكتب والمؤلفات :

1) أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، د. نجاة عبد العظيم الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1989م.
2) أبنية المصدر في الشعر الجاهلي، د.وسمية عبد المحسن المنصور، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ط1، 1984م.
3) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للدمياطي البنا، المطبعة الميمنية، مصر، 1317 هـ.
4) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط3، 1951م.
5) أثر القراءات القرآنية في الفهم اللغوي، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، د. محمد مسعود علي حسن عيسى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2009م.
6) الأدوات النحوية في كتب التفسير، د.محمود أحمد الصغير، دار الفكر، دمشق ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2001م.
7) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، مطبعة السعادة.
8) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، دار المعرفة، بيروت، 1979 .
9) أساس البلاغة، للزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1985م.
10) أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، د. الحسين جرنو محمود جلو، مؤسسة الرسالة، دار العلوم الإنسانية، دمشق، سوريا، ط1، 1994م.
11) أسباب النزول، للواحدي، دار الضياء، قسنطينة، قصر الكتاب، البليدة، (دت).

12) استعمال الصيغة العربية بين الوضع والنقل، أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2007م.
13) أسرار التكرار في القرآن، المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لمحمود بن حمزة الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، مصر، 1977م.
14) أسماء الجموع في القرآن الكريم، د.محمد إبراهيم عبادة، منشأة المعارف، مصر، 1988م.
15) الأضداد في كلام العرب، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق : عزة حسن، دمشق، 1963م.
16) الأضداد، لابن السكيت، حققه : د.محمد عودة سلامة أبو جري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
17) الأضداد، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق : محمد عورة أبو جري، دار الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
18) الأضداد، لقطرب، تحقيق : د. حنا حداد، دار العلوم للطباعة، الرياض، 1985م.
19) الأضداد، للأصمعي، (ضمن ثلاثة كتب في الأضداد)، تحقيق : أوجست هفنر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1913م.
20) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، 1968 .
21) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، مكتبة رحاب، الجزائر، ط8، (طبعة مصورة)، (دت) .
22) الإعجاز القصصي في القرآن، أ. د. سعيد عطية مطاوع، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006م.
23) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق : د.زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط2، 1985م.
24) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق : زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، 1977 .

25) الأغـاني، للأصـفهاني، تحقيـق لجنـة مـن الأدبـاء، دار الثقافـة، بيـروت، لبنـان، ط6، 1983م.
26) أفعال المطاوعة واستعمالاتها في القرآن الكريم، أيوب جرجيس عطية القيسي، دار القمة، ودار الإيمان، مصر، 2004م.
27) أقسام الكلم العربي من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2008م.
28) أمـالي المرتضـى، المسـمى : غـرر الفوائـد ودرر القلائـد، للشـريف المرتضـى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2005م.
29) إملاء ما من به الرحمن، للعكبري، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، (د ت).
30) الإنصاف في مسائل الخلاف، لابن الأنباري، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، (دت) .
31) البـاء، دراسـة نحويـة صـرفية، د.عبـد العزيـز محمـد فـاخر، دار التركـي، مصـر، 2003م.
32) البحث الدلالي في كتاب سيبويه، د. دلخوش جار الله حسين دزه يي، دار دجلة ناشرون وموزعون، والمعتز للنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2007م.
33) البحر المحيط، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
34) بحوث في علوم التفسير، محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 2005م.
35) البرهـان فـي علـوم القـرآن، لبـدر الـدين الزركشـي، تحقيـق : محمـد أبـو الفضـل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ.
36) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تحقيق : محمد علي النجار، القاهرة، 1383هـ.
37) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2000.
38) البنى النحوية، نعوم تشومسكي، ترجمة : د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة : مجيد الماشطة، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987م.

39) بنية الكلمة العربية، دراسة لجغرافيا التنوع اللهجي في ضوء القراءات القرآنية، جمال حسين أمين إبراهيم، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، ط1، 2008م.
40) البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 2009م.
41) تاريخ القرآن، لأبي عبد الله الزنجاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط3، 1969م.
42) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق : السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط3، 1981 .
43) تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي، للصيمري، تحقيق : يحي مراد، دار الاحديث، القاهرة، 2005م.
44) التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد، المعروف بابن الهائم المصري، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م.
45) التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
46) التحليل الدلالي في الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، دراسة في البنية الدلالية لمعجم العربية، د.محي الدين محسب، دار الهدى للنشر والتوزيع، مصر، 2001م.
47) تذكرة الأريب في تفسير الغريب، غريب اللفظ والمعنى في القرآن الكريم، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دراسة وتحقيق: د. حنان عدنان الشعار، منشورات مطبعة إيباكس، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
48) الترادف في القرآن الكريم، بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، سوريا، ودار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2001م.
49) الترادف في اللغة، لحاكم مالك الزيادي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980م.
50) الترجمان عن غريب القرآن، لتاج الدين أبي المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني، دراسة وتحقيق: موسى بن سليمان آل إبراهيم، مكتبة البيان، الطائف، السعودية، ط1، 1998م.

51) تصريف الأسماء، محمد طنطاوي، مطبعة وادي الملوك، ط5 1955 .
52) التصـوير الفنـي فـي القـرآن الكـريم، دراسـة تحليليـة، د. جبيـر صـالح حمـادي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007م.
53) التضـمين النحـوي فـي القـرآن الكـريم، د. محمـد نـديم فاضـل، مكتبـة دار الزمـان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2005م.
54) التضـمين فـي العربيـة، بحـث فـي البلاغـة والنحـو، أ. د. أحمـد حسـن حامـد، الـدار العربية للعلوم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2001م.
55) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة، مكتبـة المنـار، الأردن، ط1، 1985م.
56) التطـور الـدلالي، الإشـكال والأشـكال والأمثـال، د. مهـدي أسـعد عـرار، دار الكتـب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
57) التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف، مكتبة الفلاح، الكويت، ط4، 1984م.
58) التعريفـات، لعلـي بـن محمـد بـن علـي الحسـيني الجرجـاني، حققـه وعلـق عليـه : نصر الدين تونسي، شركة القدس للتجارة، القاهرة، ط1، 2007م.
59) تفسـير ابـن عرفـة، لأبـي عبـد الله محمـد بـن محمـد بـن عرفـة الـورغمي، تحقيـق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.
60) التفسـير القـيم، لابـن القـيم، حققـه: محمـد حامـد الفقـي، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، لبنان، 1978م.
61) التفسـير الكبيـر أو مفـاتيح الغيـب، لفخـر الـدين الـرازي، دار الفكـر للطباعـة والنشـر والتوزيع، ط1، 1981م.
62) تفسير النسفي، المسمى : (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، (د ت) .
63) التفكيـر العلمـي فـي النحـو العربـي، د. حسـن خمـيس الملـخ، دار الشـروق للنشـر والتوزيع، الأردن، ط2، 2002 .
64) التقابل والتماثل في القرآن الكريم، د. فايز عارف القرعان، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2006م.
65) تهذيب المقدمة اللغوية، د.أسعد علي، دار السؤال، دمشق، دت.

66) التوسع في كتاب سيبويه، د. عادل هادي حمادي العبيدي، مكتبة الثقافة الدينية، دار المصري للطباعة، القاهرة، 2004م.

67) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للمرادي، تحقيق : أحمد محمد عزوز، المكتبة لعصرية، لبنان، ط1، 2005م.

68) التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق : محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1410هـ.

69) التوهم عند النحاة، د.عبد الله أحمد جاد الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2001م.

70) تيسير الكريم المنان، لابن ناصر السعدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1992.

71) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه وخرج أحاديثه: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت).

72) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، اعتنى به وصححه: الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

73) الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، د. خالد أحمد أبو جندي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، (د.ت).

74) جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، سوريا، ط3، 2009م.

75) الجمع الصوتي الأول للقرآن أو المصحف المرتل، د. لبيب السعيد، دار المعارف، مصر، ط2، 1978م.

76) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، دار المعارف، القاهرة، 1982 .

77) جمهرة الأمثال، للعسكري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الحميد قطامش، دار الفكر، ط2، 1988 .

78) جمهرة اللغة، لابن دريد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، مكتبة المثنى، بغداد، ط1، 1345هـ.

79) الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق : فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

80) الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، د. عبد البديع النيرباني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سورية، ط1، 2006م.
81) حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت).
82) حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمان بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1997م.
83) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق : د.عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6، 1996م.
84) الحيوان، للجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، مصر، 1357 هـ.
85) حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، د. سمير أحمد معلوف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996م.
86) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي، دار صادر، بيروت، ط1، (د.ت).
87) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، (د.ت).
88) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت).
89) درة التنزيل وغرة التأويل، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، اعتنى به : الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
90) دروس التصريف، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1995.
91) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، لمحمد يس خضر الدوري، مجلس كلية التربية، بغداد، 2005م.
92) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، اعتنى به : علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، ط1، 2005م.

93) دليل الحفاظ في متشابه الألفاظ في متشابهات القرآن، يحي عبد الفتاح الزواوي، دار ابن حزم، القاهرة، 2010.
94) دليل الحفاظ في متشابه الألفاظ، في متشابهات القرآن الكريم، تأليف يحي عبد الفتاح الزواوي، دار ابن حزم، القاهرة، مصر، 2010م.
95) ديوان الحطيئة، تحقيق : نعمان طه، مصر، ط1، 1958م.
96) ديوان الفرزدق، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، 1960م.
97) ديوان النابغة الذبياني، حققه : د. شكري فيصل، دمشق، 1968م.
98) ديوان الهذليين، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945م.
99) ديوان امرئ القيس، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1964م.
100) الرسم القرآني ضابطا من ضوابط القراءة الصحيحة، د.توفيق بن أحمد العبقري، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، مصر، ط1، 2002.
101) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، ط2، 1960 .
102) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).
103) زاد المسير في علوم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1984م.
104) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق : د. حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق ط2، 1987م.
105) الزمن النحوي في اللغة العربية، د. كمال رشيد، عالم الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008م.
106) السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق : د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، (د ت).

107) سبك المنظوم وفك المختوم، لابن مالك، حققه : أ. د. عدنان محمد سلمان وأ. م. فاخر جبر مطر، دار البحوث للدراسات الإسلامية وأحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2004م.

108) سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، (د ت).

109) سنن أبي داود، راجعه وضبط أحاديثه : محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1935م.

110) سنن الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، 1403هـ.

111) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مراجعة : د.محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م.

112) شرح الأشموني على الألفية، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1955م.

113) شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق : د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، دار هجر، ط1، 1990.

114) شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1978 .

115) شرح المعلقات العشر المذهبات، للخطيب التبريزي، ضبط نصوصه : د.عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم، بيروت، لبنان، (د.ت).

116) شرح المفصل، لابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).

117) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1941م.

118) شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق : أحمد حسن مهدلي وعلي سيّد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.

119) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس، علق عليه: أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

120) الصحاح، للجوهري، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987 .

121) صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، 1981 .

122) الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، أ.د.محمد فريد عبد الله، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2008م.
123) ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، التركيب والرسم والإيقاع، د. عمر عبد الهادي عتيق، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2010م.
124) العجاب في بيان الأسباب، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، المعروف بابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997م.
125) علم الأصوات، د. حسام البهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004م.
126) علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، د.فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005.
127) علم اللغة العام، الأصوات، د. كمال محمد بشر، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1980م.
128) علم اللغة، د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، (دت) .
129) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
130) غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، لأبي بكر السجستاني، الزهراء، (د.ت).
131) غريب القرآن في لغات العرب، لأبي حيان الأندلسي النحوي، تحقيق : د.حمدي الشيخ، دار اليقين المنصورة ودار القبلتين، الرياض، ط1، 2005م.
132) غريب القرآن وتفسيره، لأبي عبد الرحمان عبد الله بن يحي بن المبارك اليزيدي، حققه وعلق عليه: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1985م.
133) الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، تحقيق : علي محمد بجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط2، (دت) .

134) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت ط2، (دت).
135) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لأبي يحي زكريا الأنصاري، حققه وعلق عليه : محمد علي الصابوني، دار الجيل، بيروت، ط1، 1402هـ.
136) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه وخرج أحاديثه: د. عبد الرحمان عميرة، (د.ت).
137) الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1993م.
138) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ضبطه ولفقه : حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
139) فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب، لليازجي، بيروت، (د ت) .
140) فعلت وأفعلت، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق وشرح وتعليق : ماجد حسن الذهبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1984م.
141) فعلن وأفعلت، لأبي حاتم السجستاني، حققه ودرسه : د. خليل العطية، البصرة، 1979م.
142) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: إميل نسيب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1998م.
143) فقه اللغة، لعلي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ط7، 1972م.
144) في الصرف وتطبيقاته، لمحمود مطرجي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.
145) في المعنى النحوي والمعنى الدلالي، د.خالد إسماعيل حسان، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009م.
146) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، دار الجيل، بيروت، (د ت).
147) القراءات القرآنية، تاريخها، ثبوتها، حجيتها وأحكامها، عبد الحليم بن محمد الهادي قابة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

148) قضية الاستغناء في النحو العربي، د.خالد عبد الحميد السيد أبو جندية، دار وهدان للطباعة والنشر، مصر، ط1986،1م.

149) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق : د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1999م.

150) كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1972م.

151) كتاب الغريبين في القرآن والحديث، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة : أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط1، 1999م.

152) كتاب اللغات في القرآن، أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس، حققه ونشره: صلاح الدين المنجد، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1946م.

153) كتاب المصاحف، لأبي بكر عبد الله بن سليمان السجستاني، الشهير بابن أبي داود، حقق نصوصه وضبطها وعلق عليها: أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.

154) الكتاب، لسيبويه، تحقيق : د.عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م.

155) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م.

156) كشف الخلفاء، للعجلوني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2000.

157) الكلمة، دراسة لغوية معجمية، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1998.

158) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، ط2، 2011م.

159) لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت– لبنان، ط1، 2002م.
160) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط10، 2009م.
161) اللسانيات والدلالة، الكلمة، د.منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م.
162) لطائف الإشارات لفنون القراءات، للقسطلاني، تحقيق الشيخ عامر عثمان ود.عبد الصبور شاهين، القاهرة، 1972م.
163) اللغات في القرآن، لابن حسنون، تحقيق : صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط2، 1972 .
164) لغة القرآن الكريم، د.عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن، (د.ت).
165) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1999م.
166) ليس في كلام العرب، لابن خالويه، شرحه وضبطه : د. ديزيره سقال، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2000 .
167) ما جاء على فعلت وأفعلت والمعنى واحد، للجواليقي، تحقيق وشرح : ماجد حسن الذهبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1982م.
168) مجاز القرآن، لأبي عبيدة، تحقيق : فؤاد سزكين، مطبعة الخانجي، القاهرة، ط2، 1970 .
169) مجالس العلماء للزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة حكومة الكويت، 1962 .
170) مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1955م.
171) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان ابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي.

172) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق وتعليق: الرحالة الفاروق، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ومحمد الشافعي الصادق العناني، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط2، 2007م.

173) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، لابن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).

174) المخصص، لأبي الحسن علي بن سيده، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

175) المذكر والمؤنث، لأبي بكر ابن الأنباري، حققه الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، 2007 .

176) المرشد الوجيز، لأبي شامة، تحقيق : طيار ألي قولاج، دار صادر، بيروت، (د.ت).

177) المزهر في علوم اللغة، لجلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (د.ت).

178) المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1937.

179) المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1977م.

180) مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر،بيروت، (دت) .

181) المشتقات العاملة في الدرس النحوي، د.عصام محمد آل عبد الواحد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2006م.

182) مشكل إعراب القرآن، لأبي بكر مكي بن أبي طالب القيسي، حققه وعلق عليه: ياسين محمد السواس، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط3، 2002م.

183) المصباح المنير، للفيومي، المطبعة الأميرية الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ.

184) معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 2007م.
185) معاني القراءات، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد بن عيد الشعباني، دار الصحابة للتراث، مصر، 2007م.
186) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، شرح تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، 2004م.
187) معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1990م.
188) معاني القرآن، لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م.
189) معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، د.محمد صالح مخيمر، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2005م.
190) المعجم العربي، بحوث في المادة والمنهج والتطبيق، د. رياض زكي قاسم، توزيع دار الباز، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1987م.
191) معجم القراءات القرآنية، مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء، د. أحمد مختار عمر، ود. عبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط2، 1988م.
192) معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، القاهرة، ط1، 2002م.
193) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط3، 1992 .
194) معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم، ومحمد وهبي سليمان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ودار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
195) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م.
196) المعنى اللغوي، دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقا، د.محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009م.

197) مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، لأبي العلاء الكرماني، دراسة وتحقيق: د. عبد الكريم مصطفى مدلج، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
198) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق : صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت، ط1، 1996م.
199) المقتضب، للمبرد، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963م.
200) مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
201) مقدمتان في علوم القرآن، (مقدمة كتاب المباني لمجهول، ومقدمة ابن عطية، نشرهما : المستشرق د. آرثر جفري، مصر ، 1972 .) .
202) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983م.
203) الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق : د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1978م.
204) من أسرار اللغة في الكتاب والسنة، معجم لغوي ثقافي، د. محمود محمد الطناحي، المكتبة المكية، دار الفتح للدراسات والنشر، المملكة العربية السعودية، والمملكة الهاشمية الأردنية، ط1، 2008م.
205) من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم، د. أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2007م.
206) من جماليات التصوير في القرآن الكريم، تأليف محمد قطب عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 2006م.
207) مناهل العرفان في علوم القرآن، لعبد العظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، القاهرة، (د.ت).
208) المنتخب من غريب كلام العرب، لأبي الحسن علي بن الحسن الهناني، المعروف بكراع النمل، تحقيق: د. يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 2005م.

209) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1980.
210) المنصف، لابن جني، تحقيق : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1954 .
211) المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400 هـ، 1980 .
212) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، (د.ت).
213) موسيقى اللغة، د.رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، مصر، 2003م.
214) نزهة الألباء في أخبار الأدباء، لابن الأنباري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، (دت) .
215) النظرية اللغوية في التراث العربي، د. محمد عبد العزيز عبد الدائم، دار السلام، مصر، ط1، 2006 .
216) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986 .
217) النهر الماد من البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تقديم وضبط : بوران وهديان الضناوي، دار الفكر، لبنان، ط1، 1987م.
218) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، تحقيق عبد العال سالم مكرم، وعبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975 .
219) وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلى أمته، أ.د.محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010م.
220) الوصف المشتق في القرآن الكريم، دراسة صرفية، د. عبد الله بن حمد بن عبد الله الدايل، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996م.
221) الوصف في القرآن الكريم، ليونس جاسم، دار المكتبي، سورية، ط1، 1995م.

ثانيا : المجلات والدوريات :

1) الأضداد في اللغة، للتوزي، تحقيق : محمد حسين آل ياسين، ضمن مجلة المورد العراقية، العدد الثالث، المجلد الثامن، 1979م.
2) التوهم في كتاب سيبويه، راشد أحمد جراري، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد : 66، السنة : 17، 1999م.
3) السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، محمد إقبال عروي، مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد : 24، العدد : 03.
4) الوقف والابتداء في كتاب الله، لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي البسكري، تحقيق : د.عمار أمين الددو، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، السنة : 22، العدد : 34، أبريل 2008م.
5) ظاهرة الترادف في العربية، للأستاذ ماجد نجاريان، منجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد : 04، السنة : 07، سبتمبر 2002م.
6) الترادف، لعلي الجارم، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، ج1، أكتوبر 1934م.
الترادف، لخليل السكاكيني، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، المجلد : 08، 1955م.

فهرس الموضوعات

مقدمة	(أ – و)
شكر وعرفان	
إهداء	
إهداء خاص	
مدخل نظري :	**(37-15)**
أولا : القراءات القرآنية المختلفة معجمياً تصوراً وصوراً	(21-16)
ثانيا : المباحث اللغوية المتصلة بالقراءات المختلفة في المعنى المعجمي	(37-22)
الباب الأول : الفروق الأدائية البيانية في القراءات المختلفة معجميا في الأسماء	**(38 – 204)**
توطئة	(40-39)
الفصل الأول : الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما وافق المعنى	**(123-41)**
أولا : فروق المعاني: أو الترادف	(86-42)
ثانيا : فروق المباني: أو الصيغ والأبنية	(123-87)
الفصل الثاني : الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما خالف المعنى	**(204-124)**
أولا : مخالفة المعنى مع التقارب الصوتي	(169-125)
ثانيا : مخالفة المعنى مع التباعد الصوتي	(204-170)
الباب الثاني : الفروق الأدائية البيانية في القراءات المختلفة معجميا في الأفعال	**(370-205)**
الفصل الأول : الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما وافق المعنى	**(290-206)**
أولا : فروق المعاني: أو الترادف	(248-207)
ثانيا : فروق المباني: أو الصيغ والأبنية	(290-249)

<u>الفصل الثانـي</u> : الفروق الأدائية البيانية في وجوه ما خالف المعنى	(291–370)
<u>أولا :</u> مخالفة المعنى مع التقارب الصّوتي	(292–331)
<u>ثانيا :</u> مخالفة المعنى مع التباعد الصّوتي	(332–370)
خاتمة	(371–374)
قائمة المصادر والمراجع	(375–393)
فهرس الموضوعات	(394–395)

تم بحمد الله